منى سلامة

غصون البندق

الكتاب الأول

الطبعة 3



عصير الكتب

رواية

غصون البندق

كان ياما كان
في زمنٍ من الأزمان
رأيتُ مِن البندق ثلاث حبات
عند كسرهن تتناثر الغيمات!

كيف نفهم ما نريد، إذا كنا لم نعرف قط مَن نكون؟

أعمال أخرى للكاتبة



عصير الكتب
www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

غصون البندق

الكتاب الأول

عصير الكتب

إهداء

امتنان وإهداء إلى بنات الواحة

آنستني صُحبتكن خمسة أشهرٍ ويزيد

أنتن الحصن المُرتجى وغاية المُريد.

دُنيازاد

نامت دُنيازاد الأولى واستيقظتُ أنا بديلة

لأستكمل سلسلة الحكايا بأحداثٍ فريدة عجيبة

أتحدث في جوف الليل إلى النجمات

وأسمع منهن جديد الحكايات

لن أبوح لكم باسمي.. ولن أفصح عن رسمي ووصفي

ستكتشفون في نهاية الحكاية

أنني واحدة ممَّن بدأنَ الرواية.

سأقص عليكم أحداثًا أعجب من سابقتها

كنت شاهدة على بعضها

أمسكتُ بالنجمة الأولى وقرَّبتها

وما إن باحت بسرها

حتى تربعتُ فوق عرشي

وناديتُ أجمعكم إلى أرضي

أعيروني أسماعكم

ابسطوا قلوبكم.. وأيقظوا أحلامكم

وإياكم أن تلتفتوا إلى السماء

عندما يدوي رَعد المساء!

كان يا ما كان

في زمنٍ من الأزمان

رأيتُ من البندق ثلاث حبات

عند كَسرهِن تتناثر الغيمات!

الليلة الحادية والعشرون

لماذا نحرص على اختيار الطريق،
إذا كانت كل النهايات تُفضي إلى الممات؟

(1)

أزعجتها رائحة الحناء!

بدَت لها كمعجون مخصص لتحنيط المومياوات، أو مكوِّن سرِّي لطمس حقيقة الأشياء، هل يُمكن إخفاء الحقيقة؟ ربما ترتدي قناع الوهم، أو تتلحف بعباءة النكران، لكنها حاضرة على الدوام، تنتظر من يُفتش عنها ويُعرِّيها، الحقيقة تكره الخديعة.

أزعجتها رائحة الحناء!

لم تشأ أن تبدو وقحة أو غريبة الأطوار؛ جلست وسط الجارات تتظاهر بالمرح والابتهاج، إحداهن تضرب الدُّف، وأخرى تشارك زميلتها الرقص، وثالثة تعد شربات الورد في مطبخ بيتها الصغير.

تتعالى الزغاريد، تجفل لوهلة، ثم تتماهى مع الأصوات الصاخبة، تجلس بينهن في هدوء، توزع ابتساماتها على الجميع.

تسمع كل دقيقة امرأة تقول: «مبارك يا عروسة».

تقبض راحة يُسراها فوق المعجون؛ بارد، رطب، مزعج، يمتد في كفها وينتشر ليُلطخ أصابعها، وأظفارها.

عندما أمسكت الحنَّانة بيُمناها لتكرر فعلتها، جذبتها في حزم، ثم منحتها ابتسامة قصيرة تقول: «واحدة تكفي».

أصابها الصخب بدوار الرأس، ودت لو تناشد النساء المتحمسات لأخذ فسحة من الصمت، لولا أنها لم تشأ أن تُعكِّر صفوهن وقد اجتمعن مجاملة لها. تحاملت إلى أن نظرت إليها الحياة بعين الرأفة، وانقطع التيار الكهربائي في التو واللحظة.

أتت الشموع من اللامكان، وتناثرت في جميع الأركان، تطبع فوق الجدران ظلالًا ممسوخة لأجساد النساء والأشياء، بدت لها مخيفة، كوحوش عملاقة تسعى لابتلاعها.

لم يخفف الظلام المنتشر من حماسة النساء، فتسللت من بينهن وتوجهت إلى شرفة غرفتها المطلة على الجامع الكبير.

أطلقت زفيرًا محملًا بقلق لم تُدرك أنها كانت تحبسه في صدرها منذ بداية الأمسية. ليلة الحناء، هكذا يُطلق عليها، تواري فيها العروس مخاوفها عن الجميع، تسترها كعورة لا يجوز الاطلاع عليها.

وكانت هي تحمل من المخاوف الكثير، أكثر مما تحتمله فتاة في مثل عمرها الذي يدنو بخطوات حثيثة صوب الحادية والعشرين.

انتبهت إلى وجود ابن خالها في شرفة الصالون المجاورة لشرفة غرفتها، على ضوء كشاف الهاتف النقال يتلصص من خصاص الشِّيش على النساء المجتمعات بالداخل.

أمسكت بحصى صغيرة تزين بها أصيص نبتة الريحان، أخرجت «النبلة» المطاطية من جيب فستانها، ثم سددت بدقة الحصاة صوب رأسه.

صاح متألمًا وهو يلتفت باحثًا عن الرامي عازمًا على الفتك به. ما إن طالعته نظراتها النارية حتى انحسر غضبه، وابتلع ألمه. نهرته موبخة: ««مشتاق»!.. ماذا تفعل عندك؟.. هل تتلصص على جاراتنا الآتيات إلى بيتنا واثقات بنا مطمئنات إلينا؟ ماذا تركت لأصحاب السوء وأبناء الحرام؟»».

لم يستسغ نبرتها المترفعة، وكأنها تملك سلطة أخلاقية عليه، أو كأنه مراهق صغير في حين أنها تماثله عمرًا، صحيح أنها أخته في الرضاع، لكن هذا لا يمنحها تفويضًا بمحاسبته متى شاءت.

- كنتُ في الشرفة حين أتينَ وحُبست بالداخل.. لا داعي لكل هذه الدراما.

يعرف نظرتها إليه دون الحاجة إلى رؤية عينيها المعصوبتين بالظلام؛ شاب مُنفلت يتتبع فُتات الفتن في كل مكان، لن تفهم أبدًا أنه ظمآن، يبحث عن شربة ماء وسط صحراء قاحلة لا زرع فيها ولا ماء. كل الفتيات في ميزانه متماثلات، معجونات بالطيش والسفاهة والنُّكران، يتلمس خطواته في دروب الأعين البنية، والخضراء، والزيتونية، بحثًا عن عين صافية صنعها الجوَّاد، ترويه بقطرة واحدة، وتكتُب خاتمة حياته الجدباء، يحط رحالة على أرضها مخيِّمًا، ملازمًا غير مفارق.

لكن كيف للمرأة الواقفة أمامه أن تفهم من المشاعر ما تجهل؟ فما هي إلا غليظة الشعور، وجلفة الذوق، ومتوحشة التفكير. لم يكلف نفسه عناء التبرير، مرر أصابعه بين خصلات شعره الطويل يعيده إلى الخلف، ثم قفز إلى شرفتها، إذ إن غرفتها تفضي مباشرة إلى باب البيت دون المرور بالصالون.

وقفت وحدها مُتسربلة بالظلام، تفكر في علاقتها المضطربة بـ«مشتاق»، يعاملها كند له، لا كأخت في الرضاع وابنة عمَّة يظللهما سقفٌ واحد. يجافيها، فتفيض عليه من صبرها، مراعاة لرابطة الدم التي تُخيطها به.

جفلت حين دق هاتفها برقمٍ غريب.

- خالي!

سارعت تجيب في ابتهاج ما إن تسربت نبراته إلى سمعها. لم يحمل الطرف الآخر البهجة نفسها وهو يطلق كلماته من مخمدها بغضب أرعن: «نفَّذتِ ما برأسك، أليس كذلك يا «سراب»؟.. لماذا لم تنتظري عودتي، ألم يخبركِ المحامي أنه يأمل ألا يتجدد حبسي مرة أخرى؟.. ألم يخبركِ أنني على وشك إثبات براءتي من تهمة الاختلاس الحقيرة التي اتهموني بها؟».

- خالي، لا أصدق أنني أسمع صوتك، من أين تتحدث؟

- وأين سأكون في رأيك؟

- أقصد غير مسموح لكَ بالتحدث هاتفيًّا في الحبس و...

- رجوتُ العسكري لأجري اتصالًا من هاتفه، سمح لي بعدما أخبرته بفعلتكِ اللعينة، وأدرَك أنها مسألة حياة أو موت، كيف تقررين الزواج دون موافقتي، كيف سمحت لكِ أمي؟ هل لأنكِ يتيمة الأب والأم تظننين أن بإمكانكِ أن تفعلي ما شئتِ؟

بهجومه عليها أيقظ العناد النائم في رأسها، ونشَّط القوة الكامنة فيها.

- لم أخفِ عنك شيئًا يا خالي، أخبرتُك أنني سأتزوج.

- وأخبرتكِ ألا تفعلي، أرسلتُ لكِ ألف رسالة مع ابني «مشتاق».. على الأقل انتظري إطلاق سراحي.

- إن عدتَ لن تسمح لي بالزواج أبدًا.

- هذا لأنكِ يجب ألا تتزوجي أبدًا.

قال عبارته الأخيرة صارخًا، بقوة آلمت قلبها قبل سمعها، لم تأخذه بها رحمة ولا شفقة، ألقى بالحقيقة العارية في وجهها. ملعونة، هكذا أخبروها، معجونة بسحرٍ أسود، ومغلَّفة بتعويذة نارية، مخبأة في بطن مومياء أثرية، مضى على موتها خمسة آلاف عام، ومدفونة في رمال الصحراء الغربية!

إذا مسَّها رجلٌ تستيقظ اللعنة من مرقدها، وتسومها سوء العذاب، لعنة كلافتة معلقة على رقبتها: ممنوع اللمس أو الاقتراب.

ملعونة، هكذا أخبروها.

تربت مع الخوف، لازمها كل ثانية، وجثم على أنفاسها في كل مكان، لكنها «سراب» العنيدة، قطة برية لا يُمكن استئناسها، لا بالخوف، ولا بالحقيقة.

ستكسر اللعنة، وتُبدد الأسطورة، ستثبت لخالها أنها فتاة عادية، تحِب وتُحَب، تمِس وتُمَس، تتزوج وتنجب الأطفال.

- الرجل ابن حلال.. جارنا الباب أمام الباب.. لم نرَ منه ما يسوء.. أفصح عن غرضه مباشرة وراعى حق الجيرة والأصول.. أمه تحب جدتي وتؤنس وحشتها عندما أكون في العمل.. تطبخ لها.. وتُطعمها.. سأسكن معه وأمه في بيتهما.. وأكون قريبة من جدتي.. أراها كل يوم وليلة.. أعطني سببًا واحدًا كي أرفض رجلًا مثله.

- لدي سبب واحد فحسب.. وأنتِ تعرفينه جيدًا.

- إنها أوهام تعشش في رأسك ورأس جدتي.. أنا لستُ ملعونة.

صاحت غير عابئة إن تسربت كلماتها الغضوب إلى أسماع النساء المحتفلات بالداخل.

جفلت إذ شعرت بأنفاس تتردد بجوارها، التفتت تفتش في الظلام عن وجه الشخص الواقف خلفها، رأت انعكاس ضوء القمر الهزيل فوق قسمات الرجل الذي سيصبح ليلة غد زوجًا لها؛ اطمأنت، وسكن روعها.

تقف مولية ظهرها لوجه القمر، لم يقرأ المكتوب فوق قسماتها، إلا أنه أدرك فزعتها. بادرها: «هل أخفتكِ؟.. لم أقصد سامحيني، أخبروني أنكِ في الشرفة.. مع من تتحدثين على الهاتف؟».

لم تجبه في الحال، أنهت المكالمة مع خالها المنفعل، بكلمات مقتضبة لم يفهم الرجل الواقف بجوارها فحواها.

التفتت له تستنطق فيه الأمان، تود لو تخبره بكل المخاوف التي تعشش في رأسها، وتلتمس عنده السكينة التي تنشدها.

لم تجرؤ، ربما لأنها لم تعتَد أن تسكب نفسها في آذان غيرها، ما زالت المسافات بينهما كبيرة، والسدود عالية، تطمئن نفسها أنها ستتخطى كل

تلك العقبات عندما تصير ليلة غد زوجة له، وأنيسة في بيته. هكذا في لحظة سحرية سيكون هذا الرجل نصفًا مكملًا لها، هذا ما تأمله وترجوه.

وقتها ستقص عليه حكاية اللعنة، التي تغلبت عليها ونجحت في كسرها، سيضحكان كثيرًا ملء قلبيهما على الخرافة التي يؤمن بها خالها.

تحدث فلم تسمع، ناداها فلم تُجِب، مسَّ كفها فانتفضت بشهقة عالية. لم يسبق له أن اقترب منها إلى الحد الذي يسمح لها أن تسمع أنفاسه، وتشم رائحة عطر ما بعد الحلاقة، لم يسبق له أن تجرأ على لمسها.

عاد التيار الكهربائي في تلك اللحظة، اعتذر موضحًا أنه ما أراد إلا تنبيهها، بعدما ابتلع الشرود وعيها بالكامل، مازحها موضحًا أنها ستصير زوجته بعد ليلة واحدة. يلطف الأجواء المشحونة بينما نظراته تخترق صفحة وجهها، لم تكن غاضبة أو متمنِّعة أو مُستحية، بل فزعة، كأنها رأت الموت وجهًا لوجه!

لم يفهم سر خوفها، ومنبَت اضطرابها، شعر وكأنها جمرة مشتعلة وسط اللهب.

احتار في تفسير ذلك، احتار بشدة.

***

عاد الصخب بوتيرة أعلى مما كان قبل انقطاع التيار الكهربائي، شعرت بكفوف النساء تدق فوق رأسها لا فوق الدفوف. التمسَت الهدوء في غرفة جدتها، كانت في حاجة إلى أن تدفن نفسها في أحضانها، تتشمم رائحتها، وتلتمس عندها السكينة المفقودة.

كانت الجدة جالسة فوق الفراش، تحدق إلى ظلام الغرفة بعينين دامعتين. اقتربت منها «سراب» تمسح عن وجهها آثار البلل، تحمل كفها بين راحتيها، تشد عليها، وتحاول تبديد الخوف الجاثم على أنفاسها.

- جدتي.. سأكون بخير.. أعدك.

تتساقط العبرات فوق وجه الجدة المجعد، الممتلئ ببقع داكنة، كأنه خريطة أثرية، رسم عليها الزمن الدروب التي سلكها، والجسور التي بناها، والصعاب التي عبرها.

تحاول الجدة التحدث، فتخرج كلماتها همهمات غير مفهومة، تفتح فمها، بصرخة أو بكلمة، فيتبدَّى لسانها المقطوع!

تشفق عليها «سراب»، لا تريد أبدًا أن تنتعل حذاء جدتها وتجرب أن تقضي يومًا واحدًا من غير لسان.

امرأة أميَّة لا تجيد الكتابة، حُرِمَت استنطاق الكلمات، لا سبيل لتواصلها مع الآخرين إلا بهمهمات وزمجرات والقليل من الصيحات.

عجوز مقطوعة اللسان، لا تخبرك عما بداخلها، إلا أنها شفافة أمام عيني «سراب»، تمكنت من سماع الفزع في نبرتها المشروخة، والحزن في كلماتها المبتورة.

- جدتي الحبيبة.. ألا تريدين أن ترَيني بفستان الزفاف مثل أمي؟ ألا ترغبين في أن أكون سعيدة؟

أومأت الجدة من غير تردد، دون أن يتبدد جزعها ولو لثانية، أضافت «سراب» بروية من يتحدث إلى طفلة صغيرة: «لن أعطِّل حياتي بسبب خرافة لا أساس لها.. لا تخافي سأكون بخير.. أريدك أن تسعدي لأجلي.. لو كانت أمي على قيد الحياة لما منحتني من الحب أكثر مما منحتِه أنتِ.. لو كان أبي على قيد الحياة لما كان حاميًا ومراعيًا مثل خالي.. أنا محظوظة بكما».

تفكر في الرجل الذي سيمسي ليلة غد زوجها، تضع كفها الملطخة بالحناء فوق موضع لمسته، تشعر به ملتهبًا، مثل طفح جلدي، تحكه بأظفارها، وتخمش. تهز رأسها، تقنع نفسها أنها تتوهم.

تمسك الجدة بكفها تمسح عليها، تنظر إلى عينيها وتفهم.

تتشبث بها الجدة بقوة، تضمها إلى قلبها، تُدخلها فيه عنوة، لو لم تكن للفيزياء قوانين أثيرة، لخبأت «سراب» في حجرة من حجرات قلبها، وغلَّقت عليها الأبواب.

طرقت النساء الباب، نزعن «سراب» من حضن الجدة مثل شتلة تُنزع من أرضها، ألبسنها طوقًا من الورد الأحمر القاني حول شعرها، عندما عدَّلته وخزتها شوكة وأسالت قطرة من دمائها.

جذبتها أم خطيبها بابتهاج إلى الصالون حيث ذروة الاحتفال، تشبثت بها الجدة، لكن قوتها لم تكفِ لاستبقائها، أو لإخفائها عن الأعين في عمق قلبها.

صرخت الجدة من مرقدها بكلمات شائهة، وعين تغرف من الماء المالح وتفيض على وجهها؛ حسِب الجميع أنها تُشاركهن الغناء، واللهو المباح، وحدها «سراب» كانت تفهم عذاباتها.

***

يُلقي الليل عباءته فوق المدينة الناعسة، تعثر الكوابيس على أبواب من ظلام صالحة للعبور، تختار رؤوس الحيارى التي قضمها الأرق، وعضَّتها المخاوف والظنون. يعثر أحد الكوابيس لنفسه على مكان فسيح في رأس «سراب» الراقدة فوق فراشها، تقف على أعتاب الوسَن بروحٍ مضطربة، هائمة.

يفتش الكابوس عن خيوط يتشبث بها، ليُنسج من مخاوفها مشهدًا مفزعًا، تتراقص فيه ألسنة النيران من حولها، رقصة بدائية ماجنة. تزحف ألسنة النار صوب فراشها وتقترب، تعض أنامل قدمها اليُسرى أولًا، ثم تفعل المثل بأختها، تزحف صوب ركبتيها وتضطجع، تقضمها على لقيمات شرهة، ويعلو حسيسها.

تحاول «سراب» الفرار من اللهب، يقيدها الكابوس، يجثم بثقله فوق صدرها يحرمها الصراخ والحركة، يسلب وعيها، ينزع عنها القدرة على الفكاك من براثنه. تشعر بنفسها تهوي إلى جوف النار، تُبتَلع حتى منابت شعرها، تتألم، تتعذب، وتحترق.

تصدح السماء بصوت رعد قوي يُلهِب الأسماع، مرة واثنتين وثلاث؛ يستيقظ وعيها رغم الكابوس مُبددًا سطوته، ينسحب الكابوس خسيئًا حسيرًا يبحث لنفسه عن رأس آخر يبيت فيه ليلته.

تجلس «سراب» فوق الفراش تخفي وجهها بين كفيها، تبسمل وتحوقل وتردد ما شاءت من أذكار تستجلب الطمأنينة إلى قلبها.

لا تزال تسمع حسيس النيران من حولها، وتشم رائحة الشواء في أنفها، تفتح عينيها ببطء وتكشف عن وجهها، فإذا بها أمام نيران حقيقية وجهًا لوجه!

تطوق فراشها وتزحف ببطء فوق الأغراض المتناثرة حوله؛ فستانها، ومقعد خشبي، وقماشة ملطخة بالحناء، وطوق الورد.

تطلق صرخات عالية مستنجدة، تشق السكون وتجذب أسماع الجيران؛ يقتحم «مشتاق» الغرفة راكضًا صوب النيران، يُلقي فوقها الأغراض محاولًا إطفاءها.

تخفي وجهها بين كفيها وتبكي، الحرارة تلفح بشرتها كأنها تذوب، تبكي وتبكي حتى بعد أن خمدت ألسنة النيران وتوقف حسيسها.

تسمع صرخة إحدى الجارات قادمة من غرفة الجدة، تقفز فوق الرماد الساخن فتلتهب قدمها، لا تعبأ بألمها، تركض صوب الغرفة لتجد الجدة ممددة فوق الأرض وقد سقطت على وجهها.

تصرخ باسم الجدة موقِظة، وربما معتذرة، عن محاولتها الحمقاء لكسر اللعنة!

(2)

- حالتها غير مستقرة.. ستبقى معنا لفترة.. نحن بحاجة إلى إجراء العملية في أقرب وقت.. لم يعد يسعنا التأخير.

بدت لها رائحة المستشفى معبأة بالدخان، ثم انتبهت إلى أنها هي نفسها مصدر الرائحة، بعدما لفت حول جسدها معطفًا محترق الأطراف، في أثناء ركوبها مع الجدة سيارة الإسعاف.

ليلة الحناء التي بدأت بالرقص والزغاريد، انتهت في أروقة المستشفى، شقشق الصباح منذ ساعات، معلنًا انتهاء حلم كان أجمل من أن يكتمل.

لم يحتمل «مشتاق» برودة الطبيب، والروتينية التي أخبرهم بها أن حياة الجدة أمسَت في خطر؛ انقض عليه جاذبًا مقدمة قميصه، صارخًا في وجهه: «لو أصاب جدتي مكروه لن أرحمك».

ضبط الطبيب أعصابه قائلًا: «أتفهم خوفك عليها.. لكننا بذلنا ما بوسعنا.. أخبرتكم من قبل أن حالتها حرجة.. عملية زرع نخاع العظام يجب أن تتم في أقرب وقت».

- افعلها إذن.
- لو أتيتم بمتبرع تتوافق تحاليله مع المريضة سنُدخلها غرفة العمليات على الفور.
- ومن أين نأتي بمتبرع؟.. هل نجوب المدينة بحثًا عن واحد؟.. أتينا لك بأكثر من شخص، وقلنا لك خذني أو «سراب».. حتى أبي رفضته.
- فحوصاتكم غير متطابقة مع المريضة.. لا يمكن لأحدكم التبرع لها، أنت بالذات وإن تطابقت فحوصاتك معها فإنك تعاني مشكلة صحية تمنعك من أن تكون متبرعًا مثاليًّا.. سيرفض جسدها عملية الزرع وستكون العواقب وخيمة للغاية.. هل تريد أن تخاطر بحياتها عنادًا واندفاعًا؟

اقتربت «سراب» تناشد الطبيب، توجه له سؤالًا وحيدًا: «بين جدي وجدتي رابطة دم قوية، أبناء عمومة وأبناء خالات في الوقت نفسه، ما فرصة أن يكون جدي متبرعًا مطابقًا للمواصفات؟».

عدل الطبيب قميصه، أجاب موضحًا بإرهاق: «حتمًا الفرصة كبيرة، لكن لا يمكن الجزم بشيء قبل الفحص، فعُمر المتبرع وحالته الصحية مسألة مهمة تؤخذ بعين الاعتبار».

لم يجد «مشتاق» لجامًا يكبحه، ولا خيَّالًا يُروِّضه، مضى يسب ويُبعثر ويتعهد بمحاسبة الطاقم الطبي بأكمله.

هدأت العاصفة بمغادرته، فتمكنت «سراب» من الاتكاء على الجدار، وصولًا إلى الحمام. كان فارغًا إلا منها، وقفت أمام المرآة تتطلع للون الأسود فوق جبينها، وحول عينها، وعند زاوية فمها، تعب من الماء وتغمر وجهها، فيختلط الماء المالح بالعذب، مصبوغًا بالأسود، وقليل من الأحمر يخرج من يدها المُحنَّاة.

تختفي آثار مستحضرات التجميل المتبقية، فتظهر آثار حرق قديم حول رقبتها، تشعر به ساخنًا جدًّا رغم برودة الطقس، ملتهبًا كأنه احترق للتو.

لا يتعافى المرء بسهولة إذا مرَّ بحريق واحد، فكيف بها وقد خرجت من براثن ثلاثة حرائق؟ ترك الحريق الأول آثارًا كارثية، بصمة حول رقبتها لا تزول، والأبشع، تشوهًا في أنفها وفمها ووجنتيها، تطلب خضوعها لعدة عمليات تجميلية إلى أن تخلصت من آثاره الشائهة.

ثم خرجت من الحريق الثاني بأثر متوسط فوق كتفها اليمنى، وها هي تخرج من الحريق الثالث بحرق صغير في ربلة ساقها، في حجم حبة بندق، انتبهت للتو إلى كونه يلسعها بأسواط الألم.

- الثالثة ثابتة.. أنا ملعونة حقًّا.. لن أجرب مرة أخرى.. لن أحاول الزواج أبدًا.

تطلَّب تصديقها للعنة ثلاثة حرائق، وآثارًا تتراوح من الدرجة الأولى إلى الثالثة، بالإضافة إلى ثلاثة رجال تفسخ خطبتها لهم قبل الزفاف بساعات، دون تفسير، دون إيضاح.

هذه المرة تحركت أسرع من المرتين السابقتين، توجهت صوب خطيبها قبل أن تركب سيارة الإسعاف، لن تنسى النظرة الذاهلة فوق وجهه وهي تخبره: «كل شيء قسمة ونصيب».

التي تحولت إلى غضب كبير عندما أيقن أنها جادة غير مازحة.

كان خالها محقًا في غضبه، ولجدتها الحق في فزعها، ما كان عليها التمرد على قدرها.

لم يدُم استسلامها إلا دقائق معدودات، تخللها بكاء متقطع مسموع بالكاد، ثم سددت إلى انعكاس وجهها في المرآة نظرة محاربة، لا تعرف اليأس ولا الهزيمة، عازمة على تحقيق غايتين لا واحدة.

تعثر على متبرع للجدة، وتخنق اللعنة في مهدها.

***

- لا بُد أنكِ تمازحينني يا «سراب».. أوتعرفين؟ إنها مزحة غير مضحكة على الإطلاق.

لم تتوقع غير ذلك من «مشتاق» كرد فعل أوَّلي لما طرحته عليه من حل وحيد لإنقاذ الجدة من الهلاك.

جلسا متقابلين في كافيتريا المستشفى، يحقنان خلاياهما بالكفايين اللازم لمنع النوم من التخييم فوق جفونهما.

قالت غير عابئة برعونته: «أنا جادة تمامًا».

- إذن فقد فقدتِ عقلكِ بالتأكيد.. أتطلبين مني أن أجوب معكِ الصحراء الغربية بحثًا عن جدي الضائع؟

- ليس الصحراء الغربية كلها، بل جزء محدد منها.. الواحات الداخلة فحسب.

- وكأنكِ تتحدثين عن غرفة وصالة.. هل تعرفين مساحة الواحات الداخلة، وعددها؟ ألم تدرسي الجغرافيا في المدرسة؟

- تعرف جيدًا يا «مشتاق» أننا لن نبحث في جميعها، سنتوجه إلى واحة بعينها.

- واحة مسحورة غير موجودة على الخريطة، هذا ألعن وأضل سبيلًا!

- إذا كان هذا هو السبيل الوحيد لإنقاذ جدتي.. سنسلكه.

عنيدة، يعرف ذلك، لكنها كذلك تعرف أنه لا يرضخ لوجهة نظرها بسهولة. معتد بنفسه كما هي معتدة بنفسها، ولا سبيل للتلاقي إلا باللين، وهذا ما فعلته: «تعرف أنها لم تكن جدة لنا فحسب، بل أم لي ولك بعدما سرق

الموت أمي، وسرقت الحياة اللاهية أمك.. جدتنا تتعذب.. ولا أصدق أنك تعرف الطريق الوحيد لإنقاذها وترفض السير فيه».

- البحث عن جدي وسط الصحراء ليس حلًّا ذكيًّا.

- أعطني حلًّا آخر وسأسلِّم لكَ.

تعرف أنه عاجز عن منحها واحدًا، دون متبرع ستموت الجدة، وكلاهما يعرف أن فراقها لا يشبه أي فراق آخر، إنه كفقد الأم مرتين، وليس لأحدهما طاقة على اجترار هذا النوع من الألم مرة أخرى.

قال مندفعًا ومشاكسًا: «ولماذا تظنين أن جدي الذي لم يسأل عن أبنائه وزوجته طوال هذه السنوات.. ولا يعرف حتى أن له أحفادًا.. سيوافق على التبرع لها لإنقاذ حياتها؟ لقد نساها يا «سراب» حياتها لا تهمه أبدًا».

أسندت مرفقيها فوق الطاولة، كشَّرت عن أسنانها وهي تجز عليهم في غضب، ثم أفصحت: «سأحاسبه على ذلك بالتأكيد.. كل ثانية تعذبت فيها جدتي.. كل لحظة شعرت فيها أمي وأبوك أنهما يتيمان الأب سيدفع ثمنها غاليًا.. وسيعود معنا مرغمًا لا مخيَّرًا».

أسند ظهره إلى المقعد ساخرًا بشكل كبير: «وكيف ستجبرين رجلًا بالغًا على ترك الحياة التي اختارها.. والعودة إلى كل ما أدار له ظهره؟».

قالت بثقة لا يشوبها ذرة شك: «سأفعل.. وسترى».

يعرف أنها قادرة، لم يسبق لشيء أن وقف عائقًا أمامها، عنيدة تنتزع ما تريد من فك الحياة الطاحن.

قال باعتراض واهن: «هل تعرفين ماذا سيفعل بي أبي إن علم أنني صاحبتك في رحلتكِ المجنونة هذه؟».

- وهل تعرف كم سأعطيكَ نظير مرافقتي؟

لم يعتد «مشتاقًا» المعافرة لأجل الحصول على شيء، هائم في الحياة بلا أحلام، يؤمن أن الأهداف بوابات السخط، والطموح مقبرة العُمر، وأن أسوأ ما قد يفعله المرء بنفسه هو أن يتعامل مع الحياة بجدية.

رغم ذلك، لا أحد يكره المال، مهما ادعى من الزهد ونكران الذات، ما إن أتت على ذِكر المال حتى انتبه، اعتدل في جلسته واستند، مال فوق الطاولة وأصاخ السمع.

لا تملك «سراب» في محفظتها أكثر مما تبقى من راتبها المعتاد، كأمينة مكتبة، في متجر للكتب بباب اللوق، لكن كليهما يعرف، أنها بعد شهرين بالتمام والكمال ستتم الواحد والعشرين من عمرها، وعندئذ ستتمكن من الحصول على الوديعة التي تركها والدها باسمها.

شهران وسيكون بين يديها ثروة كافية لسد حاجتها إلى نهاية عمرها. وها هي تعرض على «مشتاق» نصف هذه الثروة، لا ينقصها جنيه واحد.

- هل أنتِ جادة؟.. «سراب» لا يوجد مزاح في هذا الأمر.. ستعطينني نصف الوديعة إن قبلتُ السفر معكِ للبحث عن جدي؟

كانت بحاجة إلى رفقته، بدا لها ما ستبذله لا يعد في موازين القيمة شيئًا إذا ما قورن بما ستجنيه في ختام هذه الرحلة.

- اتفاقنا لن يكون شفهيًّا يا «مشتاق» فلنتوجه الآن إلى محامي خالي.. ونطلب منه توثيق هذا الاتفاق بالعقود والمواثيق.. هل أبدو لكَ جادة بما يكفي الآن؟

كاد عقله أن يطيش، فيعتلي الطاولة التي تفصل بينهما مطلقًا صيحة انتصار على الحياة وقوانينها، من يشقَ فيها لا ينَل، ومن يلهُ فيها يحُزها.

لم يكن بحاجة إلى إغراء أكبر، ولا إلى أسباب أقوى، كي يلقي بكل اعتراضاته خلف ظهره، ويقرر المضي معها في رحلتها المجنونة، للبحث عن جدهما المفقود، في واحة يسمع الناس بها، يقصون الحكايات عنها كالأساطير، يفيضون عليها من الأوصاف ما يجعلها جنة أرضية كاملة.

الواحة المسحورة المندسة في مكان خفي بين الواحات الداخلة، التي لا يبلغها قاصد، لا يهتدي إلى بوابتها الكبيرة إلا تائه فحسب!

***

استئجار ممرضة مرافِقة للجدة مدة شهرين، وتوفير مصاريف الرحلة، استلزم بيع سوارين ذهبيين كانت تحتفظ بهما الجدة، هما كل ما تبقى من ذكرى ابنتها الراحلة.

لم تجد «سراب» هدفًا أسمى من إنقاذ الجدة، والبحث عن مربط اللعنة التي دمرت حياتها، كي تنفق لأجله المال الذي نقدها إياه الصائغ.

لم يتطلب التحضير للرحلة الكثير من الجهد، حقيبة كبيرة لكل منهما تحوي أغراضًا مهمة، قد يحتاج إليها السائر في الصحراء، لم يستطع أي

منهما إبلاغ خالها بالخطة، اكتفيا بترك خبر مع المحامي ليتكفل هو بتوصيل الرسالة، التي لن تترك أثرًا أقل مما تتركه قنبلة موقوتة وسط منطقة مأهولة.

الطريق إلى الواحات كان في أغلبه ممهدًا، إلا أن الاستراحات كانت تتباعد كلما توغلا بالسيارة إلى عمق الصحراء الغربية.

تكفلت «سراب» بدفع تكاليف استئجار السيارة، بعدما عرضت بعض محتويات جهازها بثمن بخس، على بنات الجيران اللاتي أذهلهن قرارها المفاجئ بفسخ الخطبة، والرحيل المفاجئ.

لم يحاول خطيبها استبقاءها، شعر بشرخ كبير في كرامته، إثر إنهاء علاقتهما أمام أنظار الجميع.

عندما عادت من المستشفى وبعد أن اتفقت على تفاصيل الرحلة مع «مشتاق»، قابلت خطيبها خارجًا من شقته. أخذت نفسًا عميقًا، جهزت نفسها لتقديم شيء من التبرير يجعله يُدرك أن لا عيب فيه أبدًا، لئلا يعيش طوال عمره مع جرح نبذ لا يندمل.

لم يُمهلها لتقول ما أرادت، إذ وقف قبالتها فوق آخر سلمة تؤدي إلى طابقهما وأفصح: «عرفتُ الآن أن كل ما قاله عنكِ خطيبك السابق كان صحيحًا.. تركتِه يوم الزفاف تمامًا كما فعلتِ مع من سبقه.. والآن تكررين السيناريو نفسه معي.. أنتِ مريضة اهتمام.. تثيرين انتباه الرجل منا إلى أن تُرغِّبيه فيكِ ويحلم بكِ زوجة في بيته.. ثم تتخلصين منه كما تضعين على الرف كتابًا انتهيتِ للتو من قراءته.. فككتِ شفرته ولم يعد لكِ حاجة به.. ثم تبحثين عن كتاب جديد تُصاحبينه.. بموضوع مختلف.. إلى أن تمليه وتنتقلي إلى غيره.. أنتِ مريضة وبحاجة إلى العلاج».

وقفت أمامه ذاهلة، عدة ثوانٍ فقدت خلال النطق كجدتها مقطوعة اللسان، وعندما استعادت قدرتها على الحديث، تساءلت بألم لم تواره: «إذا كنتَ تحمل هذه الظنون عني، وتراني بهذا الشكل البائس.. فلماذا لم تخبرني؟».

- ظننته يفتري عليكِ لأنه خسرك.. أردتُ أن أستكشفكِ بنفسي.. والآن أدركت أن ما قاله أقل بكثير من حقيقتك.. لو جاءني ضحيتك الجديدة بالسؤال.. سأقول له إنني من تركتكِ أولًا.

رفع يده الخالية من خاتم خطبتهما، في إشارة واضحة إلى أنه من كتب كلمة النهاية لا هي. أحست بخاتمه حول إصبعها طوقًا من النار يحرق بشرتها،

لم يشعر أي منهما بحاجة إلى إضافة كلمة واحدة، أولاها ظهره مفارقًا. مرَّت بشقته، فأغلقت أمه الباب بقوة في وجهها، استكمالًا لصفعة ابنها.

تلك الليلة لم تبكِ كثيرًا.. لم تبكِ قط.. كل ما شعرت به كان السخط والرغبة في الانتقام ممن أصابها بهذه اللعنة الخبيثة.

***

تركت قيادة السيارة لـ «مشتاق» إذ إنها لا تحسنها، تولي وجهها شطر الأفق، تتخيل أن النقطة البعيدة هي الواحة المفقودة، التي ما إن تصل إليها ستعثر فيها على الجد الغائب.

ما زالت تتذكر القصة التي سردها خالها على سمعها، عن الرجل الذي تزوجته الجدة ثم أحبته، أو أحبته ثم تزوجته، لم تعد تتذكر هذا الآن.

مرت شهور زواجهما الأولى كحلم جميل، لم يُبدده سوى هوس الزوج بخرائط المدن الضائعة، وكُتب الرحالة المستكشفين. وأكثر ما كان يستحوذ على عقله، ويتملَّك فيه التفكير، الواحة المسحورة في الصحراء الغربية، التي ورد ذكرها غير مرة في كتب الرحالة، عربًا وعجمًا، أبناء أرض، وعابري سبيل.

لم تستطع الزوجة منع زوجها من التخطيط لرحلة العمر التي ادخر لها ماله وشغفه، رافقته مرغمة في سفرته الطويلة داخل صحراء قاحلة على امتداد البصر. أيام وأسابيع وشهور، يحطان زوارًا على أهالي الواحات الداخلة؛ من قرية «تنيدة» إلى «بلاط»، ومن «قلمون» إلى «موط»، مرورًا بـ «القصر» و«الراشدة» و«الموشية». يقدم لهما أهل كل واحة الماء والغذاء والسُّكنة، يقيمان ما طاب لهما المقام، ثم يستكملان حياة الترحال، إلى أن تاها ذات ليلة غابرة، وضلا الطريق إلى أقرب واحة آمنة.

وبينما تسقط الجدة فوق الرمال الصفراء عطشى، خائفة، وباكية، طار زوجها فرحًا، وغمرته البشارة العاجلة؛ أخبرها أن الواحة المسحورة لا يبلغها إلا تائه ضل الطريق إليها، وبما أنهما قد تاها في الصحراء فإنهما أقرب إليها من أي وقت مضى!

لم تصدقه، ولم تكذِّبه، كانت أوهن من أن تُبدي ردة فعل أو تجزم بشيء. وبعد مسيرة يوم وليلة وجدا أخيرًا بوابة كبيرة محفور فوقها نقش لطائر صغير يمسك بين منقاره بمفتاح، يُقال إنه مفتاح الكنوز المدفونة في الواحة المسحورة.

بقيت الجدة وزوجها في الواحة عامًا وراء عام، إلى أن رُزقت البنت والولد، ولما لم تتحمل البقاء بعيدًا عن أهلها في مكان مغلق على ساكنيه، منعزل عن الحياة، تركت زوجها ذات ليلة هاربة، فارة بحياتها وحياة طفليها وهما ابنا التاسعة والعاشرة.

وقبل أن تخرج من البوابة الحجرية، أخبرتها ساحرة الواحة أن آبارهم مسحورة، ألقت فيها تعاويذها بنفسها، من شرب ماءها لزمها، ومن يفكر في الخروج من البوابة التي دخلها، لن تمر حياته دون عقوبة، ومن أخبر عنهم وكشف ستر واحتهم المخفية في بطن الصحراء الغربية، سيُقطَع لسانه من منبته.

لم تصدقها الجدة، خرجت إلى غير رجعة، تحمل القليل من الزاد، تسير بطفليها هائمة، بغير هدى بين الرمال والجبال والأودية.

عثر عليها راعي غنم بالقرب من بئر قديمة، كان قد ارتحل صوبه لسقيا غنمه، قدَّم لها الخبز الشمسي الجاف والحليب، ثم أخذها وطفليها إلى أقرب طريق ممهد، ومنه عادت إلى أهلها.

تزوج الولد وأنجب «مشتاق»، ثم تركته زوجته ذات يوم مفارقة، إثر شجار كبير سمعه أهل المنطقة. وكبرت البنت وأنجبت «سراب»، ماتت وزوجها قبل أن تقر أعينهما برؤيتها شابة بهية، وفتاة قوية.

دفعت الجدة ثمن الفرار من الواحة المسحورة، التي لا يخرج منها المرء كما دخلها، لعنة تصيب بنت بنتها، لا يقربها رجل إلا واحترقت بنيران مستعرة هائجة، تنبت من العدم، وإليه تعود.

وعندما استيقظت الجدة بعد عودتها لأهلها بأيامٍ ثلاثة، وبعدما قصت عليهم حكايتها وما لاقته في سَفرتها من أهوال، اكتشفت أنها بلا لسان، تمامًا كما أخبرتها الساحرة عن العقوبة!

بخلاف البحث عن جدها، وإقناعه بمغادرة الواحة المسحورة لإنقاذ حياة المرأة التي تخلت عنه قبل وقت طويل، سيكون عليها العثور على ساحرة الواحة، وإبطال اللعنة. لا تنتهي اللعنات إلا بيد مُنشئها!

ستستعيد حياتها، مهما كان الثمن!

(3)

المسافة من القاهرة إلى الواحات الداخلة تستغرق عشر ساعات تقريبًا، قطعتها سيارتهما في أربع عشرة ساعة، لتكرار التوقف على الطريق طلبًا للراحة.

عند الوصول كان الدليل في استقبالهما، رتب «مشتاق» معه كل شيء عبر الهاتف قبل الانطلاق في الرحلة.

«مسعود»، خمسيني، خمري البشرة، بشوش الوجه، استقبلهما في الفندق بترحاب كبير كأنهما في زيارة رسمية لتفقد شؤون الواحات الداخلة. ما إن انتهى الترحيب والتخطيط حتى بادرهما «مسعود» بثقة، وهو يصب من إبريق فخاري عصير البرتقال في الأكواب: «اخترت لكما رجلًا من عرَب الدهوس الذين يعيشون على أطراف قرية «الراشدة».. خبير في الصحراء.. يحفظها كما يحفظ شجرة نسَبه.. يعرفها كما يعرف المرء نفسه.. اسمه «رمَّاح».. عرب الدهوس مشهورون بالعمل دليلًا في رحلات السفاري.. اشرب عصير البرتقال إنه من أجود محاصيل مزارعنا نقدمه خصيصى لضيوفنا.. ماذا كنتُ أقول؟.. آه.. «رمَّاح» ليس دليلًا فحسب.. بل أحد أفضل الرجال الذين يعملون في قص الأثر».

قاطعه «مشتاق» بسؤال ساخر: «قص الأثر!.. وهل هذه مهنة يعمل المرء فيها ويقبض نظيرًا لها كل هذا المال؟».

في إشارة ساخطة للمال الذي سيُدفَع. أجاب «مسعود» بحماس: «بالطبع يا أستاذ «مشتاق».. هؤلاء يلجأ المرء إليهم للبحث عن الأشياء والأشخاص التائهين في الصحراء.. الخبير منهم يُقدَّر بالذهب».

أتى لـ «مسعود» اتصال هاتفي فاستأذن للرد، مالت «سراب» صوب «مشتاق» تسأله: «من أين عرفت هذا الرجل؟».

مال صوبها بدوره، يجيب: «إحدى منافع العلاقات العامة مع الآخرين.. التعرف إليهم.. وتبادل الأرقام معهم.. شيء لا يمكنك الحصول عليه من عملك في مكتبة متر في متر بحارة صغيرة في باب اللوق».

- صدقت.. هذا شيء يمكن الحصول عليه من الجلوس على مقاهي وسط البلد بلا شغل ولا شاغل حتى يشقشق الفجر.
- هذا أفضل من العيش داخل قوقعة.
- أنا لستُ حلزونًا.
- لستِ مدركة لذلك.. لكنكِ أميرة الحلزونات.

تنحنح «مسعود» مستشعرًا الحرج من سماع الحديث المحتدم بينهما. عاد للجلوس حول الطاولة ثم سألها في فضول: «اعذريني يا آنسة، لهجتكِ غريبة، من أين أنتِ تحديدًا؟».

أصابها الحرج في مقتل، لطالما اعتاد الناس ملاحظة لهجتها غير القاهرية. تطوع «مشتاق» للرد نيابة عنها وقد أزعجه السؤال مثلها: «أمضت «سراب» قسمًا كبيرًا من طفولتها في قرية نائية تعود إليها جذور أبيها، ثم عاشت معنا في القاهرة حين توفي والداها، لذلك لهجتها تجمع بين هذا وذاك».

لم تحب أن تكون محور الحديث بهذا الشكل الفج، استأذنت للذهاب إلى الحمام، فاستكمل الرجلان الحوار: «لا تقلق يا أستاذ «مشتاق».. سنعثر على جدك في أقرب وقت».

- لأصدقكَ القول.. لستُ واثقًا من ذلك.
- اطمئن.. «رماح» لن يعود إلا وهو يحمل جدك بين ذراعيه.. إنه رجل عنيد.. يحصل دومًا على ما يريد.. ذات مرة أتته عجوز باكية فقدت خلخالًا من النحاس بين الرمال.. كان قد أهداه لها زوجها قبل وفاته.. تخيل خلخالًا أصفر وسط رمال صفراء بامتداد البصر.. لم تمضِ ثلاثة أيام وإلا وقد عثر عليه.. أقول لكَ لن يأتي بجدك إلا «رماح».. اسمع منِّي.

لم يكد ينهي حديثه حتى ظهر «رمَّاح» مقبلًا عليهما؛ رجل طويل، أسمر، جاد القسمات، حاد النظرات، قليل الحديث، كثير التدقيق. انضم إلى الرجلين حول الطاولة، في كافيتيريا فندق صغير تقرر المبيت فيه، يطل على هضبة متدرجة استرعت انتباه «سراب» بالكامل وهي في طريقها إلى الحمام.

وقفت تتأملها مشدوهة، كأن الهضبة معجونة من سحر يجذب الأعين إليها. لم تنتبه إلى الدليل الذي يقف بالقرب من فوجه السياحي الصغير،

الذي كان على مقربة منها يتأملها باهتمام شديد، ربما لم يعتد أن يرى أحدًا ينجذب إلى كومة من الصخور كما تفعل تلك الفتاة الغريبة.

عندما عادت كان «رمَّاح» جالسًا يوليها ظهره، عاجزًا عن رؤيتها قادمة من خلفه، يلقي بأسئلة متقصية بنبرة قوية: «هل أتيتَ إلى الواحات من قبل؟».

- كلا، إنها المرة الأولى.

- ما اسم جدك؟

- «أبو العيون».

توقف قليلًا كأنه يهضم الاسم، ثم أكمل: «تقول إنك فقدت جدك في الصحراء، متى حدث ذلك؟».

- منذ شهر تقريبًا.

أجاب «مشتاق» في عجالة ثم استأذن ونهض، وقبل أن تبوح «سراب» بالحقيقة، أمسك بذراعها، واختلى بها في ركن قصي قائلًا: «هذا الرجل لو عرف وجهتنا لن يرافقنا أبدًا».

- لماذا تقول ذلك؟

- دردشتُ قليلًا مع «مسعود».. لا أحد من الذين يعملون في قص الأثر يوافق على البحث عن الواحة المسحورة.

- ما السبب؟

- لأنهم يؤمنون أنها محض خرافة نسجها الخيال الجمعي.. أسطورة استغلها رحَّالة ألماني للتستر على مهمة التجسس على أبناء الواحات في أثناء الحرب العالمية الثانية.

استرق النظر صوب «رمَّاح» ثم أردف بريبة: «لو عرف وجهتنا.. لن يرافقنا أبدًا».

تتبعت نظرته التي سددها إلى الرجل الذي لم يزل يوليها ظهره، حاز انتباهها كونه يرتدي قميصًا من الكتان، من غير سترة، أو كوفية، كأنه يعيش في فقاعة منفصلة بطقسٍ مختلف. قال «مشتاق»: «يكفي هذا لليوم لقد قتلني التعب.. دقائق أخرى وسأنام واقفًا مثل الحصان».

- وأنا أتجمد بردًا.

عندئذ سمعا صوت ارتطام قوي، كان «رمَّاح» جاثيًا على ركبتيه يُلملم كسر الفخار المبعثر حول الطاولة. قال «مشتاق» متهكمًا: «يا إلهي.. سنضع حياتنا في يد رجل لا يستطيع حمل إبريق!».

سددت له «سراب» نظرة لائمة، وكلمات متبرمة.

عادا إلى الطاولة، استأذنا «مسعود» للراحة في غرفتيهما، واستكمال الحديث صباح الغد على الفطور.

عندما توجها إلى الخارج، كان «رمَّاح» لا يزال يجمع الشظايا المكسورة، ببطء من يملك الزمان كله.

***

رغم التعب، استيقظت باكرًا كعادتها، خرجت من غرفتها تتلحف بمعطف زيتوني من الجوخ. السكون يعم المكان، خطت بقدميها العاريتين فوق الرمال البادرة، اجتاحتها رهبة عظيمة عندما تذكرت أن أرض الواحات التي تسير فوقها الآن كانت أول بقعة يختارها المصري القديم للعيش، وذلك قبل مائة وثمانين ألف سنة.

كلما خلَّفت قدمها أثرًا فوق الرمال الناعمة، تساءلت «سراب» في نفسها: *هل وقعت قدمي فوق آثار رجل من الغابرين، أو امرأة من الأوَّلين؟ تُرى هل تخيل أحدهم حياة اليوم التي تسير بسرعة جنونية؟ ما طبيعة حياتهم وقد كانت هذه الصحراء تُعَد حائط الصد الغربي لمصر من الهجمات والغارات؟*

استرعت انتباهها أصوات قادمة من فوج سياحي صغير مع دليل من أبناء الواحات، ذاك الذي كان يتأملها بالأمس من طرف خفي، يخبر من حوله عن بقايا صوامع عملاقة بالطوب اللبن، شُيِّدت فوق هضاب مرتفعة في قديم الأزمان، كانت تُستخدم لحفظ القمح، وشحذ خيالهم بالحديث عن بقايا قلاع وحصون فرعونية ورومانية تنتشر هنا وهناك.

حدَّثهم عن بير طرفاي الواقع في اتجاه الجنوب الغربي، والمنطقة المميزة التي تحيط به، حيث محل ميلاد الإنسان المصري الأول.

أخبرهم أيضًا أن الواحات الداخلة كان اسمها في العصور الفرعونية «تِس تِس» أي «اقطع اقطع»، إذ كانت أرضها -ولا تزال- معرضة للحفر والشق والقطع لاستخراج الماء من الآبار والعيون.

أخبرهم الكثير عن الواحات الداخلة التي ظلت عاصمة للصحراء الغربية حتى منتصف القرن التاسع عشر، التي تناهز ثلاثين واحة، اسمًا اسمًا ومزية مزية، ولم ينبس بحرف واحد عن الواحة المسحورة.

ضمت ياقة معطفها تحتمي من برد البكور، ثم اندفعت تسأل الدليل متطفلة: «هل سمعتَ من قبل عن الواحة المفقودة؟».

وقبل أن يجيب الدليل، هتف من خلفها صوت قوي بنبرة عدائية: «هل تقصدين واحة زرزورة؟».

كان هذا هو اسم الواحة التي أفقدَت جدها صوابه، وسلَبت جدتها لسانها، وأصابتها بلعنة الاحتراق كلما تجرأ رجلٌ ومسَّها.

«واحة زرزورة»!

التفتت بغتة تُطالع الرجل الذي انشغل ليلة أمس بجمع أشلاء الإبريق الذي كسره دون أن يلقي عليها نظرة أو تحية.

الآن تقذف عليها عيناه حممًا مستعرة لا نظراتٍ عادية!

أدركَت لماذا يرتدي القمصان الخفيفة دون أن يشعر بالبرد، هذا لأنه يشتعل داخليًّا!

تساءلت في وجَل.. لماذا يبدو هذا الرجل غاضبًا إلى هذا الحد؟

دُنيازاد

أدنيتُ النجمة الثانية
وكانت حمراء قانية
تعجبتُ وما زال العجَب
حين أفصحَتْ عن السبب
قالت والعُهدة على عينها
إنها رأت ما يسومها
سوء العذاب وسطوته
فقررَتْ أن تقص حكايته
رجل بين كتفيه هضبة مرئية
مغروزة في جسده بجذورٍ عفية
ظن أن كل ما حوله سراب
خداع وكذب كما يقول الكتاب
أرَّقتها آهاته في جوف الظلام
فسهرت تسمعه وتُحيك الكلام
ثوبًا باتساع قلبه الأسير
ومشعلًا يُنير قلبه الكبير!

الليلة الثانية والعشرون

كيف نفهم ما نريد إذا كُنا لم نعرف قط
من نكون؟

(1)

لماذا يبدو هذا الرجل غاضبًا إلى هذا الحد؟

هذا ما ساءلت نفسها بشأنه، وهي تفحصه بعناية، سيرافقها و«مشتاق» في رحلتهما الخطيرة، عليها أن تتأكد أولًا أنه الرجل المناسب للمهمة.

بدا وكأنها تستجوبه حين أمطرته بأسئلتها: «هل تعرف واحة زرزورة؟.. هل زرتها من قبل؟.. يُقال إنها واحة مسحورة في منطقة مجهولة بالوادي الجديد.. ثمة من يظن أنها تقع بالقرب من واحة سيوة، وآخرون يؤمنون أنها مندسة بين قرى الداخلة.. أو بالقرب من هضبة الجلف الكبير، ما رأيك أنت في تلك الأقاويل، بما أنك متقفٍّ للأثر ودليل خبير؟».

طال انتظارها لإجابته، حتى ظننت أنه لن يُجيب، إلى أن قال بهدوءٍ رهيب: «انسي واحة زرزورة».

هبَّت ريح غضوب أطاحت بالرمال، وعبثت بشعرها، خبأت عينيها بعضدها، عرفت الاتجاه الذي تبث فيه الريح أنفاسها الهوجاء، وأولته ظهرها.

ولما مرَّت الريح بسلام، عادت تُسدد نظراتها في وجه «رماح»، الذي بدا لها في مُستهل الثلاثين، خشن المظهر، مجعد الجبين.

اندفعت تقول: «سألتك بشكل محدد.. فلماذا لا تجيب؟».

فلما أجابها بالصمت، احتدت: «أليس من صميم عملك الذي اتفقنا عليه أن تُحدثنا عن كل ما يخص الواحات.. وترافقنا إلى ما شئنا من اتجاهات؟».

- أنا لستُ مرشدًا سياحيًّا.. لا أعطي المعلومات.. بل آخذها.. أنا أبدًا لا أرافِق.. بل أرافَق.

صمت لبرهة ثم كرر حازمًا: «انسي واحة زرزورة».

- جدي تائه في الصحراء وقد يكون قد ضل الطريق إليها.

- إن كان جدك ما زال على قيد الحياة سنجده في خيمة راعٍ للغنم.. أو في بيت مزارع بإحدى القرى.

- ولماذا لا يكون في الواحة المسحورة؟

- لأنها وهم.. وأسطورة.. لا يوجد واحة بهذا الاسم.. ولم توجد قط.

لا تعرف إن كان يكذب ليُضلها عن السبيل، أم جاهلًا بالواحة ومكانها، لكنها أكثر من يعرف أن الواحة موجودة، وصمَتها بلعنة لم تستطع محوها.

رغم أنها كرهت أن تعترف بذلك، فإن «مشتاق» كان محقًّا في ظنونه، إن عرف هذا الرجل نيَّتهما، سيرفض مرافقتهما، وهما بحاجة ماسة إليه للوصول إلى منطقة محددة بين قرى الداخلة والجلف الكبير، وصفتها جدتها لأهلها قبل أن تفقد لسانها.

في تلك البقعة المرصودة ستجد الواحة المفقودة.

- كيف تاه جدك في الصحراء؟

اضطربت إذ لم تعتد الكذب؛ يتفصد جبينهما عرقًا، يتلجلج لسانها، وينقبض جفناها في تتابع عصبي. عندما رآها «مشتاق» من بعيد أدرك أنها في ورطة، فاقترب منهما يلقي تحية الصباح.

بدا رد فعل «رماح» باردًا، بعكس الترحيب الحار لـ «مسعود»، كرر عليها السؤال، فتطوع «مشتاق» بنسج حكاية من وحي الخيال: «كنا معًا في رحلة سفاري.. يبدو أن الدليل لم يكن ماهرًا كما أوحى.. لم نستطع العثور على جدي مهما بذلنا من محاولات.. قدمنا بلاغًا في النقطة.. لكنك تعرف أن لا أحد سيصرف الوقت والجهد للعثور على عجوز يهيم على وجهه في الصحراء.. ففكرنا في اللجوء إلى خبير».

أنهى قصته بابتسامة تُصدق على الحكاية، تُثير الطمأنينة في النفوس، إلا أن «رماح» استدار يواجهه، عينًا بعين، يفاجئه: «لكنك قلتَ أمس إنكَ لم تزُر الواحات من قبل!».

بدا وكأنه تلقى صفعة على وجهه، أجهد ذهنه في محاولة للعثور على مخرج لهذه الورطة، هذا الرجل ليس ساذجًا كما حسب.

استاءت «سراب»، الكذب الكثير يفتح الثغرات، تصرفت كما يليق بها، حتى وإن رفض مصاحبتها.

قالت في تحدٍّ بادٍ على مُحيَّاها: «لم نفقد جدي قبل شهر.. بل قبل عشرات السنين.. ذهب إلى الواحة المفقودة ولم يعُد.. يجب أن نعثر عليه لأن حياة شخص نحبه في خطر.. لن ينقذها سوى العثور عليه.. لا بأس.. سنتفق مع متقصٍّ غيرك.. لا مشكلة».

سدد لها «مشتاق» نظرة غضب، انطلق يقول باندفاع مُهين: «ماذا تقولين.. هل تمزحين يا «سراب»؟».

رأت أنها لم تفعل سوى الصواب، لن يستطيع هذا الرجل مساعدتهما إلا إن علم الحقيقة، أو على الأقل الجزء الذي يخص الجد، موارية باقي حكايتها وثاني أهدافها. استطال الصمت حتى تململت، جذبت ذراع «مشتاق» راحلة، عازمة على أن يدبِّر لهما «مسعود» رجلًا آخر يعمل في قص الأثر، حتى وإن كان أقل مهارة من الرجل الواقف أمامها.

- هل التقينا من قبل؟

أدهشها سؤاله، حسبته في البداية يوجهه إلى «مشتاق»، ثم اتضح أنها المعنية به، هزَّت رأسها نفيًا، تقول مؤكدة باقتضاب: «لا أعرفك».

أولته ظهرها، تسير بضع خطوات، إلى أن بادرها «رماح» من خلفها: «سأصحبكما للبحث عن زرزورة».

كان قراره مفاجئًا لكليهما، بدا الشك على وجهيهما، يتطلعان إليه في دهشة، ثم يرمقان بعضهما في حيرة.

لم يوضح أسباب قراره، أردف قبل انصرافه: «كونا جاهزين بعد ساعة.. تخففا من الأحمال.. حقيبة ظهر صغيرة فيها الضروريات».

ثم وجه أوامره لـ «مشتاق»: «افحص السيارة عند الميكانيكي قبل الانطلاق».

هزَّا رأسيهما في طاعة عمياء.

***

قدَّم الفندق الصغير فطورًا متواضعًا أنهياه سريعًا، تركا الطاولة قبل «رماح» و«مسعود» بعد أن اتفقا على التفاصيل كاملة، وأنقداه المبلغ المتفق عليه.

لم يشعر أيٌّ منهم بحاجة إلى إخبار «مسعود» بوجهتهم، تركوه على اعتقاده السابق، أن الجد مفقود منذ شهر فحسب، في رحلة سفاري كانت تُعسكِر قرب الجلف الكبير.

بعد ساعة إلا ربع طرقت باب غرفة «مشتاق» لتجده واقفًا أمام فراش صغير، فوقه حقيبة، لم ينتهِ بعد من تجهيزها.

- «مشتاق» إنها رحلة داخل الصحراء.. وليس إلى جزر المالديف.. لماذا استغرقت كل هذا الوقت؟

أمال برأسه متبرمًا، ثم سألها: «كيف حال الجدة؟».

تقدمت إلى أن وقفت قبالته على الطرف الآخر من الفراش، وبصوت متشبع بالقلق قالت: «هاتفتُ الممرضة صباحًا.. تقول إنها تتحسن بطء.. لكن صوت الطبيب لا يُبشر بالخير».

- ما كان علينا تركها.

خمشها عذاب الضمير، ثم ذكَّرت نفسها أنها ما ابتعدت عنها إلا لأجلها. أردفت وهي تلقي بغرض تحمله فوق الفراش، وتشير برأسها صوب حقيبته: «لم يعد لدي مساحة لحمل جهاز اللاسلكي.. لا تنسَ وضعه في حقيبتك».

- وماذا سنفعل به؟

- عندما لا يكون هناك تغطية للهاتف المحمول.. سنلجأ إلى اللاسلكي من أجل التواصل مع «مسعود».

- «مسعود»؟

- أخبرته أن يظل على تواصل معي.. لا أثق تمامًا في «رماح».

أنزلت حقيبتها عن ظهرها أرضًا، ثم توجهت صوب النافذة تتأمل الهضبة التي استرعت انتباهها منذ الأمس، عاجزة عن فهم سر انجذابها. كانت مستغرقة في التفكير، قاطبة الجبين، عندما سألها: «لماذا تبدين منزعجة؟».

عادت إلى موضعها أمامه تقول بريبة جلية: ««رماح».. يثيرني أمره بشدة».

- ماذا فعل؟.. بخلاف أننا بحاجة إلى كمَّاشة لاستخراج الكلمات من فمه؟

- لماذا وافق فجأة على مرافقتنا للبحث عن الواحة بعد أن طلب مني أن أنسى أمرها؟ لماذا قرر البحث عن مكان كان يقول قبل دقائق إنه محض أسطورة.. هذا الرجل يخفي شيئًا بالتأكيد.. ألا ترى أن هذا مريب؟

- أعرف السبب الذي جعله يبدِّل رأيه.

قالها بصوت خفيض، ونظرات غامضة، وأمارات مستريبة. عقدت ذراعيها أمام صدرها، نظرت إليه، وأصاخت السمع. حرك أصابعه في الهواء كأنه يعزف الكلمة، ثم قالها بصوت كالفحيح: «الماااال».

نظرت إليه متبرمة وقد حسبت أنه سيقول شيئًا أكثر أهمية، أردف ساخرًا وهو يضيف فرشاة الأسنان إلى حقيبته: «عندما أخبرتِه أننا سنبحث عن غيره.. تراجع كي لا يخسر المال.. يؤمن أن الواحة مجرد أسطورة.. لكنه لن يخسر شيئًا من مرافقة اثنين من المجانين يبعثران المال على الأوهام.. هذا هو المكوِّن السحري الذي يقلب المعادلات يا عزيزتي.. يغير المواقف ويبدل الاتجاهات.. إنه المال».

- لا يفكر الجميع مثلك.. المال ليس عنصرًا فعالًا في كل المعادلات.
- بالطبع لأننا نعيش في عالم قائم على المقايضة بالبيض!

دست كفها في جيب معطفها القصير، فوق رداء من الصوف يصل إلى منتصف ربلة ساقها، أسفله بنطال واسع من الجينز، حركت الحجارة الصغيرة التي تحملها مع «النبلة» المطاطية، فأصدرت صوتًا تألفه، وترتاح إليه.

لم يمنع نفسه من القول هازئًا: «كما لو أنكِ إن تركتِ ما في جيبك سيخف وزنك وتطيرين في الهواء.. لماذا تحملين الحجارة والنبلة دائمًا.. حتى في جيب فستان الحناء؟».

لا تعرف على وجه اليقين، لكنها ترتاح حين تحمل في جيبها شيئًا من بنات الأرض، حجارة صغيرة تحركها في جيبها عندما يستغرقها التفكير، وسلاحًا تدافع به عن نفسها.

ربما كان «مشتاق» مصيبًا من حيث أراد المزاح، فهي بالفعل تشعر أنها ستطير إن تخلت عن الثقل الذي يقيدها إلى الأرض، حتى وإن كان بوزن حصاة صغيرة جدًّا.

لم تمنحه إجابة شافية، نظرت إلى ساعة هاتفها، مغتاظة رمقت أغراضه المتناثرة فوق الفراش، تسأله: «هل ستقضي النهار كله في تحضير حقيبتك؟».

- أنا في حيرة بين الاختيارات.. هذا الرجل الغامض بسلامته أخبرنا أن نتخفف من أحمالنا.
- دعني أساعدك إذن.

أشار بجدية إلى بنطالين مطروحين فوق الفراش قائلًا: «هذا البنطال مريح في اللبس وبخاصة إن كنا سنركب جملًا أو حصانًا أو شيئًا من هذا القبيل.. لكنه علامة تجارية مكلفة، لذا أفكر في الحفاظ عليه وأخذ الآخر كثير الجيوب فهو عملي أكثر.. وأيضًا هذا العطر إنه شرقي جبلي من الروائح التي يدخل في تكوينها خشب الصندل.. لكني أفكر في الآخر لأنه غربي وأكثر ثباتًا».

حك ذقنه بأنامله يسألها بجدية: «ما رأيك؟».

وقفت مشدوهة تنظر إليه في بلاهة بضع ثوانٍ، وإذ بها بغتة تأخذ إبريق الماء لتسكبه فوق أحد البنطالين، ثم تتناول إحدى زجاجتي العطر، وتُلقي بها بكل قوتها فوق الأرض فتتهشم ويتناثر العطر في أرجاء الغرفة.

كانت الصدمة جلية على وجهه وهو يسمعها تقول: «أنهيتُ حيرتك.. لم يعد عندك اختيارات».

ارتدت حقيبة الظهر، وبينما هي في طريقها إلى الخارج هتف مغتاظًا: «متوحشة، وعدائية، ويليق بكِ العيش في الصحراء مع مجاهيل البشر ذوي الطباع البدائية من أمثال «رماح»».

***

لم يكن «رماح» رجلًا كثير الكلام، إلا أنه كثير المحاذير، أسمعهم القوانين بينما يعملان على وضع قوارير الماء وحقائب حفظ الطعام في حقيبة سيارتهما المستأجَرة: «ممنوع الاقتراب من أي حيوان بري أو لمسه.. مهما بدا مسالمًا.. لا تحاولا إطعامه مهما بدا جائعًا.. إذا اقترب منكما فإياكما والحركة المفاجئة.. كونا هادئين وسيذهب بعيدًا من تلقاء نفسه.. نحن ضيوف على الحياة البرية وليس العكس.. فإياكما والتحدث بصوت مرتفع، أو القيام بأفعال تزعج سكان هذه البيئة من بشر وحيوان ونبات وحتى الحجر».

كان ذلك أطول حديث أفضى به منذ أن التقاهما بالأمس، أخذ نفسًا ثم أردف: «إذا حدثت عاصفة مفاجئة الجآ إلى السيارة دون تباطؤ.. وأمر أخير.. أبناء عرب الدهوس لا يحبون الكلام الكثير».

أنهى تعليماته بحزم كبير: «أي خرق لهذه التعليمات سأعتبر تعاقدنا لاغيًا».

- ماذا ستفعل، هل ستتركنا في منتصف الصحراء؟

سأله «مشتاق» هازئًا كعادته، إلا أن الجواب أثار ريبته: «نعم، سأفعل». أفصح بجدية بالغة، لم يفكر معها أحدهما أنه قالها ممازحًا.

انطلق بالسيارة التي اشترط أن يكون قائدها، يجاوره «مشتاق»، وتجلس «سراب» في عزلتها الخاصة بالمقعد الخلفي، تغرف عيناها من صفار الرمال، وزرقة السماء، وتُهيل الجمال فوق فؤادها.

واحة الداخلة تابعة إداريًّا لمحافظة الوادي الجديد، وأكبر واحات مصر الخمس من حيث تعداد السكان، ومن بعدها تأتي الخارجة، والبحرية، والفرافرة، وسيوة. يُمكن الوصول إليها مباشرة عن طريق ميناء القاهرة البري، لم يخطر لها يومًا زيارتها، لولا الظروف الراهنة.

أما الآن وهي في أحضان الصحراء، تشعر أنها تنتمي إلى هذا المكان أكثر من انتمائها إلى مسقط رأسها.

ربما الألوان الزاهية، أو المساحات الخالية، الجبال النابتة، الهضاب المتدرجة، الكثبان الرملية النائمة على جبين الأرض، أو ربما جميعها عوامل جذب ربطتها بهذا المكان منذ اللحظة الأولى.

أو لعله ليس هذا أو ذاك، وإنما اسمها، الذي ارتبط بالصحراء. «السراب».. يحسب معه الظمآن أنه رأى الماء، وما إن يُقبل عليه، وينهل منه، حتى يجد الهواء في قبضته.

وكانت هي كاسمها، كلما حسبَت أنها قبضت على الحياة، فوجئت بها تُمسك الوهم بين كفَّيها.

كانت حركة السيارة غير ثابتة، نظرًا لارتفاع الكثبان الرملية وانخفاضها، لا يقود «رماح» بعنجهية «مشتاق»، بدا عازمًا، واثقًا، كأنه عقد مع الصحراء اتفاقًا ساريًا، ألا تؤذيه ولا يؤذيها.

استرقت النظر إليه في المرآة العاكسة، لم يلتفت ولا مرة إليها، يصب تركيزه على الطريق، مستمعًا إلى الأناشيد البدوية التي يحملها على مسجل صغير.

في هذا الرجل شيء غير مفهوم، ولطالما كانت تُزعجها الأشياء المبهمة، ربما لأنها واضحة أكثر مما ينبغي، يسهل قراءتها ككتاب من صفحة واحدة، بلا مقدمة طويلة، أو فهرست يضم فصولًا كثيرة.

كتاب قصير، كلما حاولت إضافة الصفحات إليه، تحترق قبل أن تُقرأ.

أوقف «رماح» السيارة عند منطقة ممهدة، وأعلن أنه بحاجة إلى تحديد اتجاهات المسير.

طلب من «مشتاق» مساعدته في نصب الخيمة فوق رمال منبسطة تطل على عين مياه جارية، يطوقها الزرع الأخضر والنخيل.

ظنت «سراب» أنهم بمعزل عن الأعين، إلى أن رأت فوجًا سياحيًّا صغيرًا يصحبه الدليل الذي رأته صباح اليوم عند الفندق، يُعسكِر في مكان قريب.

- أنا متعب.. انصبها وحدك.. أو دع «سراب» تساعدك.

أعرب «مشتاق» عن استيائه من نصب الخيمة عندما فشل في دق وتدها في الرمال.

استرعت انتباهه السائحات، الشقراوات منهن والصهباوات؛ دنا وتدنَّى، سلَّى وتسلَّى، إلى أن بلغت «سراب» ضحكات المزاح. انتهت من نصب الخيمة مع «رماح»، بينما ترمي نظراتها الحانقة صوب «مشتاق».

عندما رآها «مشتاق» تُقبل صوبه كعاصفة رعناء، تتحسس جيبها؛ لملم ضحكاته، وتبرمَت سِحنته في الحال.

تناولوا طعامًا معلبًا سريعًا، دون أن يتشاطروا الحديث أو التفكير.

ألقى «رماح» حصاة في هذا الركود، في أثناء صبِّه للشاي الناضج على الحطب في أكواب: «جدكما الذي غادر منذ زمن بعيد.. لماذا تبحثان عنه الآن؟».

كانت «سراب» عكرة المزاج، إذ قالت: «مهمتك أن تساعدنا في العثور عليه.. لا أن تدس أنفك فيما لا يعنيك».

ابتسم «مشتاق» وقد أطربه تسديدها لكمة في وجه هذا الـ «رماح»، الذي أغاظه برصانته التي تخطت حد البرود. فما كان منه إلا أن قال: «وهل تظنين أن الآثار التي تركها جدك من خلفه ستحفظها الرمال إلى اليوم؟.. ماذا تفهمين عن قص الأثر؟.. أتحسبين أنني ساحر أو دجال؟».

- لماذا صحبتنا إذن؟

تمكنت أخيرًا من الإفصاح عن ريبتها، أكد «مشتاق» حاجتهما إلى الجواب: «صحيح، لماذا وافقت على مرافقتنا؟.. ما هدفك يا «رماح»؟».

أخرج «رماح» رُزمة المال من جيبه، حركها أمام ناظريهما، ثم أعادها إلى مكانها، وهو يقول: «اربط الحمار حيث يريد صاحبه».

ثم نهض ودخل الخيمة، رمقها «مشتاق» متشفيًا يقول: «الغامض بسلامته اتضح أنه لا يفضِّل المقايضة بالبيض كما كنتِ تظنين».

بعد قليل غادرها بدوره، فوقفت وحدها تتطلع إلى شمس المغيب الآفلة وراء الرمال، كان مشهدًا مهيبًا مسح على قلبها بالسكينة، حتى إنها أغمضت عينيها، وتركت وجهها للمسات الرياح وقبلاتها.

- سألتِني سؤالًا ولم تنتظري معرفة الإجابة.

جفلت تستطلع صاحب الصوت، فإذا به الدليل الذي التقته عند الفندق، تمتمت بكلمات معتذرة. فقال متبسطًا: «عامة هذه الواحة التي سألتِ عنها أسطورة حيرت الكثير من المستكشفين.. شخصيًّا لا أصدق ولا أكذِّب.. لكنني أعرف أن الحياة تُخفي في جعبتها الكثير.. إن كان هذا المكان موجودًا.. حتى وإن كان كالجنة كما هو موصوف في الكتب، لا أتمنى أبدًا أن أدخلها».

أدهشها تصريحه، سألته: «إذا كانت الواحة المسحورة موجودة فعلًا.. بكل ما فيها من خيرات.. لماذا يرغب المرء في الخروج منها؟».

- إن كان ثمة جنة.. فحتمًا سيكون ثمة نار.. لا يعيش نقيض دون الآخر.. انظري حولك الحياة مليئة بالمتناقضات.. لا يوجد شيء إلا وهناك عكسه.. لأن المتضادات تُعرَف ببعضها.. لولا الظلام لما عرفنا قيمة النهار.

شعرت بالحرارة القادمة من الحطب أشد حرارةً مما يحتمله جسدها؛ للجسد ذاكرة، كما للعقل ذاكرة، يتذكر كل المرات التي تواجه فيها مع النيران، صارت تستشعر أنفاس النيران أشد لهيبًا مما يفعل غيرها.

طرح عليها عدة أسئلة فضولية، عنها و«مشتاق»، فلم تجبه إلا بكلمات مقتضبة، ومعلومات مبتورة. فلما أحس منها العزوف عن استكمال الحوار، أضاف سريعًا: «بالمناسبة.. «رماح» خبير في عمله.. أثق أنكما ستقضيان معه رحلة ماتعة».

يحسبها قادمة في رحلة سفاري عادية، تركته على اعتقاده، أضافت مجاملة: «نعم، أخبرونا بذلك.. هل أنتَ أيضًا من عرب الدهوس مثله؟».

- مثل مَن؟

- «رماح».

- «رماح» ليس من عرب الدهوس.. «رماح» لقيط مجهول النسب.. لا يملك حتى بطاقة هوية!

خمش القلق بأظفاره في صدرها كقطٍّ مشاغب.

أكمل دون أن ينتبه لاضطرابها: «على العموم ما يهم هو عمله.. وكما قلتُ.. إنه خبير في الصحراء».

غادر مستأذنًا، شرد عقلها مستفهمًا، لماذا يكذب هذا «الرماح»، ولماذا تشعر أنه يخفي أكثر مما يفصح؟

***

(2)

لم تتوقف عن مراقبة «رماح» بعين مستريبة لا تغفل، حتى بينما هو جالس في محراب الصمت، يولي وجهه شطر السماء متأملًا نجماتها. شاطرت «مشتاق» ما عرفته، فما كان منه إلا أن قال: «وما شأننا بشجرة نسبه؟.. لن نُناسبه».

لن يفهم أبدًا أن الكذب في عُرفها حدٌّ فاصلٌ بين المأمون وغير المأمون، لن تُلقي ثقتها أبدًا على جبان يلوي أعناق الحقيقة، ويخشى مواجهتها.

ما إن استكانت، وتمددت أفكارها، حتى شعرت بشيء من الشفقة، على الرجل الذي يجهل من يكون، كيف يعيش في أرضٍ لا يعرف فيها إلى أيٍّ من جذورها ينتمي؟ شيء مخيف.

رغم ذلك لن تتخلى عن حذرها، ستُبقيه تحت مراقبتها، تابعته وهو مقبل عليهما، إذ خرج من محرابه، ليفصح: «سنمضي في هذا الطريق على أقدامنا».

تركا الخيمة منصوبة، والسيارة مركونة، حمل كلٌّ منهما حقيبته فوق ظهره، وساروا في الاتجاه الذي أشار إليه. ليل الصحراء بارد، موحش، يثير الخيالات المخيفة في النفوس. راقبت «رماح» متعجبة من قدرته على السير في الظلام، يتقدمهما من غير تردد، كأنه يحفظ كل موضع قدم.

قص عليهما -وقد كانا بحاجة إلى الاستماع- حكاية مثيرة اشتبك فيها الرومان أصحاب الخيول، مع أبناء الواحات راكبي الجِمال في قتال عنيف، وكانت هذه الجمال هي سبب هزيمة الروم، إذ جعلت الخيول تفر من المعركة بما أصدرته من ضجيج أزعجها، وأثار فزعها.

ثم مضى في الحديث عن بعض الأساطير المتعلقة بالواحات، مثل «بركة فلسطين»، يُقال إنها تقع في مكان غير مرصود، إذا مر بها الطير سقط إلى أن يُمسَك به أو يموت.

وعن مرآة مدفونة في قلب الرمال، من يعثر عليها يرى فيها جواب ما يُلقيه عليها من أسئلة.

وعن أبواب أربعة لمدينة لا يقرب منها غريب إلا واختطفه سلطان النوم، فلا يستيقظ إلا إذا نفخ أحد سُكان المدينة في وجهه، وإلا ظل نائمًا حتى يهلك.

وأكثر ما أثار اهتمامها من حكايات، أن لكل واحة، واحة ظاهرة وأخرى باطنة، تظهر في بعض الأحيان لمن قدَّر الله له رؤيتها.

بعد السير قُرابة ثلاث ساعات، فوق طريق وعر، يعلو وينخفض، عرفت حكمته من البداية في سن قانون التخفف من الأحمال. ودَّت لو تكون مثل الحقيبة، فيُخفف أحدهم أحمالها.

قصت حبال أفكارها صيحة «مشتاق»: «يكفي هذا.. لقد تعبت».

لم يكن التعب قد بلغ منها مبلغه، لا تزال قادرة على المواصلة، نهرته: «كُن رجلًا».

- لماذا نسير على أقدامنا إن كان معنا سيارة دفعنا لاستئجارها مبلغًا وقدره.

بصرف النظر عن كونها هي من دفعت ثمنها، قالت محتدة: «وهل تسير السيارة فوق الهضاب وتنزل إلى الأودية.. انضج قليلًا.. لم أصطحب طفلًا معي».

- لماذا أصلًا نسير فوق الهضاب وننزل إلى الأودية.. وفي هذا الظلام الذي نعجز معه عن رؤية كفوفنا؟

ثم انصرف بصياحه إلى «رماح» يصب عليه جام استيائه: «لماذا تُعذبنا؟.. هل تفعل هذا عامدًا؟».

وقف «رماح» يتأملهما بشيء من التسلية بدا جليًّا على ملامحه. قال بابتسامة فاترة: «أنتما من أردتما البحث عن واحة غير موجودة على أي خارطة.. ماذا ظننتَ؟.. أننا سنمر بها عبر السيارة.. وسأشير إليها قائلًا.. انظر لقد وصلنا.. حمدًا لله على سلامتكما؟».

قالت «سراب»: «وهل تحتم علينا السير ليلًا؟ لماذا لا ننتظر الشروق؟».

- أتبحثين عن مكان لا تعرفين كيفية بلوغه؟.. لا تنفتح بوابة الواحة المسحورة إلا ليلًا.. من الليل ساعة واحدة تستقبل فيها الغرباء.. هكذا تقول الأقاويل.

- وأنت لا تصدق هذه الأقاويل؟

- أظن أنني أجبتُ عن هذا السؤال من قبل.. والآن فلنستكمل المسير.

كانت الساعات التالية أكثر مشقة من سابقتها، ولسبب ما شعرت «سراب» أنهم يسيرون في دوائر، يعودون دائمًا إلى النقطة التي انطلقوا من عندها. شاركت «مشتاق» ظنونها، فلم يكن في مزاج رائق ليلعب معها لعبة التخمين.

بُعيد الفجر عادوا إلى نقطة التخييم، دخل «مشتاق» الخيمة غير عابئ برفقته، تشاركت «سراب» مع «رماح» نصب خيمتين لهما وقد بلغ منها التعب مبلغًا عظيمًا.

تمدد نومها بلا أحلام، تئن فيه المفاصل والعظام، لم توقظها شقشقة الصباح، ولا صوت أفراد الفوج المعسكرين بالقرب من خيمتها.

وحده نداء «رماح» كان مبددًا لنومتها.

تناولت فطورًا خفيفًا بمزاجٍ عكر، تحت شمس تُلهِب فروة رأسها، الفشل الذي لاقته الليلة الماضية أشعرها باليأس، وأكد لها استحالة المهمة التي خرجت من أجلها.

أعلن «رماح» باقتضاب: «سنتحرك بعد قليل».

فضَّلت هي أيضًا توجيه مهمة البحث إلى منطقة أخرى. بعد مرور ساعتين وربع من المسير، كانا على بُعد مسافة قليلة من الجلف الكبير، زمجرت السيارة بحشرجة قوية، مرة واثنتين وثلاث، ثم توقفت معلنة العصيان!

نزل «رماح» لفحص السيارة، تبعه «مشتاق» لاستطلاع الأمر، ومن بعده «سراب» متسائلة: «ماذا حدث؟».

هز «مشتاق» كتفيه قائلًا: «عطل في المحرك».

- هل فحصت السيارة كما أخبرتك؟

كان سؤالًا موجهًا من «رماح» إلى «مشتاق»، إلا أن «سراب» كانت أكثر من ينتظر الجواب.

تلجلج «مشتاق»، بدا كطفل اكتشف أبواه الخطأ الفادح الذي أقدم عليه.

- كنت سأفعل لكنني.. انشغلت في تحضير حقيبتي.

كشَّرت «سراب» عن غيظها، مضت تنهره، وقد كانت بحاجة إلى متنفس تُفرغ عليه ثورتها وإحباطاتها: «الحقيبة التي ملأتَها بتفاهاتك أنستكَ فحص المحرك قبل انطلاقنا في رحلة خطرة داخل صحراء لن يُسمع لنا فيها صراخ؟ هل ما أسمعه صحيح؟».

تصرف «رماح» بعملية، دون أن يولي شجارهما من انتباهه شطرًا، قرر التخييم من جديد، إلى أن يتمكن من إصلاح العطل، فلا يدري إلى متى سيطول المقام.

ارتدى كلٌّ منهما حقيبته فوق ظهره، ابتعدا عن السيارة مسافة قليلة وتموضعا في مكانٍ منبسط، لم يُقدم أحدهما يدًا للرجل الذي عكف على نصب الخيام وحده.

الشمس تُرسل كفوفها لصفع وجوههم، فيغمر العرق أجسادهم، «سراب» التي كان يأكلها الغضب، رمت بكلمات لائمة صوب «مشتاق»: «ما كان عليَّ أن أثق بك».

اندفع بدوره قائلًا: «لا تتحدثي معي وكأنني طفل صغير».

- بل أنتَ رجل طائش غير مسؤول.. وهذا أسوأ.

- توقفي عن معاملتي بتعالٍ.. قبل محاسبة غيرك انظري إلى أخطائك أولًا.

- أنا لم أخطئ.. أنتَ الذي يخطئ دائمًا.

- هذا لأنك عمياء.. «سراب» أنتِ تخطئين مثل الجميع.. بل أكثر من الجميع.. أنتِ شخص لا يستطيع العيش ملتصقًا بأحد.. خُطَّابك لم يكونوا سوى أداة في يدك لإثبات وجهة نظرك.. لم تعبئي بمشاعر أيٍّ منهم.. لم تتوقفي لمشاركة الرجل الذي اخترتِه مشكلتك وإيجاد الحل معًا.. لماذا أنا الذي أرافقكِ الآن وليس خطيبك الذي كنتِ ستصبحين قبل يومين زوجة له؟

لو اطمأنَّت أنه لن يختار مفارقتها، لأخبرته الحقيقة كاملة، لكنها لم تطمئن قط، لم تثق قط.

- لأنني أفكر فيه يا غبي.

- بل لأنك أنانية.. ومستهترة.. تستهترين بمشاعر غيرك.. تظنين أنك تعرفين ما يصلح.. وتأخذين قرارات تظنين وحدك أنها الأصوب.. أوتعلمين؟.. لم تتخذي قرارًا صائبًا ولا مرة.. بما فيها قرار ترك جدتي تُصارع المرض وحدها والمضي في هذه الرحلة اللعينة.

تمردها على المصير الذي رُسم لها، شيء خارج عن إرادتها، التمرد من صميم تكوينها، لا تستطيع التسليم دون معافرة.

- لا يمكن لرجل طائش مثلك أن يفهمني.

- بل أفهمك جيدًا.. أنتِ امرأة لا تعرف كيف تقتسم مشاعرها مع أحد.. ستظلين وحيدة إلى الأبد.. مع اللعنة.. أو دونها.

ألهبت كلماته فؤادها، وما زاد من سوء حالها، هو سماع هذا الغريب الذي لا تثق به، لكل كلمة قالها.

تكالب عليها الحرج والألم، فانصرفت لا تلوي على شيء، تسير بغير هدى فوق الرمال الكثيفة، التي تحتضن خطواتها، تُباركها، تُثني عليها، كما لم يفعل أحد يومًا.

تبعها «مشتاق»، يناديها، يتراجع ويعتذر. لا تتوقف، تستكمل المسير، غير عابئة بنداءاته من خلفها.

أوقفها «مشتاق» بجذبة قوية لذراعها، وقبل أن يتمكن من قول المزيد، حملت الريح صرخات «رماح» الملتاعة على جناح السرعة، التفتا معًا حيث يُشير، فبُهت كلاهما!

عاصفة شديدة هوجاء كانت تُقبل صوبهما بسرعة كبيرة، لا يُعرقلها حجر، ولا يوقفها جبل.

- عودا إلى السيارة.. الآن.

سمعاه بالكاد، ثارت الرمال التي ابتلعت يومًا ما جيش «قمبير» ملك الفرس، الذي أرسله لتدمير واحة «سيوة»، وفي أقاويل أخرى واحة «الداخلة».

الجيش الرهيب، ذو القوة، والعدد والعتاد، صار مضغة في فك العاصفة والرمل المُهاب، فلم يتبقَّ منه إلا ذكرى في كتاب.

حثها «مشتاق» على الهرولة للاحتماء داخل السيارة، ظن أنها تعدو من خلفه، في الاتجاه الذي يسير فيه، إلا أنها توقفت في منتصف العاصفة، تُفكر في الشرط الأهم الذي يجب أن تُطبقه كي تتمكن من العثور على البوابة الضائعة للواحة المسحورة: لا بُد أن تتوه!

لم يستغرق تفكيرها الكثير، ركضت في الاتجاه المعاكس لـ «مشتاق»، تلك هي الطريقة الوحيدة للعثور على واحة زرزورة، هكذا فعل الجد من قبلها.

مغمضة العينين عصفت بها الرمال من كل زاوية، غطت وجهها بوشاح كانت تلفه حول رقبتها، تُجاهد لتستخلص الأكسجين من الهواء وتعبه إلى رئتيها.

بعد دقائق لا تدرك عددها، سكنت الدوامة، وانقشع الغبار، لم تجد شيئًا حولها، الخواء يلفها من كل مكان، رمال صفراء بامتداد البصر، سارت على غير هدى، تمامًا كما فعل جدها.

ما زالت الشمس تُخيم فوق رأسها، بحرارة ألهبَت عطشها، لم تحتمل ثقل حقيبتها، توقفت وشربت كل ما بداخل الزجاجة.

تصعد فوق كثبان رملية، وتنزل من أخرى، إلى أن رأت من مبعَدة مساحة زرقاء يُحيطها زرع أخضر، أملَت ألا يكون هذا الماء كاسمها، سراب في سراب.

اقتربت منه في وجل، كان الطريق إليه أبعد مما تصورت، سارت وسارت، إلى أن هدها التعب.

بلغت أخيرًا المساحة الزرقاء، ضحكت ملء قلبها.

- لم يكن سرابًا.

همست في بشاشة، طرحت عن ظهرها الحقيبة، ثم جثت على ركبتيها تعب الماء إلى أن ارتوَت. وقفت ترمق الشمس الآفلة، التي لم يبقَ من طرف ردائها سوى خيوط باهتة هزيلة. فجأة ومن حيث لا تحتسب حطَّت يدٌ فوق كتفها، أطلقت صرخة عالية، شقت قلب الصحراء، وقسَّمته ثلاث قطع.

عادت الشقوق تلتئم، وأصداء الصرخة تنحسر، استطلعت هوية من أمامها.

- «مشتاق»!.. كيف وجدتني؟

- عندما لم أجدك خلفي وسط العاصفة عرفتُ فيما تفكرين.. بحثت عن آثار قدميك التي انطبعت فوق الرمال بعد العاصفة إلى أن عثرتُ عليها أخيرًا فعرفتُ المسار الذي سرتِ فيه.. كنتُ تتوِّهين نفسك.. أليس كذلك؟

طرب قلبها، لقد جاء من أجلها، منحته نظرة امتنان كبيرة، حجبها الليل بأنامله.

- آسفة لم أقصد ما قلتُ.

- وأنا أيضًا لم يكُن عليَّ أن أقسو عليكِ بهذا الشكل.

سمعا صوت فرقعة خافتة، ثم حركة قريبة لافتة، يُسايرها حفيف الشجر المتناثر حول الماء. وعلى ضوء الكشافات أبصرا حيوانًا يتهادى حثيثًا في ارتخاء.

كاد «مشتاق» أن يسابق الريح هربًا ونجاة بحياته، لولا أن همست به «سراب»: «إياك أن تتحرك.. لا تنسَ ما قاله «رماح»».

تجمدا في موضعيهما، لم يكن هذا صعبًا إذ كانت الريح العاصف، وبرودة المساء قد امتصت طاقتهما، وأصابت مفاصلهما بالخمول.

عندما اقترب الحيوان أكثر تبين أنه ضبع هزيل، يجوب الأرجاء جوعًا بحثًا عن وليمة العشاء.

همست تُناجي ربها، طلبًا للمدد، وأملًا في المؤازرة.

دنا الضبع منهما، بحركة رصينة متأنية، ثم مال صوب الماء وشرب، رشفات صغيرة متتالية.

حط الخوف فوق رأسيهما كأنه الطير، فلم يتحركا لا يُمنة ولا يُسرة، كأن أقدامهما مزروعة في الرمال منذ بدء الخليقة.

أولاهما الضبع ظهره، ثم مضى في طريقه.

تنفس كلاهما الصعداء، وقررا من غير اتفاق أن عليهما مغادرة المكان، خطوتين فحسب، هما كل ما استطاعا بلوغه من مسافات، دوى الرعد يخمش السكون بنبراته القوية، رفعت «سراب» رأسها صوب السماء تُعلق بها بصرها، تجوب به في كل اتجاه.

- انتبهي.

في لحظة عدم انتباه، عاد الضبع مرة أخرى وقد أزعجته ضوضاء السماء، عازمًا على الفتك بابنَي آدم.

- اجري يا «سراب».

وقف الضبع محتارًا هنيهة، ثم اختار أن يعدو في اتجاه الفتاة التي يبدو لحمها شهيًّا، ركضت بأقصى سرعة يتحملها جسدها المُنهك، دون أن تنظر من خلفها، لو نظرت لهلكت، هكذا أنبأها حدسها.

ومن جرف صخري لم تحسب له حسابًا، تهاوت من مرتفع صوب أرض بلا مهاد.

اصطدم رأسها بقوة في صخرة بارزة، شعرتْ بنفسها كالطير العالق في بركة فلسطين، تنتظر من يمسك بها قبل أن تلفظ أنفاسها.

كان آخر ما رأته قبل أن تتسرب الصور من ثقوب وعيها، نجمة تلمع بقوة في ثوب السماء أخافها الرعد بصيحته، فركضت من مرابضها مُحرَّرة، كأنها تفر من قَسوَرة.

(3)

رأت نفسها ترتدي الأبيض وسط لوحة من اللون الأخضر، يحيطها الأصفر من الأطراف، لم يكن ثمة تفاصيل، أو موجودات، فقط بقع من الألوان، متناثرة هنا وهناك.

وسط كل هذه الألوان الشجية، عثرت على ثلاث حبات بُنية؛ الأولى مذاقها كالعلقم، والثانية في أطرافها أشواك، أما الثالثة فتفتَّتت سريعًا في كفها، قبل أن تقبض عليها بأسنانها.

عاد وعيها شيئًا فشيئًا، في رأس مُثقل بمطارح الألم، اشتمَّت رائحة غريبة، لا هي كالزهور، ولا الفواكه، إلا أنها لذيذة، هل يُمكن أكل الروائح؟

سمعت هسيسًا من حولها، وأنفاسًا تلفح وجهها، فتحت عينيها ببطء شديد، ثم أطلقت صيحة عالية.

وجدت نفسها ممددة فوق حصيرة مُسجاة فوق الرمال، في كوخ من الخشب، تتناثر أواني الخوص في أركانه. وما أثار فزعها، وحشد استياءها، رجل يميل بجذعه في اتجاهها، كأنه أحد سُكان المدينة التي ينام الغريب على أبوابها، ولكي تستفيق عليه النفخ في وجهها.

كان الرجل ذا وجه مشوه، كأنه خارطة لعضات النار الحارقة، بدا ككائن خرافي خرج من بطون الأساطير المنسية.

اضطرب الرجل، وتلفت حوله في وجل، أولاها ظهره، عندئذ رأت الشيء الجاثم في المساحة الواصلة بين كتفيه، بدا ظهره المحدودَب كأنه هضبة متدرجة، ذكَّرتها بالهضبة التي أثارت انتباهها عند الفندق!

انكمشت على نفسها تصيح بفزع: «من أنتَ؟.. ماذا أفعل هنا؟».

لم يجب الأحدب بكلمة واحدة، لا يلبث في مكان، يتحرك يُمنة ويُسرة بحركات متزعزعة، تُنبئ عن توتره.

انتبهت «سراب» لخرقة تحمل آثار الدماء، وإناء به ماء، ومادة عجينية لزجة خضراء، وألم عظيم يشج رأسها عند منبت شعرها، عندما تحسسته بأناملها وجدت خليطًا من الدماء ممزوجًا بالمادة الخضراء اللزجة.

فهمت أن الأحدب ما أراد إلا معالجتها، أرادت الاعتذار، لكن الألم الكبير والقلق العظيم حالا دون خروج كلمة واحدة.

مالت تسترق النظر إلى وجهه الذي يواريه عن مرمى فضولها، بكوفية من صوف الغنم تُطوق رقبته، تبتلع جانبي وجهه في ثناياها، كلما مالت برأسها لتراه بوضوح، استدار حاجبًا وجهه الشائه عنها.

على باب الكوخ رأت «مشتاق»، وقد أقبل عليها يسألها متلهفًا: ««سراب» هل أنتِ بخير؟.. حمدًا لله.. خشيتُ ألا تستعيدي وعيك».

وقفت مستندة إلى طاولة، تدنو من «مشتاق» مستبشرة، تُلقي نظرات خاوية على الأحدب الذي ما يزال يوليها تجاهله. تسأل في لوعة: «ماذا حدث لي يا «مشتاق»؟».

- سقطتِ واصطدم رأسك بحجر.

لم تعثر على هاتفها في جيبها، رأت حقيبته وحقيبتها فوق طاولة صغيرة، فتحت حقيبته تُفتش فيها، تنثر الأغراض، ولما لم تعثر على ما تريد سألته ملتاعة: «أين اللاسلكي؟».

اكفهر وجه «مشتاق»، وانحشرت الكلمات في فمه.

كررت: «يجب أن أتواصل مع «مسعود» ليأتي ويأخذنا.. أين اللاسلكي؟».

- نسيتُه.

سددت له نظرة كصفعة، شعر بأثرها فوق وجنته. ما كان عليها الخروج في هذه الرحلة المجنونة، مكانها هناك بجوار الجدة في المستشفى، تُشاركها أصعب لحظاتها وأشدها قسوة، لكنها اختارت أن ترحل في اتجاه السراب.

- هيا، علينا أن نعود أدراجنا.. كانت فكرة غبية منذ البداية.

- انتظري.. «سراب».

ناداها فلم تتوقف، حدَّثها فلم تستجِب، ما إن خرجت من الكوخ حتى تسمرت في الرمال مثل وتد.

كانت تقف داخل مساحة عُشبية واسعة مترامية الأطراف، وأمامها الجهة الداخلية لبوابة حجرية عظيمة البناء، فوقها تمثال لعصفور يحمل في فمه مفتاحًا أثريًّا!

صارت بالفعل داخل مساحة مسحورة، يُقال عنها واحة زرزورة، ازدردت ريقها، ثم همست مبهورة: «فات الأوان!».

دُنيازاد

جاءتني الثالثة مُهرولة

في خوفها مُسربَلَة

تُشير إلى الظلام وترتجف

وفي زاوية الحكاية تعتكِف

رميتُ بنظراتي خلفها

ووقفتُ أنشدُ أخبارها

فانشقت جدران العتمة الأربعة

عن قوةٍ غضوبةٍ مشرَّعة

إياكم والعبث مع الظلام

إذا سمعتم صهيل الحصان!

الليلة الثالثة والعشرون

أيهما أكثر بؤسًا؛ حقيقة لا تكتمل،
أم سراب لا ينتهي؟

(1)

فات الأوان، إنها الآن داخل الواحة المفقودة!

الليل يبسط رداءه على الأرض، يُرسل نجماته مُستطلعات ومُستكشفات لما يدور فوقها، ويُضيء سراج القمر الوهاج، فيتبين لها ما يدور حولها.

واحة مسوَّرة بجدار حجري يبدو كأطلالٍ أثرية، أكثر انخفاضًا مما كان في خيالاتها، يسهل القفز فوقه والهرب.

البوابة الحجرية مفتوحة على مصراعيها، تُغري للخروج منها، لكن من يجرؤ على المغادرة؟

هي أكثر من يعرف أن زائر الواحة الشارب من بئرها، لا يخرج منها كما دخلها، تلاحقه لعنة لا فكاك منها، ولا سبيل لعكسها.

- كيف وصلنا إلى هنا؟.. آخر ما أتذكره سقوطي واصطدام رأسي بحجر.

ظنت أنها ستجد القطع الناقصة عند «مشتاق»، إلا أنه بادرها باضطراب: «لا أعرف».

- ماذا تقصد بـ «لا أعرف!».. كيف وصلنا إلى الواحة المسحورة؟
- عندما كنتِ تركضين من جهة.. كنت أنا أهرب من أخرى.. اختبأتُ قليلًا خلف شجيرة نابتة، مُستترًا بفروعها، وعندما سمعتُ صرختكِ عزمتُ على التحرك في اتجاهك.. تتبعتُ خطواتك فوق الرمال.. ثم...

قاطعته في الحال: «لحظة.. لحظة.. كيف رأيتَ خطواتي في هذا الظلام؟».

دخل «مشتاق» الكوخ لبضع ثوانٍ ثم خرج حاملًا شيئًا في يده، أشارت برأسها مستفهمة، فأوضَح: «نظارةٌ مخصصة للرؤية الليلية.. كانت في حقيبتي التي قلتِ إنني ملأتها بالتفاهات».

تجاهلَت نبرته الهازئة، أشارت له للمواصلة، أردف مُتململًا: «رأيتُك داخل بركة صغيرة جافة.. فاقدة الوعي.. ورأسك مجروح وينزف.. أصابني الهلع.. اقتربت منكِ لأفحصكِ.. ثم.. لا أعرف ما حدث على وجه التحديد.. كل ما أتذكره أنني شعرتُ بلسعة نحلة، ثم دوار شديد».

- وأين «رمَّاح»؟
- لم أره منذ العاصفة.
- لم يجب هذا عن السؤال الأهم.. كيف وصلنا إلى هنا؟
- قلتُ لكِ لا أعرف.. استيقظتُ داخل كوخ هذا الأحدب مثلك تمامًا.

رنَت صوب الأحدب الذي كان واقفًا على باب كوخه، ولا يزال يواري وجهه عن مرمى بصرها.

سألته مستريبة: «هل أنتَ من أدخلنا الواحة؟.. لا بُد أنك تعرف كيف جئنا إلى هنا؟.. وأين هاتفي؟.. هل أخذته؟.. تحدث.. قل شيئًا».

أطرق الأحدب صوب الأرض المغطاة بالحشائش الزاهية، أولاها ظهره ثم عاد إلى كوخه في وتيرة متأنية، تبعته بدورها تُمطره بأسئلتها الحائرة.

قال «مشتاق» أخيرًا: «لا تتعبي نفسك.. منذ ساعات وأنا أحاول انتزاع كلمة واحدة من فمه اللعين.. إنه فاقد للسمع والقدرة على الحديث».

- أصم وأبكم!

قالتها ذاهلة، خلخلت شعرها الأشعث بأناملها، تحاول استجماع أفكارها، في رأس يتنامى فيه الألم كل ثانية.

لا لا سلكي، ولا هاتف نقال، ولا سبيل للتواصل مع «مسعود»، ماذا تفعل في ظل هذا الجمود؟

لم يعد ثمة أمل إلا أن يتبعهما «رماح» مفعِّلًا قدراته التي يتباهى بها في قص الأثر. إن كان «مشتاق» قادرًا على العثور عليها، فلا بُد أن «رماح» أكثر من يجيد تتبع خطواتها.

وبما أنها أمسَت داخل الواحة المفقودة، يقع على عاتقها الآن إنهاء ما جاءت من أجله؛ العثور على الجد، وإبطال مفعول السحر.

الآن، لا شيء أمامها لتفعله سوى البقاء في الواحة آمنة، بشكل لا يثير ريبة أهلها، إلى أن تبلغ مآربها.

- انتظريني هنا.. سأتجول قليلًا أستطلع أمر هذه الواحة اللعينة.. وأرى إمكانية الظهور من عدمه.. آخر ما أريده هو أن نُعامَل كدخيلين خطرين فيقطعون أعناقنا بفؤوس مُحمَّاة.. أو يستغلوننا كعبيد نُباع ونُشترى.
- سأذهب أنا.

أوقفها «مشتاق» بإشارة من كفه حازمة: «أنا من سيذهب.. لا أريد لبائع جواري أن يأسركِ ويجرك من عنقك بحبل ثخين كي يبيعك إلى رجل سمين».

ثم أضاف ساخرًا: «على الرغم من أن هذا المشهد سيبدو مسليًا للغاية».

أثار الفزع في نفسها، الإنسان عدو ما يجهل، وهي أكثر من يجهل طبيعة أهل الواحة، وعاداتهم، وقوانينهم.

كانت المعلومات الشحيحة التي أبلغتها الجدة لأهلها، قبل أن تفقد لسانها، متعلقة بالساحرة واللعنة التي ستُطارد بنت بنتها، لم يبلغ علم «سراب» كلمة واحدة عن طبيعة الواحة وقوانينها.

واحة مسحورة، تدور في مدارات زمنية مختلفة عما يحيط بها من أمكنة، الزمن هنا لا يتحرك، لا يتقدم قيد أنملة.

تعرف «سراب» من أي عصر جاءت، لكن هنا كل العصور متشابهة، تدور في فلك واحد، لا يخرج عن مداره أبدًا، وهما الآن بحاجة ماسة إلى استكشاف الواحة قبل الظهور أمام أهلها.

جلس الأحدب في ركن قصي، يجمع الحطب ويُلقي به في فم النيران المشتعلة في مدفأة بدائية، صنعها يدويًّا.

همست «سراب» وعينها معلقة بالأحدب: «كيف ستتركني وحدي معه؟».

- فقدنا وعينا لساعات في كوخه.. لو أراد إيذاءك لفعل.

لم يكن هذا كافيًا لتطمئن، وضعت يدها في جيبها فاستراحت إذ عثرت على الحصوات والنبلة؛ ستحتاج إلى وسيلة ما للدفاع عن نفسها إن فعل الأحدب ما يثير ريبتها، حصاة في منتصف عينه، ستكون أكثر من كافية لردعه.

بهزة من رأسها، أبلغَت «مشتاق» بموافقتها.

ارتدى النظارة التي تتيح له الرؤية الليلية، ثم مضى في سبيله متوجسًا. قبل أن يبتعد كثيرًا هتفت به: «انتبه لنفسك».

عدل من حقيبة ظهره، لوح بكفه دون أن يلتفت. لو كان ثوب الليل قد انحسر، لتمكنت أكثر من رؤية تفاصيل الجمادات البعيدة التي تبدو لها كبيوت من طابق واحد أو اثنين.

لكن من جهة أخرى هذا الظلام سيعمل كستار جيد لـ «مشتاق» من أجل مهمته المتقصية.

لم يكن ثمة إضاءة كهربائية في الواحة، هذا ما أدركته منذ اللحظات الأولى، أمام الكوخ ثمة مشعل صغير، وفي داخله كانت النار أكثر من كافية.

شعرت بلسعة برد شديدة، فدخلت الكوخ تخطو في حذر.

الأحدب يدفن عينيه في جوف النار، لم ينظر إليها ولا مرة، غير اللحظات الخاطفة التي استعادت فيها الوعي إذ كان قريبًا من وجهها.

هل نفخ فيه مثل الأسطورة فاستيقظت؟

ربما لو لم يفعل لكانت الآن مثل الأميرة النائمة، تنتظر قبلة من أمير يحبها.

حاولت صرف خيالاتها السخيفة، اتسمت أفكارها بجدية تتواءم مع ما يحيط بها من مجاهل، وأخطار.

- هل أنت أصم؟

لم يلتفت، فتأكد ما قاله «مشتاق». لم تيأس سريعًا، دنت قليلًا من موضعه أمام المدفأة، فاضطرب في جلسته، رفعت كفها تقول: «لا تخَف».

شعرت بسخافة قولها، عليها هي أن تخاف، وعليه هو طمأنتها؛ هو صاحب الدار، وهي الغريبة، هو ابن الواحة، وهي الدخيلة.

لا يبدو خائفًا، بل مضطربًا، ربما يخجل من نظر الغرباء إلى ظهره المعوج أو وجهه المشوه، هل تؤذيه نظراتهم؟ لا بُد أنها تفعل.

كلما وقعت نظرات الآخرين الفضولية على آثار الحريق الملتف حول رقبتها مثل طوق، تشعر بالضيق، والانزعاج، والخجل.

ربما هي أكثر من يفهم مشاعره في تلك اللحظة، لم تحاول اقتحام خلوته، أبقت نفسها على مَبعدة، تجلس فوق مقعد خشبي قديم، تقول مفصحة: «أنت الشخص الوحيد الذي يستطيع إخباري كيف أتيتُ إلى هنا.. هل تجيد الكتابة؟».

لم يلتفت، نظرت حولها متأملة، كان الكوخ على بساطته منظمًا بعناية، ونظيفًا للغاية. لم تجد بين الأغراض الظاهرة لا ورقة ولا قلمًا.

أخرجت حصاة من جيبها، ثم خرجت من الكوخ تكتب بها فوق الرمال: أنا «سراب» جئتُ في سلام.

أشارت له كي يتبعها، تلكأ قليلًا، ثم فعل مرغمًا.

- هل تجيد القراءة؟

لم يُبدِ ردة فعل إزاء الكلمات المنقوشة فوق الرمال؛ لا يُجيد القراءة إذن.

هل يكون كجدتها منزوع اللسان؟ هل حاول الخروج من الواحة سابقًا وإفشاء سرها، فنال عقوبة ظاهرة؟

استخدمت لغة الإشارة في محاولة يائسة للتواصل معه، عندئذ التفت إليها، يوليها اهتمامه، جُل اهتمامه لا شطرًا منه، يمسح بنظرات مستبطئة فوق قسماتها، حتى شعرت وكأن وجهها خارطة يبحث فيها عن موطنه.

جفلت لوهلة، قشعريرة غريبة سرَت في بدنها، قفز إلى رأسها سؤال أدهشها: هل التقينا من قبل؟

احتفظت به لنفسها، ما أسخفها، متى وأين وكيف ستلتقي رجلًا مثله، من أبناء واحة مسحورة، لم تطئها يومًا بقدمها؟

لم يكن التشوه مخيفًا كما حسبَت، ولا واسع الانتشار كما خُيِّل لها، بقع متفرقة تأكل جبينه، ومساحة عريضة من وجنتيه، فيما بقي أنفه وفمه وعيناه في مأمن.

في الحريق الأول، لم يكن لها مثل حظه، خمشت ألسنة النيران ملامحها، وعضعضتها بين فكَّيها، لولا ما بذله خالها والجدة من المال والجهد، لما امتلكت الآن الوجه الجديد الذي تحمله.

اعتاد خالها أن يقول: «أصبحتِ بعد عمليات التجميل أشبه بأمك أكثر من أي وقتٍ مضى».

لكنها تُدرك أنه ما أراد إلا مجاملتها، أتى الحريق الأول على أغلب الصور التي كانت الجدة تحتفظ بها في سحَّارة الأريكة، ومن بين تلك الصور عثرت على صورة لها محروقة الأطراف، ترتدي فيها مريولة المدرسة، طوتها ووضعتها في قلادة من الفضة ترتديها دومًا حول رقبتها.

قبل أن يعبث الأطباء بمبضعهم في وجهها، كانت تشبه الجدة كثيرًا في شبابها، ربما لهذا السبب أحبت وجهها القديم أكثر. لا تحب النظر المطول إلى المرآة التي تُذكرها أنها سرابان لا «سراب» واحدة، كل منهما تحمل وجهًا مختلفًا عن الأخرى، هذا ما جعلها تُبعد ناظريها في الحال عن الإناء اللامع الذي يعكس ملامحها.

تتابعت أنفاس الأحدب في وتيرة متسارعة، ينظر إليها من غير خجل، دفعها هي كي تخجل، فتتسارع نبضاتها.

رجل لا سبيل للتواصل معه إلا من خلال النظر، لا يسمع كلماتها، لا يقرأ كتاباتها، كيف يُمكنها البقاء معه إلى حين عودة «مشتاق»؟

أشارت إلى فمها تخبره أنها جائعة، حسبت أنه لم يفطن إلى ما ترمي إليه، إذ بقي واقفًا مكانه نصف دقيقة، ثم تحرك صوب إناء من الخوص، مغطى بقطعة من الصوف، أخرج من داخله خبزًا شمسيًّا، وقطعة من الجبن من غير ملح، قدمه لها فوق صينية من جريد النخل.

ثم توجه إلى رف فوقه إناء صغير أخرج منه طاجنًا فخاريًّا به طبخة لا تعرف اسمها، طيبة الرائحة، ممتلئ إلى النصف، وضعه برفق أمامها.

ثم فارق الكوخ فظنت أنه سيطول به الغياب، لكن ما لبث أن عاد سريعًا، يحمل بين ذراعيه العنب والموز والرمان.

ثم خرج وعاد، حاملًا تمرًا رطبًا، وآخر جافًّا.

ثم خرج مرة أخرى، غاب كثيرًا هذه المرة، وعندما عاد كان بين يديه إناء من الحليب الطازج، يبدو أنه قد حلبَه للتو من ضرع عنزته.

أذهلها كرمه الوهَّاج، منحته بسمة رائقة ونظرة ذاهلة، لم يسبق لأحد أن أكرمها مثلما أكرمها هذا الأحدب. تأملته متفحصة، لا يبدو أنه قد تخطَّى الثلاثين، عَفي الخلقة، متين التكوين، لم يُقصر ظهره المحدودب من قامته كثيرًا، ترتفع كتفه عن كتفها ببضع بوصات. وعندما حاول أن يعيد الكرة ويخرج من الكوخ كي يجلب لها شيئًا جديدًا؛ أوقفته بإشارة من كفها، ثم أشارت إلى بطنها.

لم تخشَ من أكل الطعام الناضج والمخلوط بماء الواحة، تعرف جيدًا أن اللعنة لا تتحقق إلا بالشرب مباشرة من بئرها المسحورة، وتعرف أنهم يعجنون طعامهم ويروون محاصيلهم من ماء آبار وعيون أخرى لا سحر فيها، هكذا بلغها عن الجدة.

شعرت بالألفة في الكوخ الخشبي، كأنها في بيتها، ولكَم كان هذا الشعور غريبًا.

كان الأحدب فرحًا بوجودها في كوخه، فرحة لم تستطع نظراته أن تواريها، ألهذا الحد يشعر بالوحدة؟

لماذا يعيش منبوذًا قرب البوابة بعيدًا عن بيوت أهل الواحة المتراصة إلى جوار بعضها؟ هل آذوه لأنه مختلف؟

تفهم جيدًا كيف يكون شعور الغربة وسط الزحام، وكان هذا سببًا إضافيًّا كي تُنمي تجاهه شعورًا بالألفة.

كلاهما اختبر المشاعر نفسها، ولا يزال.

قبل أن تطلب الماء كان قد أحضره من أجلها، تأملته بريبة، لم تشرب، يبدو أنه ظنَّ أنها خائفة من أن يكون الماء راكدًا أو ملوثًا، فصبَّ لنفسه وشرب أمامها.

لم تكن متوجسة لهذا السبب، بل لأن الماء جُلِب من البئر المسحورة التي إن شرب المرء ماءها لن يستطيع الخروج من الواحة إلا ملعونًا.

فتحت حقيبتها، حمدت الله أنها كانت قد ملأت ثلاث زجاجات قبل سقوطها في البركة الجافة، وكذا فعل «مشتاق» مع زجاجاته الثلاث.

خطتها التي وضعتها منذ أن كانت في القاهرة، أنها بحاجة إلى أسبوعين فحسب داخل الواحة، كي تعثر على الجد، وتبطل اللعنة، ثم تخرج دون أن تشرب من مائها، سواء منتصرة أم مهزومة.

ظنت أنها ستتوقف عند البوابة الحجرية مما يتيح لها فرصة التزود بماء أكثر، لم تحسب قط أنها ستدخل الواحة بهذا الشكل المريب.

عليها الآن أن تُقلِّص الأسبوعين إلى أسبوع واحد، مع ضبط حصصها اليومية من الماء، في نهار الصحراء شديد الحرارة. بعد الأيام السبعة ستخرج من الواحة برفقة «مشتاق»، دون أن يكون أي منهما قد شرب من مائها قطرة واحدة.

وبينما هي مستغرقة في التفكير، كان الأحدب عاكفًا على تأملها، كزهرة نادرة وسط صحراء قاحلة.

جفلت ثانية، بأكثر مما فعلت في الأولى، شعرت أن وجودها معه في الكوخ خطر جسيم، فسارعت بمغادرته، لم تبتعد كثيرًا، بقيت قريبة من المشعل الذي يُنير المساحة الفارغة حوله.

لماذا يعيش الأحدب بالقرب من البوابة الحجرية؟

هل هو حارسها الذي يمنع أهل الواحة من المغادرة؟

هل يفشي أمرهم للساحرة كي تلاحقهم بلعناتها؟

بإمكان الأحدب أن يكون شريرًا أو خيِّرًا كلما تغير السيناريو في رأسها.

التفتت فطالعتها عين الأحدب، تُلقي عليها نظراتٍ ليِّنة وكأنها، نظرات طفل في السادسة.

***

(2)

بسطَ النهار رداءه فوق رداء الليل، فخرجت الشمس من نافذتها تستطلع أحوال الواحة وأهلها.

أرسلَت كفًّا ساخنة تقلق راحة «سراب» وتنتزعها من أحلامها. كانت قد نامت بجوار الكوخ الخشبي، مستندة إلى ساق نخلة باسقة، فوجئت برداء من الصوف مطروح فوقها، لمَس قلبها اهتمام الأحدب، وعنايته بها.

لم يكن الأحدب في كوخه، فوق الطاولة رأت ما لذ وطاب من الأطعمة، فتحت حقيبتها وشربت من الزجاجة الأولى حتى ارتوَت، وعندما نظرت إليها فوجئت أنها قد أجهزَت على النصف في رشفة واحدة.

عليها أن تكون أكثر حذرًا من الآن فصاعدًا.

راودها القلق، تأخر «مشتاق» أكثر مما توقعت، هل تحيق به الأخطار أم أوقع نفسه في مشكلة؟ لم يسعها الانتظار، قررت الذهاب من خلفه، حتى وإن كان في وضح النهار.

حملت حقيبتها، بعد أن أضافت لها تمرات جافة، وعناقيد عنب، وحفنة من الزبيب حلو المذاق. وبينما هي في طريقها خارج الكوخ، رأت الأحدب أمامها، انتبهت لأول مرة أنه يتحرك بشكل غير مستقر، كأنه يملك قدمًا أقصر قليلًا من الأخرى، يميل إلى جهة اليسار في خطواته.

سدد لها نظرات مستفهمة. قالت وهي تُدرك أنه لا سبيل كي يسمعها أو يقرأها: «أنا راحلة».

بدت نظراته حزينة، ومنكسرة، لا بد أن وجودها أضاف إلى كوخه الدفء والونس، ما كان عليها البقاء من البداية، فيتذوق لبضع ساعات ما هو محروم منه إلى الأبد.

مد يديه بما كان يحمله، رداء أسود مطرز بخيوط حمراء وزرقاء وبرتقالية، ووشاح سماوي ترتديه نساء الواحة في الحواري والأسواق. تناولته منه على

استحياء، فكرت أن الظهور بين أهل الواحة وهي تُشبه نساءهم قد يخفف من وقع وجودها الشاذ بينهم.

ولأنها لم تعتَد الأخذ دون عطاء، أخرجَت من حقيبتها طاقية رمادية من الصوف كانت قد شغلتها بنفسها، صممتها مع زوائد جانبية تُغطي الأذنين وجزءًا كبيرًا من الوجنتين، تناسبه تمامًا لحجب ما أراد إخفاءه من لمسات النار وآثارها.

تناولها منها متباطئًا، كأنه يود لو توقف الزمن عند هذه اللحظة بالذات، كما توقف في سائر الواحة.

مرت أمامه ثم خرجت من الكوخ في اتجاه بيوت الواحة المجتمعة فوق الرمال مثل ضيوف حول مائدة.

لم تمنع نفسها من أن تلتفت صوب الكوخ تُلقي على الرجل الواقف أمامه نظرة مودعة، فتُشيعها نظراته بكلمة غير منطوقة تمكنت من سماعها:

ابقي معي.

***

سارت فوق الحشائش الخضراء، تُحيطها حديقة غناء، فيها أشجار فواكه من شتى الصنوف والألوان، مشهد مذهل ذكَّرها بما وُصف في الكتب عن الجنة ونعيمها.

كانت خيالاتها تسعد إذ تتفكر في أنهار الجنة من العسل واللبن، لكن أكثر ما كان يلهب حماسها اللون الأخضر لأشجار الجنة ونخيلها.

شعرت وكأنها تسير داخلة جنة أرضية، مبهورة الأنفاس، مستأنسة بكل هذا الجمال الذي يلفها.

لم تكن مخطئة عندما شبَّهت البيوت من بعيد بضيوف مجتمعين حول مائدة، إذ كانت البيوت متقاربة جدًّا، مصمَّمة على شكل قرص كبير، به ممرات تُفضي لبعضها.

متاهة لا يعرف الغرباء أولها من آخرها، لا يحفظ مخارجها ومداخلها إلا أبناؤها.

وقفت مستظلة بشجرة موز وارفة، حول جسدها الرداء الذي أهداه لها الأحدب، وتطرح الوشاح فوق رأسها.

ما زالت حقيبة الظهر تبدو شاذة، وتشير إلى أنها غريبة لا تنتمي إلى الواحة، لكنها أغلى ما تملك الآن؛ فيها الماء الذي سيقيها العطش لأيام.

سارت في الأسواق، تاهت بين النساء اللاتي يرتدين أردية مشابهة لردائها، مع اختلاف ألوان الخيوط المطرزة، وألوان وشاح الرأس ما بين فاتحة وداكنة.

رأت عجوزًا تجلس في إحدى الزوايا، تُعطي النساء المارات شيئًا في كفوفهن.

عندما مرت بها وجدتها تضع في كفها بضع حبات من الجميز طيب المذاق، أخرجت «سراب» من حقيبتها مالًا وقدمته إلى العجوز، فما كان منها إلا أن نظرت إليها بدهشة، يبدو أن هذا المشهد قد مر بها سابقًا، غريب يأتي إلى الواحة ويظن أنهم يتعاملون بالأموال الزائلة. قالت العجوز جازمة: «ثمار الأرض لأهل الأرض».

ثم أولت انتباهها لامرأة أخرى تعطيها كما أعطتها. أدركت «سراب» أن الثمار التي تسقط عن الشجر أو التي تخرج من باطن الأرض يتشاركها الجميع بلا مقابل.

في الواحة لا وجود لإنسان جائع.

قادتها الدروب الضيقة لاستكشاف البيوت المتشابهة في الشكل والتصميم، فقط بعضها من طابق واحد، وأخرى من طابقين.

سارت على غير هدى، تمد كفها إلى إحدى النساء كلما أرادت تذوق خيرات الواحة، فتعطيها المرأة ما تجود به نفسها.

في مسقط رأسها كانت تخجل من الطلب، لم تمد يدها قط بالسؤال، أما هنا بدا طلب ما يحتاج المرء إليه أمرًا عاديًّا، وتلبيته واجبًا مقدسًا على من يملك.

تنامت إلى سمعها -لما اقتربت من البيوت وسكانها- زغاريد عالية، وعبارات تهنئة، ذكَّرتها بمباركات الجيران في ليلة حنتها التي انتهت بشكل مأسَوي.

مضت في طريقها وسط الدروب الضيقة، تندس بين النساء المهنِّئات، والمجتمعات بعدد كبير في مكان صغير، لم تتمكن من رؤية الفتاة التي تتلقى المباركات.

دفعتها الأكتاف والأجساد، صوب العروس الجالسة فوق مقعد في ساحة دارها، تُلقي عليها النساء السلام، يدًا بيد، وتدعو لها بما جاد به كرمها، تضع لها هدية بسيطة فوق طاولة مزينة بزهور بيضاء وأرجوانية.

وجدت نفسها أمام العروس وجهًا لوجه، تماثلها عمرًا أو تصغرها ببضع سنوات، تتطلع لها مبتسمة ومستبشرة.

اضطربت «سراب» هل يبدو عليها أنها غريبة عن الأهل والصحب والأتراب؟

هنأتها كما فعلت النساء: «مبارك يا عروسة».

رمقتها الفتاة بشيء من الحيرة، ثم قالت في ترحاب: «أنتِ لستِ من أهل الواحة».

- أنا.. كلا.

- تائهة في الصحراء؟

- أنا.. نعم.

كان الحديث مباشرًا وواضحًا، لكنها أخفَت بكثير من الحذر، بحثها الدؤوب عن جدها، لربما كان رجلًا لا يتمتع بسمعة طيبة في الواحة، سواء كان الآن حيًّا أم ميتًا.

ويجب كذلك ألا تثير انتباه الساحرة قبل أن تفهم ما يدور من حولها.

أمام كل الاحتمالات عليها أن تكون متأهبة.

وقفت العروس ثم قالت فيمن حولها: «لدينا زائرة».

لفَّتها نظرات متباينة؛ ما بين مُبتهجة، وودودة ومستريبة، أخبرتهن أنها ضلت الطريق هي وأخوها إلى واحتهم، لم تقدم تفاصيل أكثر من اسمه واسمها.

أخبرتها إحدى النساء الكبيرات سنًّا ومقامًا، أن التائهين مرحب بهم، يستضيفونهم ويؤدون واجب الضيافة تجاههم. أخبرتها أخرى أن عليها إهداء العروس شيئًا من أغراضها، أسوة بنساء الواحة وبناتها.

لا تُهادى العروس بالجديد أبدًا، القديم مغلف بالذكريات، السعادة والشقاء، التي تُذكِّر العروس أن الحياة لا تحمل وجهًا واحدًا.

لا تملك «سراب» شيئًا صالحًا للإهداء، فكَّرَت، لو كان «مشتاق» حاضرًا، لأخرج للعروس شتى أنواع الهدايا من حقيبته.

خلعت ساعة معصمها وقدمتها إلى العروس في حرج.

- ما هذا؟

- ساعة.

- ما وظيفتها؟

- تُرينا الوقت الصحيح.

- ما فائدة الشمس إذن؟

وقفت «سراب» أمامها حائرة، تبحث عن إجابة مناسبة لا تُشعر الفتاة والنساء من حولها بأنها تتعالى عليهن بكل الإمكانيات التي يتمتع بها الإنسان الحديث خارج واحتهم، من تقدم تكنولوجي وأدوات مذهلة.

كفتها العروس مؤنة الجواب إذ قالت باسمة: «أعجبتني.. شكرًا لكِ.. سنستضيفك في دارنا.. صرنا أختين الآن.. أنا «سلَّام»».

كانت «سلَّام» فتاة سمراء، مليحة، ودودة، شعرت بالألفة معها في الحال. بدا لها كل شيء دافئًا جدًّا، جميلًا جدًّا، شعرت وهي تجلس في هذه الأجواء البهيجة، أنها جِد سعيدة، فتنامى في خاطرها سؤال مُلِح: لماذا تركت جدتها هذه الجنة وفرَّت هاربة؟

***

تهادَت «سراب» بين سرور وغِبطة، تستمع إلى أناشيد عذبة تحفظها النساء عن ظهر قلب.

دوري يا أمَّة دوري

وهات الراد الغَندوري

ولبِّسيه جِلباب أبيض

وقعَّديه على الماجورِ[1]

رغم مظاهر السعادة من حولها، لازمها شعور نغَّص بهجتها، أنها دخيلة، والدخيل ثقيل مهما كان المضيف كريمًا.

عندما أوشكت على الخروج من الدار، في خفية عن الأعين الراصدة، جذبتها يد وسط الزحام، فوجئت بـ «سلَّام» تترك ضيوفها وتتوجه بها صوب

(1) من الأغاني الشعبية في الواحات.

المطبخ الكبير، الذي لم يكن فارغًا في البداية، بضع نساء هنا وهناك، ثم ما لبث أن خلا إلا منهما.

جهزت لها «سلَّام» طبقًا من الخبز والأرز، ثم أضافت المرَق واللحم ووضعته فوق الطاولة أمامها. قالت «سراب» في حرج: «لستُ جائعة».

- يجب على نساء الواحة أن يأكلن ما تقدمه العروس.

كانت شبِعة، إلا أنها لم تشأ إزعاج الفتاة بالغة اللطف، تناولت القليل، ثم أثنَت على طعامها.

ظنت «سراب» أن النساء مجتمعات لأجل حفل الزفاف، إلى أن أخبرتها «سلَّام» أنها الليلة الأولى من طقوس حفل الحناء التي تستمر سبعة أيام بنهاراتها، تجتمع نساء الواحة في بيت العروس، ويجتمع الرجال في ساحة المرح.

وهي ساحة مخصصة للاحتفال بالمناسبات السعيدة التي تمر على الواحة وأهلها.

استرقت «سراب» النظر صوب «سلَّام»، شُبِّهَت لها بفراشة تتحرك برقة، وابتسامة وهاجة، تطوي السعادة في قبضتها. تدندن بأناشيد بهيجة، على دفوف النساء في الخارج، يتخللها اسم عريسها «جَمعان».

ثم تقول ببشاشة: «جئتِ دارنا في أيام سعيدة.. هل أنتِ متزوجة؟».

هزت «سراب» رأسها نفيًا بقوة، ثم دفنت نظراتها في صحنها، تأكل ملعقة كبيرة من الأرز من غير شهية، فقط لتكتم مرارة تسربت من قلبها إلى حلقها.

لمست «سلَّام» كفها، ومنحتها نظرة رقراقة، تُنبئها بأنها أحسَّت بألمها دون أن تبوح به. تميل «سراب» للشخصيات الشفافة، التي تستشف مشاعر الآخرين، وتبذل لهم من العطف والإحسان ألوانًا.

سألتها «سلَّام» لما رأتها قاطبة الجبين، شاردة: «ما الذي يزعجك؟».

- أفكر في أخي.. لا أعرف أين هو الآن؟

- لا تقلقي.. كل بيوت الواحة مفتوحة للغرباء التائهين.. لا بُد أنه وجد لنفسه مكانًا في ساحة المرح.. أو في بيت رجل من رجالنا.

ولما لم تُبدد كلماتها القلق الجاثم بثقله، أردفت باهتمام: «سأطلب من أبي أن يرسل أحدًا للبحث عنه».

ثم أخبرتها أن تُنهي طعامها كي تريها غرفتها، فبادرتها «سراب»: «سأبحث عن مكان آخر للمبيت».

مسح الحزن فوق وجه الفتاة، ثم قالت: «هل أزعجتك؟».

- كلا بالطبع، لا أريد أن أثقل عليكم.

- ليس لي أخوات.. أمي ماتت يوم ولادتي.. ستبقين معي إلى أن أنتقل إلى بيت عائلة زوجي.. صُحبتك لن تكون ثقيلة.. هلا تكونين أختًا لي لسبع ليالٍ كاملة؟

كلماتها التي تشجَّنَت بالشجن، كشفت عن موضع هش في نفس «سراب» التي لم تكن لها أخت، وحُرمت هي الأخرى من أمها مبكرًا. لما رأت عبرات تترقرق في عيني الفتاة الباسمة مست كفها مُعلنة: «سأبقى معكِ».

(3)

اندست «سراب» بين النساء تُبادر بالمساعدة، لم تشعر بالوقت إذ مضى، وبينما هي تعمل على تقديم التمر المنقوع في الحليب للمهنئات، سمعت إحدى النساء تقول للأخرى إنها سعيدة إذ أخيرًا قبل أحد شباب الواحة الزواج بـ «سلَّام».

سمعتهن يتهامسن عن أم «سلَّام» التي أسلمَت روحها في أثناء مخاضها، والطفلة التي وُلدت باكية ووُضعت بين ذراعين رخوتين لم تعانقاها ولو مرة واحدة.

يدور بها أبوها على بيوت الواحة، تُهدهدها النساء ويُرضعنها، تلتقم كل صدر خمس رضعات مشبعات، فيصير نصف شباب الواحة إخوة لها، والنصف الآخر عازفًا عن اختيارها زوجة.

انزعجت «سراب» في الحال، الفتاة مليحة لا تشوبها شائبة؛ رقيقة، ودودة، كريمة الخُلُق، جميلة الخِلقة.

توجهت إلى المطبخ لملء الأكواب من عصير الرمان، فرأت «سلَّام» تعكف على تجهيز الطعام الذي سيذهب إلى عجائز الواحة، اللاتي حبسهن المرض عن حضور أول أيام حفل حنتها.

ثم ما لبثت أن رأتها ترتجف، تضع كفها فوق موضع قلبها وتعتصر!

اندفعت «سراب» صوبها تعاونها على السير في الاتجاه الذي أشارت إليه، حيث غرفتها الواسعة.

في الداخل رأت «سراب» ستة فساتين معلقة، بألوان زاهية، تجمع مع الثوب الذي ترتديه «سلَّام» ألوانًا طيفية سبعة.

أتاها صوت هزيل للفتاة المستلقية فوق فراشها، مبتهجة رغم الوهن: «فساتين جميلة، أليس كذلك؟ أبي شهبَندَر القماش.. عائلتنا هي الوحيدة التي تعرف أسرار تلوين القماش».

أثنَت «سراب» على فساتين «سلَّام» وذوقها، رسمت بسمة على شفتيها بينما القلق يطل من عينها.

- «سلَّام» هل أنتِ بخير؟

فتحت عينيها بعد أن أغلقتهما لثوانٍ، ولا تزال تضع كفها فوق موضع قلبها، تقول بابتسامة مهزوزة: «أنا بخير».

غادرت الفراش متوجهة صوب المطبخ وهي تقول ببهجة حاولت استدعاءها مرغمة: «أبي عاد من ساحة المرح قبل قليل.. طلب شايًا له ولـ «جمعان» ووالده.. ومن غبائي نسيتُ أمره».

ألحت «سراب» كي تقوم هي بعمل الشاي فأصرت «سلَّام» بدورها: «أبي يحب الشاي من يدي».

راقبتها «سراب» لا تحيد نظراتها عنها قيد أنملة، خافت أن تفقد الفتاة وعيها وقد كانت على شفا ذلك، انتهت من إعداد الشاي ووضعته فوق صينية متينة من الخوص المجدول.

وما إن اقتربت من السلم الذي يقود إلى الطابق الثاني حيث يجتمع الرجال، حتى ارتعش جسدها، واهتز الشاي داخل الأكواب، وقبل أن يُراق فوق كفيها، تناولته «سراب» ثم قالت مشفقة: «سأقدمه أنا.. لدي فضول لرؤية الطابق الثاني».

لم تكن «سلَّام» فتاة ساذجة، أدركت أنها ما أرادت إلا مساعدتها، لمَّا تبدَّى عليها الوهن.

صعدت «سراب» الطابق الثاني، التفتت لتسأل «سلَّام» أي غرفة تطرق بابها، لكنها كانت قد اختفت. وقفت في الردهة الطويلة الضيقة تُنقل نظرها من باب إلى آخر، في حيرة من أمرها.

انفتح باب المجلس، ورأت رجلًا أشيب مهيبًا، شديد الشبَه بابنته، لم تكن بحاجة إلى سؤاله كي تعرف أنه «أبو الأحناش» شهبَندَر القماش.

سألها عمن تكون، وماذا تفعل في الطابق الثاني حيث مجلس الرجال؟

عدلت الوشاح السماوي فوق رأسها، أطرقت في اضطراب، موضحة في قصة هزيلة التفاصيل، هويتها وسبب بقائها في داره.

هشَّ الرجل وبشَّ، مرحِّبًا بها في صحبة ابنته، تناول منها صينية الشاي، ثم عاد مرة أخرى إلى الغرفة التي منها خرج.

قبل أن تعود إلى «سلَّام»، رأت السلم الذي يقود إلى السطح، غلبها الفضول كي تصعد عدة خطوات، جعلتها متوارية عن الأعين. عندئذ سمعت سعال رجل، وهمهمة آخر، فضَّلت البقاء حيث هي، إلى أن يمرا من مكان لآخر.

ودون أن تسترق السمع عامدة، أتى الحديث إلى أذنها طواعية: «يا «جمعان» لم يعد في الإمكان غير ما كان».

- لا تخبرني بذلك يا أبي وكأنني اعترضتُ للتو.. منذ اللحظة الأولى وأنا أخبرك أنني لا أرغب في الزواج بـ «سلَّام».
- ما بها «سلَّام»؟ بنت أصيلة كريمة وابنة وحيدة لرجل مشهود له بالنزاهة والبلاغة.. رجل حكيم بمصاهرته ستزداد عائلتنا شرفًا على شرف.
- وهل يرضيك أن أتزوج بفتاة قلبها عليل؟
- الصحة والمرض بيد الله يا بني.. لا تغتر بصحتك.
- الولد الذي سينبت من صُلبي أريده عفيًّا مثلي.. لا أن يفقد أمه في أثناء ولادته.. كما كان مصير أمها.
- إن ماتت سأزوجكَ غيرها.
- ولماذا أنتظر موتها؟
- اكتم هذا الحديث ولا تثِره ثانية.. أعطينا كلمة.. وكلمة الرجل شرفه.. إياك ومرمغة شرفنا في الرمال.

ما إن غاب الرجلان عن الأنظار حتى تهادت «سراب» بروية فوق الدرجات، تحاول لملمة الألم الذي انتشر في ساحات قلبها، وأثار شفقتها وشجنها.

عندما حوتها غرفة «سلَّام» ثانية، وجدت الفتاة تتحسس فساتينها، بالبسمة الرقراقة ذاتها التي لا تفارقها.

رأت في عينيها حلمًا جميلًا تنسجه، يكتمل رويدًا رويدًا، وفرحة لا تسعها الجدران الأربعة.

اغتمت «سراب» وأصابها النكد، هذا الرجل لا يحبها، لا يراها زوجة يهنأ بها فؤاده، هل تخبر الفتاة بما تنامى بغير قصد إلى سمعها، أم تتركها تتنعم بين أحضان حلم زائف؟

تقمصت «سراب» حال «سلَّام»، عندئذ شعرت أنها كانت لتتمنى أن يخبرها أحدهم بالحقيقة، حتى وإن ألقاها كالحمم في وجهها.

اقتربت من «سلَّام» تُقدم كلمة وتؤخر أخرى، تحاول تكوين جُمل بلا أشواك، هل توجد حقيقة ناعمة؟

- «سلَّام».. أريد أن أخبركِ أمرًا.

عندئذ سمعت شهقات ما تبقى من النساء بعدما حل المساء!

تحول الاحتفال إلى صمت مطبق، والضحكات إلى آهاتٍ لافتة، والهمسات إلى صيحات خافتة.

مالت «سراب» تسأل «سلَّام» في حيرة، عن السبب الذي بدل أحوال الجميع في كلا الطابقين.

أجابتها «سلَّام» ساهمة، والخوف يقرض كلماتها: «دُقَّ مسمار في باب دار «عبد البَر»!».

رمقتها «سراب» مشدوهة، ما المخيف في مسمار دُقَّ في دار ما بالواحة؟ أم لأنها دار «عبد البَر» اتخذ المسمار أهمية ما؟ ومن يكون «عبد البَر»؟

استمطر عقلها الأسئلة، كان وقع الخبر على الجميع مدويًا، كأن ما دُقَّ في باب «عبد البَر» قنبلة موقوتة لا مسمارًا من الصلب!

ودت لو تسأل الكثير، لم تكن «سلَّام» ولا أي ممن حولها في حالة رائقة لإشباع فضول غريبة تائهة. جذبتها «سلَّام» من ذراعها هامسة: «بيت «عبد البَر» قريب منا.. بإمكاننا المشاهدة من السطح».

ثم رفعت سبابتها أمام فمها محذرة: «إياكِ أن تخبري أبي أننا صعدنا إلى السطح».

أومأت «سراب» برأسها مستشعرة الرهبة في نفسها، تسللت الفتاتان إلى الطابق الثاني في غفلة عن الأعين، ومنه إلى السطح.

كان واسعًا، منظمًا، يسبح في ظلام ليل غيهب.

أحنت قامتها إلى أن بلغت برفقة «سلَّام» السور القصير، تحذو حذوها متخفية.

رفعت رأسها فما رأت إلا سكونًا يعم المكان، ومشاعل متفرقة هنا وهناك، سألتها هامسة: «أين الناس؟ لماذا لا يسير أحد في الطرقات؟».

- لا أحد يخرج من بيته عندما يحل المساء!

ثم طال صمتهما ثانية، لم تحتمل «سراب» كل هذا الغموض المريب، فسألتها مستفهمة: «من الذي دقَّ المسمار؟».

أجابتها «سلَّام» في وهَن، وهي تُطبق بيدها على قلبها، مُستشعرة ألمًا متناميًا: «رجال «الممسوس»!».

للوهلة الأولى حسبت «سراب» أنها تقصد شخصًا أصابه مَس من جن شقي، أو تعثر في غضب ساحرة الواحة فألقَت عليه لعنة لا تزول.

إلا أنها تذكرت حديثًا عابرًا لـ «رماح»، يخبرها فيه أن لكلمة «ممسوس» عند أهالي الواحات معاني مختلفة عن سكان وادي النيل.

الممسوس في عُرف أبناء الصحراء شخص يأتي بأعمال خارقة، جسدية أو نفسية، صار ممسوسًا لأنه قد نزل إلى مجرى مائي يستحم في لحظة تصادف فيها أن الماء كان نائمًا!

إذن رجل ممسوس ما قد دق مسمارًا في باب دار «عبد البَر».. ما مدى سوء ذلك؟ فهو في النهاية مسمار صغير يُمكن نزعه بسهولة!

جفلت «سراب» وتشنج جسدها، دوى في الأرجاء صوت قعقعة قوية، تبعها صوت مفزع متصل، كأنه النفخ في الصور، وكأن الله قد أذن للقيامة أن تقوم.

تبع الصوت الرهيب صهيل حصان مهيب، ووقع حوافر تعدو في الأرجاء، كأنها آتية من كل مكان؛ من الشرق والغرب، الجنوب والشمال، تدق حوافر الحصان فوق الأرض أو في وجه السماء.

أخفت نفسها خلف السور المنخفض، بقيت عيناها مشدوهتين، تتمتم بالمعوذات بشفاه مرتعدة هربت منها الدماء.

رأت خيالًا قادمًا عن ميمنتها، كتلة من السواد تركب فوق حصان من اللون ذاته، لا تعرف في هذا الظلام الحد الفاصل بين الراكب والمركوب، كأنهما صارا جسدًا واحدًا مُهابًا.

يركض الحصان بأمر من فارسه، فوق الأبنية ذات الطابق الواحد، كأنها أرض ممهدة خُلقَت لأجله، يقفز من بناء لآخر، بينما صوت السياط يشق سكون المساء، ينزل بالسوط فوق الرمال فتتقافز إلى الأعلى مستجيرة بالهواء.

شقَّ الممسوس أردية العتمة، إلى أن بلغ دارًا تبعد عن موضعهما بضعة أبنية، عندئذ تمكنت «سراب» من رؤية المسمار الضخم الذي دُقَّ في منتصف الباب.

توقف عند المسمار وسرى صهيل مُروِّع لم تسمعه من قبل يصدر من حنجرة حصان.

ومن دار «عبد البَر» خرج رجل هزيل، منحني الظهر، يرتجف كل شبر من جسده، يجثو على ركبتيه عند الباب.

انحنى الممسوس المتلحف بعباءة سوداء معقودة حول رقبته، دون أن تطئ قدماه الأرض، لف جسد الرجل بحبل ثخين مربوط في السرج، ثم ضرب بسوطه فوق الرمال، فركض الحصان عائدًا صوب الظلام الذي منه خرج، بينما الرجل المربوط مسحوب فوق رمال الواحة، لا يجرؤ رجل على الخروج من داره، فضلًا عن إنقاذه.

اختفى ثلاثتهم في جوف الظلام؛ الممسوس، والمسحول، والحصان.

وضعت «سراب» يدها فوق فمها تكتم شهقة فزع، بينما تتساءل في وجل: «من يكون هذا المجنون؟!».

دُنيازاد

لم تأتِ النجمة الرابعة
انتظرتُها ليلة كاملة
ظننتُ الحكاية قد انتهَت
أمسَت سرابًا واختفَت
إلى أن أطلّت بمكرها
وأطلقَت ضحكة لها العجَب
نجمة خبيثة لامعة
وكنتُ لسخافتها سامعة
صبرتُ ولستُ بصابرة
لتُخرِج ما أخفَته في الخاصرة
أوليتُها انتباهًا كاملًا
وأرسلتُ النومَ مسافرًا
إياكُم وفَم الهاوية
ففيه الضربة القاضية!

الليلة الرابعة والعشرون

إذا كانت كل الاتجاهات تُفضي إلى طرق مسدودة، وأمامك هاوية لا تعرف إلى أين ستقودك؛ هل تقفز؟

(1)

قبل 12 ساعة.

عصفَت الريح برؤوس الأشجار وهدهدَت أذرعها، فأصدرت حفيفًا مخيفًا خلخل ما تبقى من شجاعته.

همس «مشتاق» في ندم: «ما كان عليَّ مغادرة الكوخ».

صوَّرت له النظارة الليلية الموجودات أمامه بشكل أثار فزعه أكثر من اطمئنانه، كلما حركَت الريح شُجيرة حسبها قاطع طريق متربصًا به، أو أحد أبناء الواحة الآثمين الذين ينحرون أعناق الغرباء في قلب الظلمات.

استرق النظر خلفه، كان الكوخ أبعد من منتهى رؤيته، وبالقرب من يساره مبنى قديم نصف متهدم، فضَّل الاحتماء فيه من الريح والخيالات.

من سطح البناء تطلع «مشتاق» إلى الواحة على ضوء المشاعل، ومستعينًا بنظارته المخصصة للرؤية الليلية، لم يرَ مخلوقًا في الطرقات، لا إنسان ولا حيوان.

فكَّر لربما للواحة قانون يمنع خروج الناس في المساء.

لم يشأ خرق القوانين في ليلته الأولى بالواحة، وبخاصة أنه لا يدري إلى متى سيطول به المقام. أخرج زجاجة الماء من حقيبته وتجرَّع منها بحساب، ثم تلحَّف برداء الظلام، واستند بظهره إلى الجدران. جلس الخوف فوق جفنيه مُتربعًا، حرمه النوم والسكينة، إلى أن غلبه التعب، وسقط بين براثن الحُلم.

حلمًا مخيفًا كان، يخرج له اللصوص من كل مكان، يقطعون أوصاله بعدد الاتجاهات الأربعة، ثم يلقون كل جزء منه في زاوية، فتأتي الطيور الجارحة والهوام، يأكلون منه بلا تسمية.

انتفض قبل أن تخرج الشمس من خدرها، وترسل فوق رؤوس الخلائق بكفوفها.

انتظر قليلًا إلى أن انطفأت المشاعل في الطرقات، وتبدت له يده وأنامله، خرج من المبنى متخبطًا، بين الخوف، والتوجس، والندم: «ما كان عليَّ خوض هذه الرحلة اللعينة من الأساس».

كررها متحسرًا، ثم ندم من فوره مسترجعًا سبب الرحلة ودوافعها، همس لنفسه في قناعة: «كله يهون لأجلها!».

قبل أن يستكمل طريقه في اتجاه بيوت الواحة، ارتأى أن يعود إلى الكوخ أولًا، كي يطمئن على «سراب» التي تركها ليلة كاملة رفقة رجل لا يعرفه.

من حقل النباتات العالية عن يمينه، سمع خشخشة لافتة، فصاح في الهواء مناديًا: «مَن هناك؟».

لما تكرر الصوت، دنا بنفسه مستطلعًا، أزاح النباتات بيديه، مفسحًا المجال أمامه للرؤية. فإذ به يقف أمام فتاة متوجسة، ترمقه وملابسه بدهشة مضاعَفة؛ بنطال من الجينز الواسع كثير الجيوب، وقميص أبيض لا تتبدَّى إلا ياقته، فوقه كنزة طويلة الأكمام من الصوف الأزرق.

بدا لها وكأنه رجل قادم من زمن غير زمانها.

يدور الزمن في الواحة داخل مدارات ثابتة، لا يوجد تقدم تكنولوجي أو ثورات صناعية تدفع بها لمواكبة التطور السريع من حولها.

تعيش الواحة في عزلة تامة عن العالم، لذا يبدو للزائر أن الزمن هنا لا يتحرك، تعطَّل تمامًا عن العمل.

أخفت الفتاة وجهها بطرف وشاحها الأخضر، أبقت على عينيها العسليتين المُكحَّلتين مشدوهتين، كأنها تُشاهد معجزة.

توقف «مشتاق» عن التقاط النفَس، وفي عُمق عينيها الواسعتين قد انزلق، نهر من العسل المصفى يغرف منه ويرتشف، تشبَّث بدائرة الكحل العريض حولهما، يُحاول النجاة من الخطر.

فما كان منها إلا أن أغلقت جفنيها، بحركة بطيئة ساحرة، فأفلتت أنامله دائرة الكحل وسقط في أعماق بئر العسل إلى الأبد.

تململت الفتاة في مكانها، تبحث عن فسحة للهرب، يسد عليها الطريق إلى خارج الحقل الممتلئ، بنباتات شائكة عالية.

- من أنتِ؟

سألها بأنفاس متهدجة، ونظرات تتهادى وتحتوي. أبَت الفتاة أن تبوح باسمها، أو تُفلت كلمة من ثغرها، وعندما تحركت مغادرة، أوقفها بإشارة من يده، أنزل الحقيبة متلهفًا، ومنها أخرج دفترًا، كبيرًا كان ومُحبَّرًا، فتش فيه عن رسمة خطَّها، بيديه وزاد من النُّسَخ.

حرَّك الدفتر أمام عينيها، ثم قال متحمسًا: «انظري هنا أرجوكِ.. أرأيتِ؟».

نظرت الفتاة في وجل، والدهشة تُسكِر عقلها، رأت بطول الدفترِ، رسمة دقيقها لعينها!

نظرت إليه مستفهمة، وسؤالها فوق لسانها، باندفاع قالت حائرة: «لم أرَك في الواحة من قبل.. كيف رسمتني؟».

- أنا رأيتك ألف مرة.. هنا.. في الحلم.

أشار إلى رأسه، ثم إلى موضع مضغته، التي تنبض وتضطرب، لحظة انتظرها سنين طويلة لا يذكر عددها، أن يلتقي يومًا رسمته.

- كيف رسمتني؟

كررت الفتاة في قلق، ثم قالت في فزع: «هل هذا سِحر؟».

- نعم، أنا مسحور.

ثم أضاف مؤكدًا: «مسحورٌ وأنتِ الساحرة».

انطلق من عينيه سيل نظرات مُغرِقة، لم تجد الفتاة ما تتشبث به، إلا طرف وشاحٍ تملكه، أطاحت به الريح من أطرافه، فتبدت ضفائرها الذهبية لثانية.

- هذه أنا حقًّا!

كررت الفتاة مبهورة، تدنو من الدفتر، تلتقطه بين كفيها، وتمسح فوق العينين بأطراف أنامل نحيلة.

سألها أن تنظر إلى باقي الصفحات، فطالعتها عشرات الرسومات، لعينيها وحاجبيها من كل زاوية؛ مستيقظة وناعسة، بنظرات دهشة، وحيَّية، وناعمة.

أشارت إلى صفحة مسوَّدة بكلمات كثيرة، سألته عن فحواها فأجابها: «إنها أسماء.. كنتُ أحاول تخمين ماذا سيكون اسمك؟».

سألته أن يقرأها ففعل: «ريلماس.. هانيا.. لوسيندا.. شاهي...».

لم يكد يسرد على سمعها ما كتبه حتى أطلقت ضحكة مجلجلة، ثم قالت في مرح: «وهل هذه أسماء أم تعاويذ؟».

أصابته ضحكتها بالعدوى فابتسم ابتسامة واسعة، ثم قال مسارعًا: «أثق أن اسمكِ أجمل».

أشارت له كي يُفسح الطريق، فابتعد دون تباطؤ، تركها تمر أمامه، يعانق الدفتر بأنامله، ويقول بلهفة من خلفها: «ألن تخبريني باسمك يا ذات الضفائر الذهبية؟».

التفتت بنظرة ماكرة، تُخفي بالوشاح وجهها، إلا عينيها القاتلة، تقول بنبرة مِغناج: «أخبركَ إن التقينا ثانية».

وقف من خلفها مودعًا، بابتسامة نضرة وملوحًا، إلى أن غابت عن ناظريه، وسط الأبنية والحُجُب. تلفت محاولًا أن يتذكر ما كان يفعله قبل أن ينزلق في عسل عينيها وينسَكِب.

فتذكر في لحظة خاطفة، وهتف لنفسه بجزع: «سراب!».

ثم ركض مسرعًا في طريق الكوخ.

***

أثار الكوخ الخالي في نفسه خيالات مفزعة، عما يكون قد فعل بها الأحدب ليلة أمس، وبخاصة عندما لم يجدها في الأطراف.

ناداها كثيرًا دون جواب، إلى أن رأى الأحدب قادمًا في عرض الطريق.

أوقفه متسائلًا في غلظة: «أين «سراب»؟».

وقف الأحدب ينظر إليه بجمود دون أن يُريحه بالجوابِ، ثم مضى في طريقه تجاه الحطب، يضرب فوقه بالفأس، يُعده ليكون عشاء نيران المدفأة هذه الليلة.

صاح به «مشتاق» ثانية، فأشار الأحدب إلى الواحة بحركة متأنية.

لم يصدق «مشتاق» إجابته، فلزم مكانه في مواجهته يكيل له السباب والتهم. التقط الأحدب حجرًا تلو آخر، وظل يرشق «مشتاق» إلى أن ابتعد. قفز قلب «مشتاق» في وجل، ومضى في اتجاه الواحة متسائلًا، عن مكان «سراب» وحالها.

بلغ ساحة واسعة، عملت ملابسه وحقيبة ظهره كمغناطيس لجذب نظرات كل كائن حي في الواحة، بما فيها الطير على الشجر. شعر أن وجهه أرض

صالحة للإنبات، غرس فيها كلٌّ منهم فسيلته، فأضحى حديقة من المشاعر المتباينة؛ ما بين قلق، وتوجس، وحذر.

ساقته قدماه صوب تجمهر للنساء أمام دار من طابقين، فقرر أن يقترب كي يبحث عن «سراب» أو يسألهن عنها، عندئذ جذبه رجل بخشونة من ياقته.

- ماذا تفعل وسط الحريم يا هذا؟

تلجلج «مشتاق» واعتذر، أوضح للرجل أنه ما أراد إلا البحث عن أخته، التي كانت معه عندما ضلُّوا الطريق عن الدليل، في أثناء رحلة سفاري في الصحراء.

قاده الرجل إلى ساحة المرح، وأمر الرجال باستضافته، فقام أحدهم يملك غرفة خالية في بيته الصغير، قدَّمها له طواعية.

كان «مشتاق» تعبًا وجائعًا، وما إن اشتمَّ رائحة الشواء حتى انهزَم، نسي «سراب» والواحة واللعنة، ونزل فوق الخروف فاتِكًا.

أخبروه عن «ليالي السامر» التي تستمر لسِتة أيام متتالية، تضج بالاحتفال والسمر، تليها ليلة الزفاف، فتلك سبعة كاملة.

بدأ الرجال في الرقص والمرح، وجد «مشتاق» نفسه وقد انجذب لواحدة من حلقاتهم، يصفقون وينشدون ويمزحون، فشاركهم اللهو والصخب. جمع أصحاب «جَمعان» ممن يماثلونه عمرًا، وأخذ يُعلمهم رقصة ابتدعها من خياله بالعصا، بحركات أثارت بهجتهم واستحسانهم.

أنشَد خلف شبابهم:

يا بو عيون سود وخدود حُمر آه منك.

بُقك يقطر عسل يا جميل بَل القميص منك.

قلبي يحبك ويريدك وعيني تستحي منك.

لو جيت بالوصل يا جميل يبقى جا منك.

ما جتش بالوصل نشكيله ربنا يوم القيامة يخلص حقنا منك[1].

لساعاتٍ، ظل «مشتاق» بشوشًا متوهجًا، إذ عثر أخيرًا على فتاة خياله ذات الأعين المُهلِكة.

ما إن أوشكَت الشمس على لملمة ردائها مودِّعة، حتى انفض الحفل، وسكن الصخب، مضى كل رجل في طريقه إلى داره.

وانقاد «مشتاق» إلى دار «عبد البَر»، الذي تطوع بمنح غرفة للغريب التائه، ورحب به ليحل ضيفًا في بيته!

***

(1) من الأغاني الشعبية في الواحات.

(2)

- من يكون هذا المجنون؟

هذَت «سراب» بالسؤال لا تقوى على استجماع أعصابها، لم تأتِها إجابة شافية، إذ سمعت سقطة مدوِّية.

صاحت «سراب» في لوعةٍ: ««سلَّام» هل أنتِ بخير؟.. أفيقي يا «سلَّام»».

ثم صرخت بعزم طاقتها مُنادية، تضع رأس الفتاة في حجرها، تخشى أن يكون قد اصطدم بالأرض في أثناء سقوطها.

أول من لبَّى النداء، «أبو الأحناش» شَهبندَر القماش، حمل ابنته في جزع، وضعها في فراشها، برويَّة رجل مهموم، وحرص أب مكلوم.

ألقى الملامة على «سراب» أن سمحت لابنته بمراقبة المشهد العنيف، الذي حضر فيه الممسوس مع حصانه المارق، ذي الصهيل الهائج، فلم يحتمل قلبها الواهن ما شهِد.

جلس الجميع حولها يقرضهم القلق، لم يكن بوسعهم الخروج لجلب مُطبب الواحة لفحصها، بينما الليل لا يزال مخيمًا. شاركتهم «سراب» السهر، تجلس بجوار «سلَّام»، إلى أن استفاقت أخيرًا بعدما وضعت لها إحدى النساء مسحوقًا في مدخل نفَسها.

عطست طويلًا، ثم فتحت عينها، أول ما تحدثت به من كلمات، وجهتها لأبيها الذي أنهكه الهلع: «أنا بخير».

- حبيبتي «سلَّام» لماذا تفعلين هذا بنفسك؟.. لماذا صعدتِ إلى السطح رغم علمكِ بما سيحدث؟

- آسفة يا أبي.. أن سببتُ لك القلق.

قبَّلت يده، وقبَّل رأسها، ثم التفت إلى «سراب» معتذرًا عن حدته في معاتبتها، أضاف: «أنتِ الآن واحدة منا.. يسري عليكِ ما يسري علينا من قوانين.. فانتبهي يا بنتي جيدًا».

آوى «أبو الأحناش» إلى غرفته، أما النساء اللاتي سيحللن ضيوفًا طوال ليالي الحناء لمساعدة العروس وتجهيزها، أُرشِدن إلى الغرف التي سيمكُثن بها.

فضَّلت «سراب» النوم على أريكة في غرفة «سلَّام» كي تراقب حالتها، في صحوها ونومها.

طال بها السهر، تُفكر في «مشتاق»، أين هو؟ وماذا يفعل من دونها؟ ثم طافت برأسها الأسئلة، عن الممسوس وفعلته، وتباهيه بقدراته وقوته، من يكون؟ ولماذا أحدٌ لم يوقفه؟

رأسها يضج بألم نابض، أمسكت به تُقاسي وحدها في صمت، تستشعر حرجًا بالغًا في إيقاظ أحدهم لطلب دواء مسكن.

وبعد ساعات مضنية، انزلقت إلى مملكة النوم من غير حول منها ولا قوة.

***

عندما دخل «مشتاق» بيت «عبد البَر»، أبدى له الترحاب وأسبغ عليه من فيض الكرم. اقتسم معه رغيفًا من الخبز الشمسي، وقطعتين من لحم الضأن كان قد أخذهما من حفل السامر.

شيخ محني الظهر، هزيل البدن، تفترش التجاعيد قسماته، ابن نُكتة له في المزاح باع، استأنَس «مشتاق» بصحبته.

- لماذا لا تخرجون من بيوتكم في المساء؟

تعكَّر مزاج «عبد البَر»، قال في حدة وسخط: «بسبب الملاعين أبناء الملاعين.. هكذا يسنون القوانين.. النهار لنا.. والظلام لهم».

- من هؤلاء؟

- الممسوس ورجاله.

- ولماذا لا تُعارضون هذا الممسوس؟

ألقى عليه «عبد البر» نظرة ذاهلة، كأنه يتأمل مجنونًا يهذي بكلام غير مفهوم، ثم قال وهو يشيح بيده كأنه يهش الهواء: «كلهم جبناء.. مجلس السبعة بما فيهم من كبراء.. تسمعهم في المجالس فتحسبهم رجالًا أشداء.. لكنهم كورق الخريف يتساقط مرتجفًا أمام الممسوس».

ثم مال صوب «مشتاق» يقول بصوت مبحوح متهدج الأنفاس: «أتعرف أيها التائه؟.. ثمة طريقة واحدة للقضاء على الممسوس».

- وما هي يا عَم «عبد البَر»؟

تلفت حوله، كأنه يستوثق من أن الجدران بلا آذان، ثم قال هامسًا، بنبرة اتسمَت بجدية بالغة: «لا يأكل النار إلا النار».

لم يفهم «مشتاق» ما يرمي إليه «عبد البَر»، امتلأت نفسه سخرية من الرجل الخرف، الذي يهذي بكلمات من غير معنى.

إذا أكلت النارُ النارَ، لن يتغير شيء، ستظل الواحة تحترق!

أردف «عبد البَر» كأنه يبوح بسر خطير: «الممسوس رجل مخلوق من نار.. لا أقصد نارًا حقيقية كتلك التي تراها في المدفأة.. بل نار غير مرئية لا تستطيع بئر من الماء إخمادها.. لن تنطفئ نار الممسوس إلا بنار مثلها.. قوة تكافئ قوته».

بغتة دُقَّ الباب الخشبي بقوة بالغة، انتفضا على أثرها فزعًا، يُقلبان الأريكة، يتخذانها درعًا باليًا، ويحتميان خلفها.

ولما سكن الصوت، قام «عبد البَر» يستطلع الأمر، وقد أدرك قبل أن يفتح الباب ويرى، أن الصوت الذي سمعه ما هو إلا مسمار كبير من الصلب دقَّه رجال الممسوس في منتصف بابه.

أغلق «عبد البَر» الباب، ووقف في منتصف البيت يبكي كالأطفال، يهذي بكلام كثير عن القدر المحتوم، والممسوس الذي صحب في يده ملَك الموت.

حاول «مشتاق» تهدئة الرجل، إلا أنه كان كعاصفة تزمجر في سخط، لا سبيل لوقفها، تسحق من يعترضها.

لجأ «مشتاق» إلى ركن قصي، يتجرع فيه كؤوس الخوف على جرعات مركزة.

ضجَّت الواحة بصوت شقَّ أستار الصمت ممزقًا وهاتِكًا، عندئذ توقف «عبد البر» عن الصياح والنواح. وكأن ثمة حبلًا خفيًّا يربطه، ويقوده صوب قدره المحتوم، سار بهدوء كبير صوب الباب، مدركًا أن لا مكان للهرب، ولا سبيل للمقاومة، كل ما قد يُفعَل ويُقال بلا منفعة.

فتح «عبد البر» الباب ومثَل بنفسه أمام الممسوس، مطأطئ الرأس، متعرق الجبين، باستسلام محسوس.

وما إن سحبته الحبال المربوطة في السرج، حتى انتفض قلب «مشتاق» في لوعة واهتياج.

يسيل الرعب في داخله، متدفقًا، ملتهبًا، من غير سدٍّ يردعه.

- أين أنتِ يا «سراب»؟!

***

بينما تثاءبَت الشمس تسترق النظر إلى الخلائق، مرت بهم ليلة عصيبة، هذا ما كان محفورًا فوق وجوههم.

على الفطور في بيت «سلام»، لم يتحدث أحد عما حدث لـ «عبد البر»، كأن ما وقع بالأمس ما هو إلا حلم تشاركه الجميع، ثم صبحوا وقد تساقط من ثقوب الذاكرة.

عجبت «سراب» أيما عجب، حاولت سؤال «سلَّام» عن المشهد الرهيب الذي شهدوه ليلة أمس، فهمست لها: «لا أحد يحب التحدث عن الأمس.. إياكِ أن تثيري استياءهن».

روَّضَت «سراب» فضولها مرغمة، ولم يكن هذا سهلًا على الإطلاق.

- بالمناسبة.. طلبتُ من أبي أن يستطلع أمر أخيكِ كما وعدتكِ.. إنه يقيم في دار «عبد البَر».. اطمئني لم يصِبه مكروه.

أطلقت «سراب» زفيرًا مريحًا. سعدت عندما انتهى الفطور سريعًا، خرجت تدق باب بيت «عبد البَر» طويلًا، إلى أن قالت لها «سلَّام»: «لعله جاع فذهب لالتقاط الطعام.. بالمناسبة تعجبني طريقة لفك للوشاح».

تحسست «سراب» أطراف وشاحها وقالت في حرج: «حقًّا؟ إنها المرة الأولى التي أرتدي فيها شيئًا كهذا».

- غريب.. وكأنكِ فعلتِ هذا من قبل آلاف المرات.

أخبرتها «سلَّام» أنهما ستتوجهان إلى السوق، أراحها عدم العودة إلى صخب النساء. ولربما تتمكن من الحديث مع الفتاة بحرية أكبر مما هو الحال في دارها.

في السوق، مرَّتا على بائع الصوف، توقفتا أمامه قليلًا تتأملان بضاعته، ثم مرَّتا على بائع العطور، عندئذ قالت «سلَّام» على استحياء: «أريدك أن تساعديني في اختيار هدية».

- لمن؟

- لـ «جمعان».. على العروس والعريس إهداء بعضهما في صبيحة الزفاف.. هذا مهم لتأليف قلبيهما.. لم أستقر بعدُ على الهدية، قلتُ ربما تساعدينني في الاختيار.

مر بخاطرها ما نما إلى سمعها بالأمس، وما سيق لها بلا تخطيط. أمضت ليلتها تتقلب فوق نيران الأرق، تتساءل عما يجب أن تفعله؛ هل تخبر «سلَّام» بما سمعته، أم تحفظه في نفسها؟

رنَت إلى «سلَّام» بقسماتها السمحة، وجبينها الوضَّاء، يحيط شعرها البني وشاح كريمي ساتِر، تُرفرف فراشات الفرح من حولها، متحمسة تختار هدية زفافها.

تشم العطور عطرًا عطرًا، تجتهد لاختيار الأجمل لأجل عريسها.

لو أخبرتها بما سمعته ستهدم أحلامها، ولو أخفت عنها ستتركها تواجه أشباحها، لو كانت محلَّها لفضلت المعرفة، لكنها ليست «سلَّام»، و«سلَّام» ليست هي.

- تبدين شاردة.

اغتصبت «سراب» ابتسامة عابرة، ثم سألتها مباشرة: «إذا كان ثمة كلمة تخفينها، لها سلاح ذو حدَّين، إذا أطلقتِها ستؤلم، وإن أمسكتِها أيضًا ستؤلم، فماذا أنتِ فاعلة؟».

أمعنت «سلَّام» التفكير، وأطرقَت بصمتٍ متأنٍّ طويل، ثم قالت بعدما قلَّبت السؤال في وجدانها: «أنظر كم شخص سيتألم في الحالتين، وأختار أخف الضررين».

ما مر على خاطرها هذا التفكير!

كم شخص سيتألم في الحالتين؟ لا تعرف على وجه اليقين، لكن ما يغلب على ظنها، أن الحقيقة ستهدم أحلام كليهما؛ «سلَّام» وشهبندر القماش «أبو الأحناش».

وربما كان الأب يعرف من البداية ما يدور في خُلد «جمعان»، وما أراد إلا أن يزور الفرح قلب ابنته السقيم، حتى وإن كان لأيامٍ في الحياة معدودات.

لربما بحديثها ستهدم ما اجتهد هو لبنائه لسنوات.

ثم أنها غريبة في دارهم، من هي لتُنكِّس رايات فرحهم النابتة فيها؟

ما يدريها، لعل «جمعان» يأنَس بمعاشرة «سلَّام»، ويرى فيها الزوجة التي يشتهي، ويتآلف القلبان صبيحة الزفاف مع الهدية التي تجتهد «سلَّام» في اختيارها، ما يدريها؟

قررت التزام الصمت، مؤقتًا، معاكسة بذلك طبعها الذي يفضل الإفصاح والمكاشفة، وبهذا القرار العسير تكالَب عليها الهم، لا تعرف من أي باب انسَل.

- «سراب».. «سراب».

نادتها «سلَّام» فلم تنتبه، كانت نظراتها معلقة فوق قسمات الأحدب الذي تبدَّى لها عن مقرَبة.

يمسك بحبات من البلح، يمنحها للمارة من غير سؤال، يسترق النظر نحوها، يوليها من اهتمامه أكثر مما يولي الكفوف المبسوطة أمامه، شعرت أنها تحت ميكروسكوب لعَينٍ مُكترثة فاحصة.

يعتمر الطاقية الرمادية التي أهدتها له، أخفت بزوائدها ما أراد مداراته، فما عاد بحاجة إلى رفع الكوفية لتلتهم وجهه.

بدا واضحًا وسط السوق، متوهجًا، كالشمس في خدرها.

بإخفاء مواضع الحروق بدت ملامحه مألوفة، مألوفة للغاية، كأنها عاشت معه عمرًا كاملًا، لا ليلة واحدة.

أدهشها هذا الشعور العجيب.

هزَّت رأسها تبتسم له مجامِلة، فأشاح بوجهه وتنكَّر لمعرفتها! تسرب الضيق إلى قسماتها، لماذا يتظاهر بأنه يجهلها، هل يفعل هذا عامدًا؟

- «سراب».. أنتِ كثيرة الشرود، هل هي عادتكِ؟

- كنت أنظر إلى هذا الرجل هناك.

- أي رجل؟

- الأبكم الأصم.. الذي لديه شيء فوق ظهره.. أقصد الأحدب.

قالتها «سراب» بشيء من الانزعاج، لا تحب أن تُسمي الناس بأوصافهم، وبخاصة تلك التي تُشير إلى نقيصة أو اعوجاج.

- لا هو بالأبكم.. ولا بالأصم.. من أخبركِ ذلك؟

أولتها «سراب» اهتمامها، سألتها في دهشة بالغة: «هل يستطيع التحدث؟».

- بإمكانه ذلك.. لكنه لا يفعل.

- لماذا؟

- يخاف علينا.. كي لا نقع في مأزق.

أدركت «سلَّام» أن الفتاة تبغي المزيد من التوضيح، فتركت زجاجة العطر فوق الطاولة، ومالت صوبها تستفيض: «يعيش في الواحة وحيدًا.. يعرفه أبي منذ مولده.. كان طفلًا هادئًا.. يحمل سنمًا صغيرًا فوق ظهره.. اعتاد الصغار أن يقولوا ذلك.. أما صدره فيسكنه قلب جميل.. كان رجال الواحة يقولون له: قلبك كبير.. لم يسعه صدرك.. فأنبَت الله لك في ظهرك هذا البيت الكبير».

تأثرت «سراب» بما قاله الرجال لطفل وُلد مختلفًا، سألتها مشدوهة إلى الحكاية التي أثارت شجونها: «ولماذا لا يتحدث إلى أحد؟».

- لأنه معاقَب بالنَّبذ.. يعيش على أطراف الواحة.. بالقرب من بوابتها الحجرية.. الممسوس يُحرِّم علينا التحدث إليه.. كل من يخالف ذلك ينال عقوبة قاسية.. يعيش وحيدًا في كوخ خشبي منعزل.. يُمنع عليه استضافة أحد.

- وماذا سيحدث له إن سمح لأحد بالبقاء في كوخه؟

أشارت «سلَّام» إلى رقبتها بأنامل مرتجفة، تقول بنبرة قاطعة: «سيكون الموت عقوبته».

ثم أردفت: «كل من يخالف قوانين الممسوس ينتظره ما حدث بالأمس لـ«عبد البَر»».

لم تكن أنامل «سلَّام» الوحيدة التي رجفت، شعرت «سراب» برجفة تجتاح أوصالها، الأحدب خاطر بحياته لأجلها، وهي الغريبة التي لا يعرفها، لا يربطه بها جَميل ولا واجب. استضافها في كوخه ليلة كاملة، رغم علمه بالعقوبة التي تنتظره، إن اكتشف الممسوس أمره.

والآن يتجاهلها ويتنكَّر لها، مخافة أن تحاول التحدث إليه علانية، فيُصيبها ما يصيب أهل الواحة جزاء خرق قوانين سارية.

لم يقدم لها أحد قط مثل ما بذله هذا الأحدب من تضحية.

رمته بنظرة ممتنة، دهشة، شاكرة، لا تعرف إن بلغته كما أرادت، أطرق صوب الرمال لثانية، ثم مضى في سبيله، قبل أن ينتهي من توزيع البلح الذي يحمله.

قالت «سلَّام» للفتاة التي تتابع بنظراتها خطوات الأحدب المتباطئة في اتجاه كوخه المنعزل: «اسمه «مطر»».

لاكَت «سراب» الاسم بلسانها، تعتصره في محاولة لاستخلاص المعنى، أو السبب. أردفت «سلَّام»: «عندما وُلد تساقط المطر ليغمر الواحة.. وقد كنا نعاني قبلها الجفاف والعطش».

سألت والغيظ يقرض أطرافها: «هذا الذي تقولون عنه الممسوس.. لماذا لا يوقفه أحد؟».

- يظن الكبار أنه يحفظ بقوانينه أمن الواحة وسلامها.

- وأنتِ لا تظنين مثلهم؟

مطت شفتيها مفصحة: «لا أحب طرقه المؤذية».

اختفى «مطر» خلف الأبنية، ساقته الريح مع الرمال إلى وحدة مقيتة، وعزلة موحشة.

لم تزل «سراب» متأثرة بالرجل وحكايته، لم تكن قط ممن يطيقون آلام الآخرين، أو يحتملون الظلم الذي يوقعه القوي على أضعفهم. هذا الممسوس يستقوي على العجائز والضعفاء بقوته وعنجهيته، كَنَّت له من النفور والتباغض ما يملأ واحة كاملة.

سألت بحزنٍ متأثرة: «ماذا فعل ليُنزل عليه الممسوس تلك العقوبة القاسية؟».

تلفتت «سلَّام» حولها، ثم أجابتها مستشعرة الخطر: «حاول قتل الساحرة!».

(3)

- مُبارك يا عروسة.

تزاحمت النساء المُهنئات أمام بيت آخر من بيوت الواحة، هذه المرة من طابق واحد، مما يشير إلى تواضع حال ساكنيه. بيت العروس الفقير لا يقدم الطعام، بل يستقبله، لا يُثقَل عليه، بل يُساقُ إليه.

أقبلَت النساء في ابتهاج، كل منهن تحمل فوق رأسها سلة من الخوص المجدول، وضعت بها ما جادت به نفسها. وما بين مطبخ الدار وساحته، تشاركن ما أتين به من زاد، وأعددن وليمة كبيرة تكفي قرية كاملة.

- لا نقيم في الواحة حفلات زفاف فردية.. حفلاتنا ثنائية أو ثلاثية أو رباعية.. هيا يا «سراب» أسرعي قليلًا.

أمسكت «سلَّام» بكفها وقادتها وسط الزحام، إلى أن بلغت بها ساحة دار العروس الثانية، التقطت أذن «سراب» همسات العجائز وحديث الفتيات: «محظوظة «صَدَف».. عريسها بذل الكثير لأجلها».

- يحبها منذ أن رآها تبيع السلال في سوق الخوص.
- أهداها فرسة أصيلة لم يُرَ في الواحة مثل جمالها.
- صنع لها سبعة تيجان لليالي السامر كل تاج من زهرة نادرة.
- لو طلبت نجمة لقطفها من السماء ووضعها في كفها.
- شاب عَفي، بَهي الطلَّة، محظوظة «صَدَف».

لم يزعج «سراب» سوى أن تتسرب تلك الهمسات إلى «سلَّام»؛ لن تملك المسكينة سوى المقارنة بين الرجلين، وما فعله كل منهما لأجل عروسه المرتقبة، حتى وإن كان لـ «سلَّام» قلب واهن عليل، فهو مرهف الشعور، لا بُد وأن أحس بالمسافة الشاسعة بينه وبين الرجل الذي سيصبح بعد ست ليالٍ زوجها.

أي فتاة كانت ستعرف، أي فتاة كانت ستشعر، حتى وإن تناسَت واستنكَرَت.

تواجهت الفتاتان في لحظة من الزحام، حزنت «سراب» لما طالعت الوجه المحتقن لـ «سلَّام» المسكينة، لا بُد أن الغيرة والحسرة تتغذيان على قلبها الآن.

ساقتها «سلَّام» صوب غرفة في آخر الدار، كأنها تعرف كل شبرٍ فيها، قالت لها: «لا بُد أنها مختبئة هنا.. «صدَف» تكره الزحام».

حجرة نظيفة كانت، منظمة، قليلة الأثاث، فوق فراش صغير استلقت فتاة تدفن رأسها في وسادة صغيرة، نادتها «سلَّام» باسمها، فأدارَت الفتاة رأسها.

لم تكد «سراب» تراها حتى أصابها العجَب!

عينان حمراوان من أثر البكاء، في وجه شديد الشحوب، باهت، كأنه وجه فتاة توشك أن تموت، تكبر «سلَّام» ببضع سنوات.

نهضت «صدف» وألقت بنفسها بين ذراعي «سلَّام» تجتر البكاء كأنه مخلوق لأجلها، تشاركها فيه «سلَّام»، دون كلمة، دون سلام.

لما انتبهت «صدف» لوجود «سراب» معهما في الغرفة، مسحت عينيها في حرج. أزالت «سلَّام» الحاجز بين الفتاتين بتقديم إحداهما للأخرى: ««سراب» تائهة ضلت الطريق إلى واحتنا.. وهي ضيفة في دارنا.. «صدَف» رفيقة طفولتي وأختي التي لم أحظَ بها».

رمقتها «صدف» ممتنة، ثم التفتت إلى «سراب» مُرحبة، بصوت مشروخ، وكلمات تتلجلج في مهدها.

- سأحضر لكما الطعام.

اعترضت «سراب» محتجة بشبعها، لما رأت الفتاة وحالها.

فقالت «صدف» وهي تمسح العبرات العالقة فوق وجنتيها، ولا يزال أثر البكاء يُلطِّخ صوتها: «يجب أن تأكلي ما تعطيه لكِ العروس، هكذا عاداتنا».

فتاة هادئة «صدف»، تتحدث بالكاد، لا تستطيع التعبير عن نفسها، كأن الكلمات تختنق في حلقها، قبل أن تبلغ آذان سامعيها.

لم تُنشَّأ مدللة كـ «سلَّام»، تحتاج إلى بيع عشر سلال كاملة لأجل أن تشتري فستانًا، وخمس وعشرين سلة لأجل أن تشتري زجاجة عطر واحدة.

تجدل السلال بنفسها ثم تذهب لتبيعها في سوق الخوص، منذ خروج الشمس من شرفتها إلى ما قبل الزوال، ثم تعود إلى الدار تنتظر عودة أبيها من عمله في دكان التوابل، أو تُمرِّضه حين يشتد عليه المرض.

تجلس أمام فرشتها في السوق صامتة تتأمل السماء، والرمال، والخلق، كأنها تُشاهد عالمًا لا تنتمي إليه، بينها وبينه ستار شفاف، تراهم ولا يرونها.

قسمات متواضعة لفتاة عادية، لا ميزة تحوزها، لا في النسَب، ولا في المُلك، ولا في الجمال.

اعتادت أن تشعر أنها غير مرئية، كالهواء الذي يمر أمام الناس دون أن يتمكنوا من لمسه، أو الإحساس به.

لم يزعجها هذا الشعور، اختبأت به، وخلفه، أدمنته، حتى رآها عريسها مصادفة، عندما توقف ليشتري إحدى سلالها.

أكلت الفتاتان مجاملة للعروس التي أطرقت صامتة، وكان الصمت هو الشيء الوحيد الذي تشاركن فيه طوال مدة مكوثهما، ثم انصرفتا على وعدٍ بزيارتها طوال ليالي حنتها، إلى أن يحين موعد زفافهما المشترك.

لما ابتعدتا قليلًا عن الدار، لم تتمكن «سراب» من كبح فضولها: «ألا ترغب «صدَف» في الزواج؟».

- بالطبع ترغب.

- إذن لا ترغب في عريسها.

أومأت «سلَّام» برأسها مؤكدة، يمسح الحزن فوق جبينها، فهمت «سراب» أن ما شعرت به «سلَّام» تجاه «صدف» لم يكن الغيرة، بل الشفقة.

سألتها عن السبب الذي يجعل «صدف» عازفة عن الزواج برجل به كل المميزات التي تحدثت عنها النساء المهنئات.

توقفت «سلَّام» عن المسير، ثم قالت بانكسار ووهن: «لأنه أحد رجال الممسوس».

وكان هذا أكثر من كافٍ لتستدر شفقة «سراب» بدورها، على الفتاة التي حتمًا تبغض أفعال الممسوس، وآخر ما ترجوه فتاة وديعة طيِّعة، هو الزواج بأحد رجاله.

- لماذا لا ترفضه؟

تساءلت «سراب» بشيء من الحدة، وقد أزعجها رضوخ الفتاة وضعفها.

- لا تستطيع.

- قد أفهم أنها تعجز عن الرفض لكن بإمكانكم مساعدتها.

- أمها تبارك هذه الزيجة.. وأبوها مريض ضعيف.. ليس بإمكان أحد مساعدتها.

- إنها رفيقة طفولتك كما تقولين.. لماذا لا تفعلين شيئًا لأجلها؟.. لماذا لا تتحدثين مع أمها؟

عادتا إلى السوق مرة أخرى، للبحث عن هدية «جمعان» التي لم تستقر عليها «سلَّام» بعد، وتولي اختيارها أهمية بالغة.

كانت «سلَّام» تُمسك بين يديها بصديري من الجلد بني اللون أعجبها ملمسه، ورأته بعين الخيال جميلًا فوق صدر «جمعان».

تركته من يدها لما سمعت السؤال، وقفت أمامها تقول ما ينهي الجدال: ««صدف» ابنة الساحرة!».

ثم أضافت بجدية حازمة: «لا أحد يستطيع الوقوف في وجه الساحرة».

كل شيء يلف ويدور ويعود إلى تلك المرأة الآثمة، لم تكتفِ بتدمير حياة جدتها وحياتها، طالت يدها كل جميل في الواحة، لم يسلم منها لا «صدف»، ولا «مطر».

- هل تعيش الساحرة مع «صدف» في بيتها؟

- الساحرة تعيش تحت حماية الممسوس.. في الجهة الأخرى من الهاوية.

ما أدركته «سراب» في تلك اللحظة، أنها إذا كانت تريد الوصول إلى الساحرة لتفك لعنتها، عليها أولًا العبور فوق جسد الممسوس، كلاهما أصبح هدفًا لسخطها.

- «سلَّام».. لماذا خرجتِ من الدار في حالتكِ هذه؟

أقبل صوب الفتاتين رجل مهيب، كثيف الحاجبين، على مشارف الثلاثين، يخالط شعره الفاحِم شعيرات بيضاء قليلة متناثرة هنا وهناك، وقور الهيئة، غضوب النظرات.

رمق «سراب» شزْرًا ولم ينظر إليها ثانية، أردف محتدًّا: «لماذا تخرجين بمفردك مع الغرباء؟».

استفز «سراب» وصفه لها، رغم أنها بالفعل غريبة لا تنتمي إلى الواحة وأهلها، سارعت «سلَّام» بتلطيف الأجواء: «عمي «طوفان».. أرجوك اهدأ.. أنا بخير».

- أخبروني أنكِ فقدتِ الوعي بالأمس، كيف تكونين بخير؟

- لكنني بخير الآن.

- ما كان عليكِ طاعة الغريبة والخروج إلى السطح.. ستؤذين قلبك يا «سلَّام».

كظمت «سراب» غيظها، وكتمَت سبة في نفسها، لماذا يُلقي الجميع على رأسها بالملامة دون اعتبار لإنكارها؟

- عمي «طوفان».. أنا التي أردت المشاهدة.
- لأنكِ حمقاء.

قالها مقطب الجبين، حاد النظرات، تلطفت «سلَّام» تخبره: ««سراب» فتاة لطيفة.. تاهت وأخوها في الصحراء فقادتهما الدروب إلى واحتنا».

- ذاك الفتى الذي يقيم في دار «عبد البَر»؟.. رأيته قبل لحظات.

مط شفتيه في إشارة واضحة إلى أن الفتى لم يرُقه. أنطقها الغيظ فقالت «سراب»: «لم نأتِ إلى واحتكم بإرادتنا».

وكانت تعرف أنها كاذبة. لم يبدُ أنه سمعها، «سلَّام» التي تعرف تحسسه من الغرباء، قالت مُمسكة بدفة الحوار: «دعك من هذا الآن.. بلغني أن مشاجرة قوية نشبت بينك وبين «مندورة».. ما المشكلة التي لا تستطيعان حلها؟».

قال بغلظة، يحيد بنظراته صوب الفضاء: «الفتيات الصغيرات لا يتدخلن في شؤون الكبار».

- أنا لستُ فتيات صغيرات.. زفافي بعد ست ليالٍ وما زلتَ تعاملني كطفلة.
- لا الوقت مناسب ولا المكان.
- تلك زيجتك الثالثة التي تسوء فيها الأمور قبل أن تتم حولًا كاملًا.. ما المشكلة يا عمي؟.. أخبرني ربما أستطيع المساعدة.

أزعجه الحديث عن أموره الخاصة أمام الغريبة، أمر «سلَّام» بالعودة في الحال. سار وراء الفتاتين من غير كلام، يطرق صوب الأرض، كأنه يعقد حديثًا هامسًا مع الرمال، إلى أن بلغوا باب الدار، فارتد على عقبيه عائدًا إلى السوق، حيث دكانه وعمله في عصر الزيتون.

- عمك غليظ.. لا يُشبه أباكِ أبدًا.

ضحكت «سلَّام» قائلة بدلال: «لا أحد يشبه «أبا الأحناش»».

ثم أردفت بجدية: «عمي «طوفان» ليس كما يبدو.. يدفن في صدره همًّا كبيرًا.. لا يبوح به لأحد.. هكذا أشعر».

ثم رمَت بنظراتها خلفه تتمتم بتصميم: «يومًا ما سأعرفه».

***

في بطون الكتب التي كانت ترافقها طوال فترة عملها كأمينة مكتبة، تعرفت على ألوان عديدة من الظلم، ما يفنى إلى العدم وما يُستحدَث من منبته.

وفي كل مرة كان يحلو لها أن تتخيل نفسها النور الذي يطارد الظلام، والأمل الذي ينحر أعناق الألم. لا تتحمل الظلم وإن تجسَّد لها في حكاية على الورق، فما بال حالها الآن وهي تتجرعه على رشفات متتابعة، منذ أن وطئت الواحة بقدمها.

انجرفَت أمام سيل الأفكار، التي ضجَّت في رأس متخم بالأسئلة الشرهة، والصداع الفتَّاك.

طرقت باب بيت «عبد البَر»، أو ما كان بيت «عبد البَر»، فقد أصبح من الآن مسكنًا لـ «مشتاق».

جلسا في صحن الدار يستأنسان بالحديث، عرض عليها الإقامة معه في مأمن، بدلًا من البقاء في بيوت الغرباء، فما كان ردها إلا: «لقد وعدتُ «سلَّام» بملازمتها حتى ليلة الزفاف».

كررت تنبيهها وتشددت ألا يقرَب ماء البئر المسحورة، وأن يقسِّم ما معه من الماء حصصًا متساوية، تكفي الأيام التالية.

قالت له بغتة، وهي ترنو إلى الإرهاق البادي على مُحيَّاه: «أيام قليلة وسينفد مائي وأضطر إلى مغادرة الواحة.. لستَ مضطرًّا لانتظاري.. بإمكانك العودة الآن».

ابتسم ساخرًا، فقالت بسرعة: «لن يُخِل هذا باتفاقنا.. لكَ نصف الوديعة كما وعدتُك.. سواء بقيتَ معي أو غادرتَ».

قال برعونة كأنه لم يسمعها: «مللتُ من المكوث في البيت.. تعالي نتجول قليلًا قبل أن تغرب الشمس وتعود سندريلا إلى دارها».

- أيعني هذا أنكَ ستبقى معي؟

سألته لأنها أرادت أن تسمع، أن ثمة شخصًا يقف إلى جوارها، يمسك بكفها وسط التخبط والظلام الذي يلفها، لكن ما قالته ذكَّرها بالنظرة التي رأتها في عين الأحدب.. نفضت رأسها لتطرد الكلمة.. وتستبدل بها اسمه.. «مطر».

هو أيضًا أراد استبقاءها، رغم أنه لا يعرف أي نوع من النساء هي، نظراته في السوق كانت تناديها، لماذا هي بالذات، أم تُراه يفعل ذلك مع كل غريبة تمر بواحته؟

هل أفقدته الوحدة اتزانه فيحاول استمالة أي امرأة تمر في طريقه؟ أي امرأة؟

أشعرها ذلك بشيء من المهانة.

هذا الرجل حاول قتل الساحرة.. ما الذي أغضبه منها إلى هذا الحد؟.. هل ينتقم لشخص يحبه.. أم يثأر لنفسه؟

الأسئلة تزداد شراهة، وللأسف تبخل عليها الواحة بالأجوبة.

- لقد وعدتكِ.

رنَت إلى «مشتاق» ممتنة، تترقرق العبرات في عينها، نفض رأسه كأنه لا يريد التأثر بتلك اللحظة الدافئة.

- هيا بنا.

تجولا في طرقات الواحة التي تضج بالاحتفالات، ابتعدا عن العمران شيئًا كثيرًا، يتحدثان حينًا ويصمتان أحايين.

بلغا حافة هاوية عميقة، مخيفة، تمتد بطول الواحة، تخترق البوابة الحجرية وتستكمل طريقها.

ومن الجهة الأخرى تنتهي عند بحر من الرمال المتحركة.

وقفت «سراب» تتأمل الطرف الآخر من الهاوية، حيث جبل أسود شاهق من حجارة ملساء ينزلق الهواء إن لمسها، خلفه تعيش الساحرة في حماية الممسوس وحاشيته.

لا سبيل إلى بلوغ الطرف الآخر من الهاوية من جهة اليمين، وإلا كان لزامًا عليها الخروج من البوابة والالتفاف حولها، عندئذ ستواجهها عقبة أخرى، سلسلة جبال نابتة وملاصقة لبعضها، عليها اجتيازها قبل أن تتمكن من بلوغ الموضع الذي يسكن فيه الممسوس ومن معه، واجتيازها من غير معدات ضرب من ضروب المستحيل.

ولا سبيل لبلوغ الطرف الآخر من الهاوية من جهة اليسار، حيث بحر الرمال الذي يبتلع كل ما يتحرك فوقه، حتى وإن كان في وزن زرزور صغير، أو ريشة من جناحه.

السبيل الوحيد أمامها هو الذي يستخدمه الممسوس بنفسه، عبر القفز فوق الهاوية، بحصان جامح، يخترق الهواء كأنه داهية.

اشرأب «مشتاق» بعنقه يتطلع إلى عمق الهاوية، بينما يتقافز الخوف أمام عينيه يقول: «عرفتُ أن الكثير من المجانين حاولوا بلوغ الطرف الآخر بخيولهم.. فتيان ورجال وشيوخ.. منهم من أراد الفتك بالممسوس لظلم وقع به.. ومنهم من حركه الفضول.. يقولون إن خلف الجبل كنوزًا لا أول لها ولا آخر.. بحر من اللذات.. طعام وشراب وذهب وياقوت وفتيات حِسان».

- «الجارة السوداء»!

أدهشه قولها، سألها مستفهمًا: «ماذا تقصدين بـ «الجارة السوداء»؟».

علَّقت نظراتها بالجبل المهيب أمامها، أفصحت دون أن تلتفت: «يؤمن أهالي الواحات بأسطورتين لا واحدة.. الأولى تخص «واحة زرزورة» التي نبتت كقطعة من الجنة وسط الصحراء.. واحة الخير التي يعيش أهلها في سعادة وهناء.. أما الأسطورة الثانية فتتعلق بمكان يُشبه من بعيد الهرم الأسود.. البعض يقول إنه مسكون بالجن الذي يُنادي التائهين في الصحراء.. وآخرون يزعمون أنه يقع جنوب مدينة «موط».. مجموعة من الحجارة السوداء تتخذ شكلًا هرميًّا مثل جبل.. رغم علمهم بمكانها لم يستطع أحد بلوغها.. يرونها قريبة.. وكلما اقتربوا تباعدت المسافات، كأن الأرض رداء يُطوى وينبسط.. لا يبلغها قاصد أبدًا.. إنها «الجارة السوداء»».

تذكرت كلام الدليل الذي صادفته، لا وجود لجنة من غير نار، ثم التفتت صوبه تتمم حديثها: «ما يسكن خلف هذا الجبل هو الشر الأسود.. الوجه النقيض لزرزورة».

خمشت نبرتها اطمئنانه، وعششت كلماتها في وجدانه، قال مؤكدًا: «نفهم من هذا أننا يجب ألا نذهب أبدًا إلى الجهة الأخرى من الهاوية».

دفنت نظراتها في الأعماق، تمررها فوق الهياكل العظمية، لفرسان وخيول لم يتمكن أي منهم من بلوغ الطرف الآخر، سقطوا صرعى الطموح والإصرار.

ثم همست لنفسها: «قبل أن تنتهي الأيام الخمسة التالية، يجب أن أعبر إلى «الجارة السوداء».. حيث يعيش الممسوس والساحرة.. لكن كيف؟!».

دُنيازاد

استيقظَت النجمة الخامسة
مِن صحوها كنتُ يائسة
نامَت طويلًا في خِدرها
ثم هرولَت إليَّ لاهثة
تقُص عليَّ ما وقع
وتُكمِل الحكي الذي انقطع
دهشة وعجب وحيرة فوقها
لما سمعتُ ما أخفَت في صدرها
إياكم والكذب على أم الرمال
ستقسو العقوبة والعفو محال!

الليلة الخامسة والعشرون

ما الأكثر أهمية؛ أن تكون حقيقيًّا،
أم أن تبدو حقيقيًّا؟

(1)

نصبَ الليل خيمته، أمسك عصاه، وساح في مرعاه، يهُش النجمات الشاردة، يجمعهن في حزمة واحدة.

أسندت «سراب» كتفها إلى النافذة المشرعة، ترنو إلى الشارع الأخرس، كجدتها مقطوعة اللسان. تذكرت الجدة وحالها، فترقرقت عبرات حزينة، حنونة، مشفقة.

ما أثار خجلها، وعزز استياءها، إدراكها أن السبب الأكبر الذي دفعها لخوض هذه الرحلة الخطرة، هو إنقاذ نفسها أولًا، بإيجاد طريقة لإبطال لعنة الساحرة.

لم يبقَ باب إلا وطرقته لأجل الجدة، قدمت نفسها كمتبرعة، لولا تحاليلها التي لا تتوافق مع أنسجة الجدة وزمرة دمها التي أنهت هذا الاحتمال، عرضت المال لإيجاد متبرع، وفشلت كل محاولاتها.

عندما قررت البحث عن زرزورة، كانت تُدرك أنها خرجت في مهمة عصية؛ العثور على الجد ليس بهذه السهولة، وإقناعه بالعودة كإقناع شجرة بمغادرة أرضها.

- أنتِ أنانية يا «سراب».. ومستهترة.. تمامًا كما قال «مشتاق».

همست لنفسها معاتبة، وكانت تُجيد فنون المعاتبة. أجابتها نفسها مغالبة ومكابرة: «ما المشكلة في أن أنقذني من مصير أسود يُكبل مستقبلي وأحلامي؟».

- الجدة كانت أولى بتلك الأيام التي تقضينها بعيدة عنها في ملاحقة هدف كالسراب.

قالت نفسها محتدة: «سأثبت خطأك.. وسأحقق الهدفين معًا».

إلى الآن لم تستطع نسيان المشهد الرهيب الذي نكَّل فيه الممسوس بـ «عبد البَر»، كلما تذكرت تجاهُل أهل الواحة لما تعرض له الرجل المسكين شعرت بالاختناق والسخط.

طافت بها الأفكار على الواحة وحالها، ثم توقف بها الترحال عند «سلَّام» و«صدف» وعرسهما القريب المشترك، الأولى ستتزوج برجلٍ لا يريدها، والثانية ستتزوج برجلٍ لا تريده، كأنهما وجهان متضادان لعملة واحدة. تقف «سراب» كالمتفرجة، شاهدة على عذاب الفتاتين، لإحداهما عذاب معجل، وللأخرى ألم مخبأ في جيب الغيب، لشد ما أغاظها العجز وألهَب غضبها.

مرَّ بخاطرها «مطر» وكوخه المعزول، أرقها حاله، والظلم الواقع عليه، هرب منها النوم واستيقظ الأرق. نفضت رأسها تقول لنفسها: «ركزي على الهدف».

أتاها صوت من خلفها: «إلى مَن تتحدثين يا «سراب»؟».

جفلت إذ رأت «سلَّام» عند باب الغرفة الصغيرة التي منحوها لها، تحمل مشعلًا تخرج منه النار، لترسم الظلال خيالات مخيفة على الجدران.

وقفت الفتاتان متجاورتَين أمام النافذة، تزرعان الصمت والنظرات في الشارع الساكن، ظلت أرضه بورًا من غير طرح، إلى أن تساقطت أولى الثمرات.

- لماذا ذهبتِ اليوم إلى الهاوية؟

دُهشت «سراب» من بلوغ الأمر إلى مسمعها، فقالت «سلَّام» ببساطة موضحة: «نعيش في واحة صغيرة».

أطرقت «سراب» قليلًا، ثم قالت باضطراب: «غلبني الفضول لرؤيتها».

- فقط؟

- لماذا تسألين؟

- لأنه بلغني أيضًا أن أخاكِ يسير في السوق بحثًا عن رجل اسمه «أبو العيون».

تبًّا لـ «مشتاق»! أطلقت «سراب» سُبة في نفسها، ودت لو كان حاضرًا أمامها، فتسدد بنبلتها حصاة إلى منتصف جبهته. كانت قد أخبرته أن يتريث فردَّ باندفاع: «أنتِ تحتاطين أكثر من اللازم».

ها هو يفعل ما برأسه، ويسأل عن الجد صراحة.

ما كان عليه أن يُلقي السؤال بهذا الوضوح الفج، مخافة أن يكون الجد أحد المنبوذين، أو الخارجين عن قانون الواحة، فيتلقيان معاملة مختلفة عن الحفاوة التي تلفهما الآن، أو يُطردان قبل أن تُحقق مرامها.

كانت تثق بقلبها كثيرًا، قدَّرت أن بإمكانها التعرف على الجد من نظرة واحدة، حسبَت أنها ستعرفه بقلبها، كانت تسير في السوق مع «سلَّام» تبحث عنه في وجوه المسنين، وجه ترى فيه أمها، وخالها، و«مشتاق»، وربما لمحة صغيرة من جدتها، سترى فيه «سراب» القديمة قبل أن يعبث الأطباء بوجهها.

كم أنتِ ساذجة يا «سراب»!

- من يكون «أبو العيون»؟

بسؤال «سلَّام» احتارت بمَ تجيبها؟ لا تريد المخاطرة، وفي الوقت نفسه تحتاج إلى سبيل عاجل لبلوغ الهدفين قبل نفاد الماء الذي تحمله.

لم تعتد اقتسام همومها مع أحد، لا تعرف الاتكاء أو طلب المساعدة، وإلا لباحت لـ «سلَّام» بكل شيء من اللحظة الأولى، كما أنها بالكاد تعرفها، كيف تثق بفتاة عرفتها ليومين فحسب؟

- رجل نعرفه.. سمعنا أنه ضل الطريق في الصحراء منذ زمن بعيد.

- هكذا قال أخوكِ أيضًا.. «أبو العيون»!.. لم أسمع به من قبل.. لربما مات منذ زمن.. أو بدَّل اسمه.

- بدَّل اسمه!

- بعض التائهين يختارون لأنفسهم أسماءً جديدة.

لم تعد العدة لهذه المشكلة!

جاءت تبحث عن جدها الذي لم تلتقِه من قبل ولا تعرف غير اسمه، الآن ثمة احتمالية لكونه قد استبدل بهذا الاسم آخر، هذا إذا كان لا يزال على قيد الحياة.

لا تعرف إن فعل هذا لحظة دخوله الواحة وتقديم نفسه إلى أهلها، أم بعد مكوثه بينهم لفترة، فيكون هناك من لا يزال يتذكر اسمه القديم.

ماذا عليها أن تفعل الآن؟ هل تستوقف رجال الواحة المسنين وسط السوق، وتسألهم واحدًا تلو الآخر: هل أنتَ جدي «أبو العيون»؟ أم تذهب إلى ساحة المرح في أثناء تجمع الرجال وتُلقي سؤالها عليهم جميعًا في وقتٍ واحد؟

كِلا الحلين مجازفة خطرة للغاية، ستكشف صلة قرابتها برجل لا تعرف مكانته في الواحة، ولا قدره في نفوس أهلها.

لا تملك حلًّا آخر غير طلب المساعدة، إن أرادت التمسك بآخر خيط واهن تتعلق به أنفاس الجدة، حتى وإن تسبب ذلك في طردها من الواحة قبل مقابلة الساحرة.

ستختار المجازفة.. لأجلها، لأجل الجدة.

- «سلَّام».. أريد أن أخبركِ أمرًا مهمًّا.. عديني أن يبقى سرًّا بيننا.

وقفت «سلَّام» مشدوهة بما سمعته عن الجدة المريضة، والجد الذي قرر البحث -وحده- عن واحتهم المخفية وسط الصحراء الغربية، اكتفت «سراب» بالبوح بهذا الجزء من القصة، وأخفت كل ما عداه من تفاصيل.

قالت «سلَّام» مؤكدة: «عرفتُ من اللحظة الأولى أنكِ جئتِ إلى هنا متعمدة.. لم تبدي قط كالتائهين».

- كيف؟

أشارت «سلَّام» بهدوء إلى حقيبة الظهر القابعة فوق الطاولة، تردف: «أتيتِ بمائك الخاص.. لم تشربي من مائنا قطرة واحدة».

قالت «سراب» في نبرة مدافعة: «لأنكم تشربون من البئر المسحورة.. الشارب منها لا يخرج من الواحة إلا بلعنة تُصاحبه».

هزت «سلَّام» كتفيها تقول: «هكذا نحفظ واحتنا من مطامع الأغراب.. تخيلي إن كان الدخول والخروج سهلًا مُيسرًا.. لتعرضنا للغزو أو النهب أو التشريد.. هكذا نحفظ واحتنا من التهديد.

لم تتفق «سراب» مع نهجها في التفكير، ولم تشأ كذلك أن تعكر صفو الوِداد بينهما.

- أنتِ لا تفهمين شعور أن تكوني غريبة يا «سلَّام».. لا أعرف بمن عليَّ أن أثق.. وممن يجب أن أخاف.

- أفهمكِ جيدًا.. اتركي لي هذه المسألة.. ثمة امرأة مُعمِّرة أعرفها.. يزيد عمرها على المائة.. تعرف كل إنسان وُلد في الواحة أو مر بها.. ستزور دارنا في الغد لتهنئتي.. ستُحبينها كثيرًا.. كل الواحة تحبها.. الجدة «أم الرمال».

***

زحفت الشمس متباطئة صوب الإصباح، فخرج «مشتاق» من دار «عبد البَر» لتكرار البحث عن ذات الضفائر الذهبية. لم يترك حارة إلا ودخلها، ولا ساحة إلا ومكث فيها ساعة واثنتين، لم ينجح في تتبع أثرها، كأنها حبة ندى نبتت فوق زهرة في الصباح، ثم بخَّرتها شمس الظهيرة الحارقة.

كلما مر بدكان سأل صاحبه إن كان يعرف رجلًا اسمه «أبو العيون» ثم تلكأ في الوقوف، يُمرر عينيه على كل امرأة تمر، وكل فتاة تلوح له من مبعَدة.

لم يعثر لذات الضفائر الذهبية على أثر، حتى تكالَب عليه الغم والتعب، عاد إلى الحقل الذي التقاها فيه أول مرة، يخرِج من الحقيبة دفتره، ويعيد رسم عينها، هذه المرة بنظرة قوية ماكرة، كتلك التي حدجته بها وهي تفارقه في المرة الماضية.

- أما زلتَ هنا أيها الغريب؟

تلفت حوله مشدوهًا، ومن بئر عينيها غرف وارتشف، لم يدرك أنه كان ظمآن إلى هذا الحد.

قال متلهفًا، وباللوعة متلحفًا: «بحثتُ عنكِ كثيرًا.. ظننتكِ جنِّية الصحراء التي لا تظهر إلا مرة واحدة».

تأملت قوله ضاحكة، ترميه بنظرة مُحطِّمة، لثباته الذي قد انهزم. لمسته السعادة بكفوفها، مسحت عن جبينه التعب. ود لو يمكث في هذا الحقل إلى الأبد، برفقة ذات الضفائر الذهبية، وأعينها الناعسة العسلية.

- دومًا ألتقيكِ هنا.. ماذا تفعلين في هذا الحقل؟

أشَّرت صوب بيت من طابقين ثم قالت متفكهة: «هذا البيت لنا».

لما لمعت عينه بنظرة ماكرة، قالت بحزم وقد رفعت حاجبًا: «لن تجرؤ على طرق بابنا».

استأنس بوجوده جوارها، تقطف التفاح عن الشجر، وتجمعه في سلالها. أخذ واحدة وقضمها، كانت أشهى من العسل، كأن عسل عينها على التفاح قد انسكَب.

لم يصرف عينيه عنها ولا ثانية، بدَت له امرأة كالمشجب، تصلح لأن يعلق عليها أحلامه.

عاونها إلى أن أنهت مهامها، ثم التفت يقول من فوره: «ألا تعطون الأجير أجره؟».

قالت متحدية: «فعلتَ هذا طواعية».

حملت إحدى سلالها ثم التفتت له محذرة: «ستأتي أخواتي لحمل السلال الباقية».

- كم أختًا لكِ؟

- سبع وبي ثمان.

- وماذا سيحدث إن رأينني أتحدث معكِ؟

- سيُقطع رأسك ويُعلَّق في السارية.

ضحك ملء فؤاده، وكان لم يألَف كثيرًا هذا النوع من الضحك، الذي تتشارك فيه الجوارح كلها.

السماء تبتسم له، والشمس الساطعة، والزهور المائلة، حتى ثمار التفاح وسط السلة، بدَت سعيدة هانئة.

دارت على عقبيها تفارقه، فأوقفها بلهفة مناديًا: «وعدتِني أن تخبريني باسمك.. ها نحن قد التقينا ثانية».

أنزلت السلة قليلًا عن رأسها، ثم ألقت نظرة على السماء فوقها، ثم أسقطت عينيها فوق وجهه، تفصح بدلال قائلة: «فَلَك».

شعر أنها كاسمها مدار كامل في السماء، تدور فيه كواكب وشموس وأقمار، ونجوم لا حصر لها.

- أنا «مشتاق».

رفعت حاجبها محذرة فابتسم لها موضحًا: «اسمي.. اسمي «مشتاق»».

مررت الاسم فوق شفتيها، بخفوت لم يسمعه، بدا وقد نال استحسانها، شيعته بنظرة واعدة، صدَّقها وانتظر ثبوتها.

***

(2)

لم تخرج «صدف» من غرفتها إلا لتُطعم أبيها في غرفته، تُمرِّضه، وتُقطِّر له الدواء في فمه.

النساء مجتمعات في الدار وساحته، ينشدن أغاني الحناء في بهجة معاكسة لما يدور داخل الغرفة الصغيرة.

أطلق أبوها سعالًا عاليًا، أمسك صدره يحبس الروح في مكانها، لا يريدها أن تخرج الآن، ليس قبل أن يطمئن على ابنة قلبه.

يدرك أنها عازفة عن الزواج بـ «كسَّار»، لكونه أحد رجال الممسوس، رغم ما قدمه لها من هدايا لم يُرَ في الواحة مثل جمالها.

لو به وفرة في الصحة، أو قوة لا يُستهان بها، لوقف أمام «كسَّار» يمنعه، من أخذ ابنته التي تبغضه. تساقطت العبرات تحرق وجنته، العجز يشق روحه والمهانة، كأن قدمًا كبيرة حطت فوقه، تسحق لحمه وعظامه.

دخلت «صدف» تعدل من جلسته، تمسح عبراته بطرف وشاحها، تريح رأسه فوق الوسادة، كأنه طفل حديث الولادة، سلبته الحياة كل ما كان يملكه من قوة وإرادة.

شاركته بكاءً صامتًا؛ عجزًا، وقهرًا، واستسلامًا. نادت إحدى النساء من الخارج بابتهاج: «جاءت الجدة «أم الرمال»».

محناة الشعر، كحيلة العينين، مجعدة الجلد، بطيئة الحركة، مرت الجدة على المطبخ أولًا، أسقطت بطرف عصاها أواني غير نظيفة كانت متراكمة فوق بعضها، أمرت النساء بغسلها، ثم إعادة ترتيب المجلس كي يسع عددًا أكبر. مررت كفها فوق الجدران، وتحت الوسائد الأرضية، ثم هشَّت البنات الصغيرات بعصاها وأمرتهن بالتنظيف في الحال، تذوقت الطعام ثم أمرَت بزيادة التوابل.

جمعت باقي الخبز والأرز ثم أمرت بوضع طبق على ناصية كل حارة، لأجل الحيوانات الشاردة.

وما إن أنهَت الجدة تعليماتها، سارعت «صدف» باستقبالها في غرفتها، رحبت بها وقدمت لها طبقًا ممتلئًا بالأرز، والخبز، وكثير من المرَق دون اللحم، إذ لم تعد تملك الجدة أسنانًا لطحنها.

جلست الجدة فوق الفراش بجسدها المتغضن، قصير القامة، في وجه بيضاوي تشي تقاطيعه الصغيرة، أنها كانت تملك في شبابها جمالًا نضرًا باهرًا.

إحدى عينيها تغشاها غمامة بيضاء، فقدت الرؤية عبرها قبل سنوات طويلة، أما الأخرى فترى بالكاد، قرَّبت الطبق من وجهها كثيرًا كي تتمكن من رؤية ما يحويه، ثم تشممته قبل تناوله.

ما إن أنهَت طبقها حتى حمدت ربها ثم وضعته جانبًا، أمسكت عصاها تدقها في الأرض، ومثل حمامة تنظر بجانب وجهها، قربت عينها السليمة من وجه «صدف» التي لم تحرك ساكنًا. قالت الجدة «أم الرمال» بنبرة مستهجنة: «لماذا تبكين يا بنيتي؟».

صوتها المشروخ الذي تألفه «صدف» مسح بأيادي الحنان على قلبها، تحب الجدة مذ كانت طفلة صغيرة تتعلم الكلام، أول اسم نطقت به حين نطقت، كان اسم الجدة «أم الرمال» حتى وإن كان بحروف متقطعة، ومخارج شائهة.

الجدة «أم الرمال» أم حقيقية للواحة بأسرها. لم تخفِ «صدف» حزنها، قالت وقد أطرقت دامعة: «لا أريد ترك أبي يا جدة».

بصوتها المشروخ المرتعش قالت الجدة مؤكدة، وقد كانت امرأة فطنة مراعية: «لماذا لا تقولين صراحة إنكِ لا ترغبين في الزواج بـ «كسَّار»؟».

تأملتها «صدف» لثانية، ثم أطرقت مغالبة البكاء، تقول باستجداء: «أرجوكِ لا تخبري أحدًا بذلك يا جدة».

- إذا كنتِ لا تريدين «كسَّار» قولي «لا» يا بنتي.
- لا أستطيع يا جدة.
- وما يعجزكِ؟
- تعرفين يا جدة.. ليس من السهل على فتاة مثلي أن تكون ابنة الساحرة.. تعرفين أي نوع من النساء هي.. امرأة تترك ابنتها خلفها دون أن تأبه لأمرها.. تشتغل في السحر.. وتُسخِّر جن الجبل الأسود

لخدمتها.. والممسوس ورجاله لحمايتها.. لا أحد يملك قوتها.. لا أحد يستطيع مواجهتها.. أبي رجل أعجزه المرض.. وأنا كما ترين.. لا حول لي ولا قوة.

أنهت كلماتها وهي تبسط كفَّيها الفارغتين إشارة إلى قلة حيلتها، وفراغ جعبتها. سكتت الجدة «أم الرمال» سكتة طويلة، ثم قالت وهي تطرق بعصاها فوق الأرض: «لو أردتِ قول «لا» سأقف خلفكِ.. تعرفين أنني امرأة تفي بوعودها».

لم تستطع «صدف» إحراج الجدة، أن تخبرها أنها هي أيضًا امرأة لا حول لها ولا قوة، بماذا تستطيع الجدة ذات الأعوام المائة أن تجابه الساحرة والممسوس وأتباعهما من الإنس والجان؟ هذا فضلًا عن «كسار» نفسه، الذي اعتاد أن يأمُر فيُطاع، كيف تقف أمامه وترفضه؟ لا تملك القوة الكافية لتفعل.

مسحت عبراتها ثم اغتصبت ابتسامة لا تملكها، تقول: «لا عليكِ يا جدة.. أنا عروس.. وكما تعلمين مشاعر العروس تكون مرهفة كثيرًا قبل زفافها.. حتى إنها تكثر البكاء دون سبب».

قبل أن ترحل الجدة عن الدار، زارت المريض في غرفته، ودعت له بالصحة والعافية، ثم ربتت فوق كف «صدف»، تقول بنبرة العارِف: «معارك الحياة مقسمة على الخلق يا بنيتي.. لكل معركة فارسها.. وفارس المعركة صاحبها.. لا يُمكن لأحدنا أن يخوض معارك غيره.. لكن ثقي أنكِ ستجدينني يدًا في جسدك متى أردتِ، حتى وإن كنتُ يدًا لا تملك إلا أن ترشق الحجارة أو تنثر الرمال في الأعين وتغمر بها الأفواه.. لا تنسي هذا أبدًا».

رمت «صدف» الجدة بنظرة طويلة ممتنة، تقول أكثر مما يستطيعه لسانها.

مضت الجدة في طريقها، ومن خلفها تقف «صدف» متكئة إلى الجدار، تفكر بحسرة، كيف لامرأة غير مرئية أن تقود معركة؟

***

قررت «سراب» أن تبادر إلى الخيط الأقرب إلى يديها، تتشبث بطرفه جيدًا.

لم يغب عن خاطرها للحظة ما قالته «سلَّام» عن «مطر» ومحاولته لقتل الساحرة. لا تملك مهارات فروسية تُمكنها من القفز حيث الجبل الأسود، حتى

إنها لا تعرف ركوب الخيل. لم تعد بحاجة إلى حصان جامح، «مطر» هو الجسر الذي سيوصلها إلى الطرف الآخر من الهاوية.

ما إن تثاءبَت الشمس مستيقظة، منادية في الخلائق كي ينزعوا عنهم أردية النوم، حتى خرجت من الدار، تسير في الطرق التي باتت إلى حد ما تحفظها، تتوجه من فورها صوب الكوخ المعزول، حيث يعيش الأحدب المنبوذ.

لم تجده لا في الكوخ ولا خارجه، قدَّرت أنه توجه إلى السوق للبحث عما يسد به جوعه، لا بُد أنه سيعود ما إن يقضي حاجته، انتظرته عازمة على استنطاقه.

تأملت محتويات الكوخ ثانية، بتروٍّ كبير هذه المرة: نظيف، ومنظم، كما رأته أول مرة، كل شيء في مكانه، هذا الرجل مولع بالترتيب، كثير التدقيق.

اشتمت مرة أخرى الرائحة التي استقبلتها ما إن استعادت وعيها في ليلتها الأولى بالواحة، لا هي بالزهور، ولا هي بالفاكهة، لكنها جميلة، غنية، مُلهمة.

فتشت بعينيها عن مصدر الرائحة، قلَّبت الأواني، ومسحت الأركان، لم تجد ما قد يبدو لها مبعثًا لتلك الرائحة المميزة.

صاحت بغتة، إذ رأت الأحدب يسد باب الكوخ وهو يتطلع إليها ذاهلًا، أدركت عندئذ أنه هو نفسه مصدر الرائحة.

- أفزعتني.

قالت بحدة معاتبة، تلجلج قلبها، وتدهور نفَسها، انتظرت إلى أن استعادت رباطة الجأش، ثم قالت موضحة: «لم أجدكَ.. انتظرتكَ».

اضطرب وبلغ توتره مبلغًا عظيمًا، كما كان حاله في ليلتهما الأولى، الآن أدركت أنه كان يخشى أن ترصدها إحدى عيون الممسوس تتحدث إليه داخل كوخه، فيُعاقبان معًا، كما حدث لـ «عبد البر».

أشار لها صوب الخارج بيد مرتعدة، وأنفاس لاهثة، وقفت في منتصف الكوخ غير عازمة على المغادرة، تقول في حدة مبررة: «سؤال واحد.. تجيبني عليه.. ثم أنصرف.. لن أرحل قبلها».

أشَّر مرة أخرى صوب الخارج، هذه المرة بطريقة حادة حازمة. عقدت ذراعيها أمام صدرها وبعناد وقفت قائلة: «لن أرحل حتى أحصل على إجابة سؤالي».

زفر بقوة خائفًا، خرج يُلقي نظرة مطولة على المساحات الواسعة حول الكوخ من الجهات الأربع، ثم دخل يقف مرة أخرى أمامها. سألته بطريقة مباشرة: «أعرف أنك معاقَب لمحاولة قتل الساحرة.. أريد أن أعرف.. كيف بلغتَ الطرف الآخر من الهاوية؟».

ألقى صوبها نظرة دهشة، فسارعت تقول: «سؤال غريب أعرف.. لكن أحتاج إلى معرفة الجواب بطريقة عاجلة.. لا أملك حصانًا.. حتى إن حصلت على واحدٍ أنا لم أركب الخيل من قبل.. لذلك أحتاج إلى بديل لبلوغ الجبل الأسود».

قرأت فوق قسماته رفضًا قاطعًا لمنحها إجابة شافية.

أدخلت العناد في غمده، ثم استدعت نبرة مستجدية: «أنا بحاجة ماسة إلى الوصول إلى الساحرة.. لن أقتلها.. أنا لا أستطيع أن أوذي نملة صغيرة.. أنا فقط أريد الحديث معها.. أريد مساومتها».

نظر إليها متسائلًا بأمارات قلقة حائرة. أردفَت: «لا أحد سواكَ يستطيع مساعدتي.. كل ما أريده أن أعرف كيف بلغتَ الجانب الآخر من الهاوية؟.. أي طريق سلكتَ.. أي وسيلة اتبعتَ؟».

تجاهد في انتزاع الكلمات من فمه، كمن يستخرج الماء من قاع بئر مظلمة، كانت البئر جافة فيما يبدو؛ لم تُفلت شفتاه المُكتنزتان قطرة واحدة.

خوفًا عليها أم منها، ليست أكيدة كفاية لتُجزم بسبب امتناعه عن مساعدتها.

من مدخل الكوخ، تُحدق شمس الواحة إلى وجهها، يشتعل فضولها، لم يسبق لها أن شاهدت زائرة في كوخ الأحدب، كان حدثًا جليًّا مدويًا، دفعها لأن تحدق إلى وجه «سراب» المألوف، في محاولة لأن تتذكر، أين رأته من قبل يا تُرى؟

ساحت الوجوه أمام أعينها، لم تتمكن الشمس من التذكر، فطافَت تسأل السحب في مداراتها.

كانت «سراب» تستعد لإخراج العناد من غمده، مشهرة إياه وملوحة. حليمًا كان «مطر»، استقبل سهام إصرارها بدرع الصمت، حتى أُنهِكَت قوتها، وكُسرَت إرادتها، وفرغَت جعبتها من المحاولات.

- لماذا ترفض مساعدتي؟

ألقت سؤالها الأخير واجمة، بمزاج مكدَّر، وحال يائس.

لم يجِب عن أي من أسئلتها، كأن الصمت مدَّ يده في جوفه، فاختنقت الكلمات في صدره إلى الأبد.

تحرك داخل الكوخ يجلب لها كل الطعام الذي يملكه؛ عنقود من العنب، ثلاث حبات من البلح، وقطعة من الجبن، وقليل من اللبن الرائب، ثم وضعهم فوق الطاولة.

انتظر أن تأكل كالمرة السابقة، أن تبتسم، أن تنظر إليه في رضا. غادرت الكوخ بغضبٍ بادٍ على مُحياها، دون كلمة واحدة، وقف يتأمل خطواتها، يسكب فوق ظهرها نظرات حزينة، متكسرة.

لم تلتفت مودعة كالمرة السابقة، انتظر أن تلتفت.. انتظر طويلًا.

***

(3)

قطَّرت «سلَّام» في فمها الخليط الذي أعطاها إياه مطبب الواحة، بعد حادثة الإغماء الأخيرة.

مقويات معاونة لقلبها على أداء مهامه الاعتيادية، امرأة مهترئة هي، يحاول الجميع ترقيعها، كي تبدو بصورة كاملة.

لكنها تدرك أن الصورة زائفة، والخلل ظاهر، وأن الحياة لن تكون متساهلة معها كما هي مع الأخريات؛ لن تستطيع أبدًا أن تُشارك «جمعان» في مسابقة الركض الزوجية، لن تستطيع ركوب أي حصان يبقيه «أبو الأحناش» في إسطبله، لن تستطيع صعود السلم مرتين خلال ساعة واحدة، لن تستطيع رفع ما يثقل حمله، وإن رزقها الله من «جمعان» ببذرة تنمو في رحمها، ستقضي تسعة أشهر طريحة الفراش، لا تحرك ساكنًا.

لكنها راضية بما قُسم لها، على الأقل لن تضطر إلى الانشغال بالأعباء المنزلية التي تتذمر منها الفتيات، فكرت في هذا مبتسمة.

سمعت النساء يحتفين بوصول الجدة «أم الرمال»؛ هبَّت «سلَّام» تأخذ الجدة في أحضانها، تُقبل رأسها وكفيها، وتقودها خطوة بخطوة إلى المطبخ، تفعل فيه كما فعلت في دار «صدف» تعطي تعليماتها، تأمر وتستجيب النساء في احترام وتبجيل.

ثم ترافقها إلى غرفتها، مع صحن به ثمرة من فاكهة القشدة، التي تحبها الجدة، فصصته «سلَّام» بيديها فصًّا فصًّا. تُدني من عينها السليمة ما تبقى من فساتين لم ترتدِها بعد، تسألها أيهم أكثر جمالًا؟ تجيب الجدة: «القالب جميل، وما بداخله أجمل يا بنتي.. اجلسي جواري يا «سلَّام»».

تجلس «سلَّام» بين يدي المرأة، التي تُملي عليها النصائح، وتُشاركها الخبرات، عن الحياة والزواج.

تقول بصوتها الذي عزف عليه الزمن حتى شبع: «ما من شيء خلقه الله إلا ويمر بجبال قوة ووديان ضعف.. الثمرة الخضراء تظل عفية حتى تستوي

وتنضج وما إن تبلغ أعلى درجات النضج حتى تنكمش وتذبل.. لكن أتعرفين يا بنتي؟.. حتى الثمرة في عز عافيتها تظل ضعيفة أمام أيادي الطبيعة.. من ريح.. وعواصف.. وبرد.. ونار.. وسيول.. نحن في الحقيقة لا نكون أقوياء بأنفسنا.. نحن نستقوى بالغصون التي تربطنا بشجرة الحياة.. لئلا نذهب هباءً وتذرونا الرياح.. تخيَّري الغصون التي تتشبثين بها في مواجهة الطبيعة من حولك يا بنتي».

تفكرت «سلَّام» في حديث الجدة «أم الرمال»، حباها الله بالكثير من الغصون لتتشبث بها؛ من نسَب أصيل، وأب كريم، وأعمام يصلون الأرحام، ونساء حنونات، وناصح أمين كالجدة «أم الرمال»، عليها أن تفكر فيما تملك، لا أن تضيع عمرها حسرات على ما تفقد.

- يا جدة أريد أن أسألكِ عن رجل اسمه «أبو العيون»، هل تعرفين إن مرَّ بواحتنا من قريب أو بعيد؟

توقفت الجدة عن أكل فصوص القشدة الطرية، ساحت نظراتها في المكان، فوق السقف والجدران، أناملها ترتعد والعصا تفلت بسقطة مدوية. أعادت «سلَّام» العصا إلى قبضة الجدة، وقد أدهشها التغير الذي قرأته فوق قسماتها، تمتمت الجدة بصوت كثير الخفوت، مسموع بالكاد: «لا أحد بواحتنا يحمل هذا الاسم».

ثم رفعت رأسها تسألها بحزم مُستريب: «من أين أتيتِ بهذا الاسم؟».

أجابتها «سلَّام» باضطراب، ملتزمة بوعدها لـ «سراب» بإبقاء حديثهما طي الكتمان: «ربما سمعته عرضًا في السوق أو في مكان آخر.. لم أعرف أحدًا بهذا الاسم لذلك تعجبتُ.. وتذكرتُ الآن أن أسألكِ عنه».

- لا تذكري هذا الاسم ثانية.

قالتها الجدة بنبرة جادة محذرة، وكانت «سلَّام» خير من تعرف أن محاذير الجدة تكون خطيرة حازمة، أومأت برأسها في طاعة واستسلام، والريبة تخمش صدرها: «الأمر أمركِ يا جدة».

طرقت «سراب» الباب على استحياء، لما علمت بوصول الجدة إلى الدار، استقبلتها «سلَّام» بالترحاب، قربتها تقول بابتهاج: «هذه «سراب» التي حدثتك عنها يا جدة».

وقفت الجدة تدني عينها السليمة من وجهها، تتأمل قسماتها بروية، من ذقنها إلى مبتدأ شعرها، انتفض جسد الجدة برعدة قوية أسقطت من قبضتها العصا ثانية، هذه المرة بدا وكأن زلزالًا قد وقع داخل الجدة، هزَّ جسدها، وخلخل ثباتها. صاحت الجدة بلوعة رافعة كفيها أمامها: «ابتعدي عني.. ابتعدي عنا».

اضطربت «سراب» وقلبها يثب بوتيرة متصاعدة، دفعت بالدماء لأن تحتقن في عروقها، تُردف الجدة بفزع غير معهود: «كيف ما زلتِ هنا؟ شيطان أنتِ أم ساحرة؟».

أمسكت الجدة بعصاها، تشيح في وجه «سلَّام» ناهِرة: ««أبو العيون»!.. عرفتِ هذا الاسم منها، أليس كذلك؟».

رنَت «سلَّام» إلى «سراب» تهز بقوة رأسها، كي تفهم أنها لم تكُن للسر الذي ائتمنتها عليه بخائنة. دفعت الجدة مؤخرة عصاها في صدر «سراب»، بقوة آلمتها وقهقرتها للخلف خطوات، تقول بنبرة رهيبة متجبرة: «اذهبي من هنا قبل أن يراكِ الممسوس».

ثم أردفت بصوت رهيب كبصقة في وجهها: «أيقظتِ النار النائمة في الواحة مرة، لن أسمح لكِ بإيقاظها ثانية!».

***

لمَ على كل شيء أن يكون عصيًّا إلى هذا الحد؟ لماذا لا تكون الحياة سهلة، والأهداف طيعة، والأحلام في متناول اليد؟

منذ زمن طويل، لم تشعر «سراب» بهذا الخوف الرهيب، الذي يُزلزل أطرافها، ويعتصر أحشاءها. تملك رباطة جأش متينة عند اللزوم، إلا أن صوت الجدة وحديثها، الغلظة، والقسوة والنفور، دفعوا بها صوب عالم أسود جهول.

الظلام يلفها من كل حدب وصوب، والضوء الوحيد الذي يشتعل في مركزه، يرسم خيالات مخيفة، كتلك التي ترسمها النار على الجدران.

سوء تفاهم عجيب، ومصادفة أغرب من الخيال.

تشابه كبير بين المرأة التي تتحدث عنها الجدة «أم الرمال»، ووجه «سراب» الجديد، الذي لطالما نقمَت عليه، لاختلافه عن وجهها الحقيقي.

كرهت دومًا أن تكون سرابين، «سراب» التي يراها الجميع، و«سراب» المختبئة في القلادة، التي لا يعرف شكلها أحدٌ سواها وأهلها المقربين.

الآن صار هذا الوجه الجديد هو تذكرة مجانية للحصول على أهدافها معًا.

قالت الجدة بوهن بعد أن تبين خطؤها، إذ أوضحت لها «سراب» بلُطف شديد، أنها لم تأتِ إلى الواحة قبلًا: «أعتذر يا بنتي.. ظننتكِ امرأة أخرى.. تقولين إن اسمك «سراب»؟ اسم غريب».

ثم تساءلت وما زال قليل من الشك يساورها: «من أين تعرفين اسم «أبو العيون» إذن؟».

أجابتها «سراب» في الحال: «لا أحد ينسى التائهين في الصحراء.. تظل حكاياتهم وأسماؤهم تتناقل على ألسنة أهالي الواحات وكل دليل يعمل بها.. و«أبو العيون» هو إحدى هذه القصص الني لا تبلى بالتقادم.. لأنه اختفى إلى الأبد.. ولم يره أحد ثانية.. شعرتُ بالفضول.. فسألتُ «سلَّام».. لم أعرف قط أنني سأتسبب في مشكلة».

استعادت الجدة هدوءها، وإن كانت لا تزال آثار رعشة خفيفة تلازم صوتها: «الخطأ ليس خطأكِ يا بنتي.. لقد كبرتُ وضعفَت في عيني الرؤية.. تشبهينها كثيرًا.. تلك المرأة التي لا أحب ذِكرها.. وصوتك قريب منها، أو لعله ليس كذلك، لم أعد أتذكر تلك التفاصيل كما ينبغي، ولا عادت أذني تستقبل الأصوات بكفاءتها القديمة».

تساءلت «سراب» بلهفة: «لماذا أفزعتكِ رؤيتها.. أعني رؤيتي وقد ظننتِني هي.. هل هذه المرأة...؟».

قاطعتها الجدة مجيبة عن سؤال لم يكتمل: «ميتة منذ ثلاث سنوات.. وعظامها ملقاة في البئر المهجورة، يراها كل من يمر في طريق المدافن، إنها ميتة كما ترين، لا يمكنكِ أن تكوني هي، لقد خانني التفكير لوهلة».

ثم أضافت بحزم لا يلين: «انتهى الحديث عنها.. هنا.. والآن.. إلى الأبد».

لم تضف الجدة المزيد، بوهن غادرت الدار تستند إلى عصاها، وكتف إحدى النساء، رافضة بشكل قاطع التحدث بكلمة إضافية عن المرأة التي لا تحب ذِكرها، أو «أبو العيون» نفسه. وعندما سألت «سلَّام» بفضول شديد عن تلك المرأة وسبب كره الجدة لها، لم تخبرها سوى بـ: «قالت لي الجدة أمامكِ ألا أتحدث في هذا الموضوع.. أعتذر منكِ يا «سراب».. أوامر الجدة سيف على أعناقنا».

ثم أضافت لما رأت الانزعاج على وجهها: «ما دامت الجدة ترى أن الكلام عنها لا يفيد.. ثقي في حُكمها إذن.. أنا لا أعرف وجه المرأة.. لم أره قط.. لذلك لا لم أرَ الشبه بينكما.. لكني سمعت عنها الكثير.. ثقي عندما أقول لكِ إنها امرأة لا أحد في الواحة يحب الحديث عنها.. نخشاها كثيرًا.. كثيرًا يا «سراب».. حتى وإن كنا نعرف أنها ميتة».

ثم أضافت بلوم ممزوج بالحزن: «من الأفضل ألا تعرفي عنا الكثير، سترحلين بعد أيام على أي حال».

***

في غرفتها، وقفت «سراب» أمام إناء عاكس، تتأمل تفاصيل الوجه الذي تحمله، الوجه الذي يتشابه إلى حد بعيد مع وجه امرأة عاشت بالواحة.

امرأة تملك قوة تخشاها الجدة، امرأة تعرف جدها «أبو العيون»، بشكل ما هما مرتبطان معًا في ذهن الجدة.

أما الأمر الآخر الذي استحوذ على اهتمامها، أن تلك المرأة أيضًا على صلة قوية بالممسوس، وإلا لما خافت الجدة أن يراها.

لم تحسَب قط أنها ستكون قادرة على ضرب عصفورين بحجر واحد، وتحقق الهدفين بخطة واحدة.

لم تعد مضطرة إلى البحث عن الجد، أو الساحرة التي تعيش تحت جناحَي الممسوس، سيأتي الجد والممسوس إليها طواعية، يحسبانها المرأة التي تحمل وجهها، التي تستطيع إشعال النار في الواحة، من شرقها إلى غربها.

أمسكت بالقلادة تقبض عليها بقوة، عليها أن تُبقي وجهها الحقيقي مخفيًّا، سرًّا لا يعرفه أحد، وتستخدم الوجه الجديد كسراب يحسبه الآخرون وجهًا حقيقيًّا. صار وجهها الجديد هو مربَط الفرَس!

من الغد، عليها أن تجعل نفسها مرئية لرجال الممسوس، سيسارعون بإخباره عنها.

لن تحاول عبور الطرف الآخر من الهاوية.. تغيرت الخطة، ستطوي الأرض، ليأتي الطرف الآخر إلى قدميها طواعية!

فهمت الآن السبب الذي دفع «مطر» لأن ينظر إلى وجهها بألفة متناهية، وكذلك أدركت السبب الذي دفع بـ «رمَّاح» لأن يسألها: هل التقينا من قبل؟

باتت الآن قادرة على تجميع الخيوط المتنافرة، معًا في حزمة واحدة؛ ثمة امرأة غريبة أتت إلى الواحة.. رآها «رمَّاح» في أثناء دخولها، ولربما كان دليلها الذي أوصلها بنفسه إلى منطقة الجلف الكبير، ولسبب ما، لم يستطع نسيانها.

هذه المرأة على صلة بجدها، وبالممسوس، والأكثر تأكيدًا أن «مطر» يعرفها جيدًا، نظراته لها تؤكد أنه يرى فيها امرأة غيرها، يحمل لها من المشاعر الكثير.

«مطر».. عليها أن تذهب إلى كوخه ثانية، هذه المرة ستجبره على الحديث معها، مهما كان الثمن.

قبل أن تغيب شمس يومها الثالث بالواحة، خرجت «سراب» تبحث عن البئر المهجورة، تسأل فلا يجيبها أحد، كأن أهل الواحة يخشون المكان الذي تسأل عنه، إلى أن أشار لها فتى صغير صوب مساحة خالية من الزرع والبيوت، على مقربة من مدافن الواحة.

سارت فوق الرمال إلى أن بلغت البئر المرصودة، مدت عنقها تنظر إلى الأسفل، لم تكن البئر عميقة للغاية، إذ تمكنت بوضوح من رؤية عظام المرأة التي لا تحب الجدة ذِكرها، ملقاة هناك متخذة شكل إنسان تكسرت عظامه.

امرأة رأى أهل الواحة أنها لا تستحق حتى أن يمنحوها قبرًا في أرضهم.

تتساءل «سراب» في نفسها: *هل سقطت المرأة في البئر بنفسها أم مدفوعة، منتحرة أم مقتولة؟!*

دُنيازاد

وشَت النجمة السادسة

تقول بخفوتٍ هامسة

كل أخواتي صادقات

إلا واحدة مُدلِّسة

كذَّبتُها وما صدَّقتُ

وفي لومها قد أسرفتُ

لماذا إلى أختكِ تسيئين؟

سألتُها وما كررتُ

غضبَت وتركتني لائمة

تقول بثقةٍ قائمة

ستعرفين بعد حين

أي النجمات تستعين

بالساحرة ذات القوة

لتسلب إدراكنا عُنوة!

الليلة السادسة والعشرون

أيهما أكثر إفزاعًا؛ الخطر الذي يقترب أم
الأمان الذي يبتعد؟

(1)

خمَش الكابوس منامها، تقف في موضع المتفرج، وأمامها فوق الرمال الصفراء الممتدة، تركض امرأة بلا وجه ترتدي رداءً أبيض، يطاردها الممسوس بحصانه، ومن الجهات الأربع يحاصرها رجاله، لم تجد المرأة من مهرب، سوى إن تُلقي بنفسها في قاع البئر المهجورة، تشق صرخاتها آذان السكون، يتحول جسدها إلى عظام نخرة. تُلقي فوق «سراب» بالملام، لأنها شاهدة اختارت الصمت، والعجز، والخذلان.

استيقظت «سراب» فزعة، تبحث في حقيبتها عن شربة ماء، عندئذ صدمتها حقيقة أنه لم يبقَ في حوزتها إلا أقل من زجاجة واحدة.

عليها أن تقتصد فيما بقي، تقتصد كثيرًا.

أزعجها الكابوس وأرق ليلتها، لماذا تلومها المرأة الميتة على شيء لا دخل لها به؟ ألأنها قررت استغلال التشابه بينهما للوصول إلى مبتغاها؟ ربما لهذا السبب انزعجت المرأة في مرقدها في قاع البئر، لكنها لا تملك سبيلًا آخر، عليها أن تبلغ هدفها قبل نفاد الوقت.

في البكور، خرجت من دار «سلَّام» ومضت تسير في الطرقات الضيقة المتعرجة من غير هدف، أو هذا ما بدا ظاهريًّا، أما هدفها الذي تضمره بين ضلوعها، هو أن يراها رجال الممسوس، فيستشكل عليهم أمرها، ويحسبونها المرأة الميتة وقد بُعثت في واحتهم من جديد، فيرسلون الخبر إلى سيدهم على جناح السرعة.

لساعات متعاقبة، لم يقابلها سوى رجال الواحة وشبابها، الذين يرتدون جلابيب مختلفة ألوانها، رجال الممسوس لا يتحركون من دون أحصنة، ودروع تغطي صدورهم، وهراوات يراقصونها في الهواء متى أرادوا إخافة الناس. تراهم من نافذة غرفتها تحت جنح الظلام، يسيرون في الطرقات الخالية من أهل الواحة، يتضاحكون ويتمازحون ويتصايحون، كأن الأرض ملكهم وما عليها.

يخلِّفون فضلات طعامهم مبعثرة في مواضع تجمعهم، ينظفها أهل الواحة في الصباح. يبعثرون الأغراض، وينثرون القاذورات، ويقلبون المقاعد رأسًا على عقب، كأنهم يتحدون أهل الواحة رجلًا رجلًا أن يجرؤ أحدهم على الخروج من داره ليلًا والوقوف في وجوههم.

ودت لو تقابل الآن أيًّا من هؤلاء الأنذال وجهًا لوجه، ويلتقط الطعم الذي تدنيه من أفواههم.

كانت تحدق إلى وجوه أهل الواحة ما إن تمر بأحدهم، دون أن تتحدث إلى أحدهم بكلمة، لم يبدُ على أي منهم أنه رأى فيها وجه المرأة الميتة، ظلت بالنسبة إليهم غريبة تائهة كما كانت في يومها الأول، لا تتحدث إليهم، ولا يحادثونها. وهذا ما أثار الكثير من دهشتها واستيائها في آنٍ.

تقافز في عقلها سؤال بالغ الأهمية، لماذا لم يُشبِّه عليها من أهل الواحة سوى «مطر» والجدة «أم الرمال»؛ ولماذا هذا الشبه يدفع بأحدهما لأن يعاملها كملاك، وبالآخر لأن يراها كشيطان؟

السر يسكن في صدر أحدهما، وبما أن الجدة ترفض الإفصاح، فليس أمامها من سبيل سوى استنطاق الأحدب الصموت.

***

صفق المتجمهرون من أهل الواحة للشاب العفي الذي نجح وحده في اقتطاع سعف نخلة سامقة خلال دقائق معدودات، ليستخدمها صاحب النخلة في صناعة سقف بيته الجديد.

رغم ضخامته، نزل الشاب العفي من فوق النخلة برشاقة حسده عليها الجميع، ثم مضى صوب الطاحونة يستكمل عمله في طحن الحبوب للنساء اللاتي اصطففن أمامه، كل منهن تحمل في يدها طبق خوص به ما تود طحنه.

مضى الشاب يدفع الطاحونة للعمل بذراعين لا تكلان ولا تملان، تشكره إحدى النساء بالدعاء، وتقدم له أخرى بضع ثمرات من الرُّطَب، وعجوز تضع أمامه فطيرة ساخنة أنضجتها للتو في فرن الطين الذي تملكه فوق سطح دارها.

يتوقف الشاب الضخم قليلًا ليأكل أو ليشرب، ثم تعود ذراعاه إلى العمل بوتيرة سريعة، وبقوة منيعة، لا يملكها الكثير من رجال الواحة وشبابها.

يمر به أحد الرجال ويلقي التحية، فيبتسم الشاب ببشاشة ويردها بأجمل منها.

خفت وقع أقدام النساء المتجهات صوب الطاحونة، توقف ليمسح العرق الذي غمر جبينه، عندئذ تلقى ضربة خفيفة فوق كتفه فتطلع إلى وجه القادم القائل بحبور: «ماذا تفعل هنا يا «هلال»؟.. الرجال يرقصون على أنغام أناشيد ليالي السامر لأجل فرحك القريب.. وأنت تقف هنا بين الحبوب والغلال».

قهقه «هلال»، منذ الصباح يتلقى العتاب نفسه ممن يرونه منهمكًا في عمله كالمعتاد، لا يتكاسل كعريس تفصله عن زفافه ليلتان فحسب، ربَّت «هلال» فوق كتف صديقه بضربات خفيفة قائلًا: «تعرف أنني لا أندمج كثيرًا في هذه الأجواء التي تملأ ساحة المرح الآن.. أنا رجل خُلق للعمل.. لا للمرح يا صديقي».

- لكنه وقت الابتهاج.. لو كان زفافي بعد بضعة أيام لاستمتعت كثيرًا بالترفيه والتكاسل ولما تذمرتُ قط.

- كان ليصبح زفافًا رباعيًّا لو وافقتَ على العروس التي اختارتها لكَ أمي.. لكن ماذا نفعل لرأسك العنيد يا «قوس»؟

لطالما اتفقا منذ صغرهما على أن يكون زفافهما في ليلة واحدة، ولطالما تعاهدا على أن تمتد صداقتهما إلى زوجتيهما، ثم أولادهما، ويتحدان معًا كعائلة واحدة.

كان الرائي ليتعجب من الصداقة القوية التي امتد رباطها بين «هلال» الشاب الضخم العفي، و«قوس» نحيل الجسد، ضعيف التكوين. أحدهما كانت هوايته ضرب جبال الرمل بقبضته، ورفع الصخور واحدة تلو الأخرى أمام المصفقين، أما الآخر فكانت هوايته الاستلقاء فوق الرمال وعد النجمات، أو ركل الحصى إلى أبعد نقطة تبلغها عيناه.

«هلال» يقف أمام الطاحونة يطحن الحبوب، و«قوس» يجلس فوق الرمال الساخنة يُنقيها من القش والحصى.

هكذا كل منهما يكمل الصورة، دون أن يحاول أحدهما طمس هوية الآخر ليُشبهه.

يتندران على التشابه بين اسميهما؛ القوس والهلال.

يهز «قوس» رأسه قائلًا: «لستُ جاهزًا بعد للزواج.. لا أملك إلا حجرة صغيرة تؤويني بها القليل من الأثاث».

قاطعه «هلال» ممازحًا: «دعك من هذا العذر الماسخ.. لو أردتَ لما وقف في وجهك سبب.. ولما استطاعت أن تهزمكِ الحُجج.. أنتَ لا تريد.. هذا هو الجواب الصحيح.. مما يدفع بنا إلى السؤال التالي، لماذا أنتَ عازف عن الزواج يا «قوس»؟».

تمر بخاطر «قوس» صور متفرقة من طفولته، طفل يتيم وسط أقرانه. في الواحة تُفتح الأبواب على مصراعيها أمام الأيتام، يمكثون في أي دار يشتهون، يأكلون من طعام أهلها، ويلبسون من ثياب أطفالها، لا أحد يجرؤ على غلق بابه في وجه يتيم للواحة، وإلا أتى بفعل من خوارم المروءة، ولنبذه الرجال في مجالسهم، ورفضوا أن يبيعوا له أو يشتروا منه.

طاف «قوس» على بيوت الواحة طفلًا ومراهقًا، يمكث في هذا ثم يتركه لآخر. أحب بيت «هلال»، وآنس برفقته، وكانت أمه امرأة لم تنجب من الأولاد سواه، فصار له أخًا بالقلب لا بالدم.

قال «قوس» مغيرًا مجرى الحديث: «لا تتهرب من كلامي.. أنت العريس.. يجب أن تكون الآن وسط الرجال في ساحة المرح.. اترك لي العمل وسأقوم به نيابة عنك».

أطلق «هلال» ضحكة مرحة لا سخرية فيها، ثم قال مفصحًا ومصارحًا: «كلانا نعلم جيدًا أنك تكره العمل اليدوي يا «قوس».. لن تمر دقائق إلا وأجدك تلهث تعبًا وتتصبب عرقًا والنساء من حولك يتذمرن ويتأففن فأخسر زبائني من رواد الطاحونة».

لوح له «قوس» مفارقًا وممازحًا: «أنا المخطئ إذ حاولتُ مساعدتك.. سأعود إلى عملي إذن».

فارقه «قوس» لا لسبب سوى لأنه رأى عم «هلال» مقبلًا عليهما، متجهمًا، متذمرًا، فأراد أن يترك لهما فسحة للحديث بخصوصية.

التفت «هلال» صوب عمه وصاح بابتهاج: «عمي «طوفان».. حيًّا الله الرياح التي أتت بك إلينا».

لم يبالِ «طوفان» لا ببشاشة الاستقبال ولا بالتحية، عرجَ مباشرة على ما أراد. قال بجدية: «هل سمعتَ ما يتردد في أرجاء ساحة المرح؟».

أطلق «هلال» ضحكة طويلة صاخبة وهو يقول: «هل يتندرون على العريس الذي يطحن الحبوب في ليالي السامر ويفضل طاحونته على سمرهم ولهوهم؟ أعرف أعرف.. فأنا حديث الواحة الآن».

لم يكن «طوفان» في مزاج رائق قط لمجاراته في تفكهه، جز أسنانه وتلفت حوله يهمس قائلًا: «ينتقل كلام هنا وهناك.. أن السمج «جمعان» لا يرغب في الزواج بـ «سلَّام»».

خبتت ابتسامة «هلال» ما إن أتى عمه على ذِكر «سلَّام».. ابنة عمه «أبو الأحناش» شهبندر القماش، أزعجه ما يحيق بعرسها من أقاويل، قال بعد برهة من التفكير: «لعله كلام ممسوخ تفوه به حاقد أو غيور».

- هل تعرف من يكون؟

سأله «طوفان» بحدة بينما يتحسس بلطة يخفيها دومًا أسفل جلبابه، أجابه «هلال» بجدية: «لو عرفته يا عمي لسبقتكَ إليه لإلزامه حدود الأدب وتلقينه مبادئ الأصول».

رمقه «طوفان» وقد ازدادت نظراته حدة، وجبينه تجعيدًا: «ماذا لو كان ما يُقال صحيحًا يا «هلال»؟ ماذا لو كان حقًّا لا يريدها؟».

- إن كان لا يريدها فلمَ يتزوج بها؟

زفر «طوفان» بقوة، صدره يطبق على أنفاسه ويعتصرها، يقول بنبرة حادة قوية: «لو أحزنها.. سأقتله».

بدا تهديده حقيقيًّا جدًّا، لا كلمات جوفاء يلقيها في لحظة غضب. مضى في سبيله دون تحية، كما أتى دون تحية، تابعه «هلال» بينما يبتعد، وكلماته تطوف بوجدانه ولا تفارقه.

لم يخرجه من شروده سوى رؤيته لهيئة يعرفها تدنو منه في بطء، ترتكز على عصاها وتتوجه صوبه في إصرار، أقبل عليها «هلال» يمسك ذراعيها ويدنيها من صخرة قريبة تقع في ظل شجرة سامقة، رحب بها وإن تعجب من زيارتها المفاجئة له عند الطاحونة. قالت الجدة «أم الرمال» بعدما شربت ما أحضره «هلال» من الرائب، فاستعادت أنفاسها وقلَّ لهاثها: «لم أجدك في الدار.. قال لي أحد الشباب إنك غائب عن ساحة المرح.. فعرفتُ أنني سأجدك عند الطاحونة».

- أي رياح طيبة أتت بكِ إلينا يا جدة.. تفضلي بالجلوس هنا وسأحضر لكِ الطعام.

- لستُ جوعى.. عرفتُ من تكون عروسك.. فأتيتُ في الحال.

اتسعت ابتسامة «هلال» يقول موضحًا: «تركتُ لأمي مهمة الاختيار.. تعرفين أنني جاهل بالنساء ما كان بإمكاني الاختيار وحدي».

رغم أن عمله بالطاحونة يقتضي التعامل مع النساء، فإنه لم يكن ممن يطلقون النظر، ويتفرسون في الهيئات، لم يتحدث إلى امرأة إلا بقدر الحاجة، كانت حياته دومًا خالية من الملح، لم يسبق له أن تذوق شيئًا من ملح الغرام.. ملح الغرام، هذا التعبير حصرًا لـ «قوس»، اقتبسه منه الآن.

- وهل رأيتَ عروسك وتحدثتَ إليها بعدُ؟

هز كتفيه بلا مبالاة: «لا حاجة لي لرؤيتها.. أمي تعرف ذوقي.. وأنا أثق بها».

صمتت الجدة طويلًا ثم قالت أخيرًا: «اسمع يا «هلال»».

أصاخ «هلال» السمع للجدة التي يكن لها الكثير من التوقير. أردفت «أم الرمال» دون أن تترك له سعة من التفكير: «لن أكذب عليكَ يا «هلال».. وددت لو كنتُ قادمة الآن لتهنئتكَ بزواجك بـ «سلَّام».. لم أرَ من هو أولى بها منكَ.. ابن عمها الذي أعرف أنه سيحافظ عليها».

مسح «هلال» فوق شعره الكثيف، يواري ضيقًا وارتباكًا، يمسح العرق عن جبينه، تتوقف أنامله قليلًا فوق جبهته العريضة، وتتهادى أيادي الشمس فوق بشرته السمراء.

جاور الجدة الجلوس في الظل، يقول مطرقًا صوب الرمال: «لا سلطان لنا على قلوبنا يا جدة».

- لكنكَ لا تعرف عروسك لتحبها.. تقول إنكَ حتى لم ترَها إلى الآن.

- لكنني أعرف «سلَّام».

قالها بخفوت مستشعرًا حرجًا بالغًا، ثم أردف بسرعة: «لا أقول إن بها ما يعيب يا جدة.. «سلَّام» زينة البنات.. لكنني لا أراها سوى أخت صغيرة أراعيها وأحميها.. لا امرأة أسكن إليها وأنجب الأولاد».

دقت «أم الرمال» بعصاها مرتين فوق وجه الأرض، ثم تساءلَت: «أمرضها السبب؟».

يدرك «هلال» أن الصحة التي حباه الله بها إنما هي من نعمائه التي يمنحها ويمنعها متى شاء، تستوجب الشكر والحمد لا التكبر على الخلق بها والخيلاء.

رفع كفه، وبحزم قال: «لا يا جدة.. لو مال قلبي إليها لما منعني عنها عرَض ولا مرض».

ثم قال محرجًا ومعتذرًا في آنٍ واحد: «لكنه لا يتحرك حين يراها».

تفكرت قليلًا ثم قالت باستسلام: «سبق وقال قلبك كلمته يا ولدي.. لا حاجة إذن إلى المزيد من الكلمات».

انصرفت الجدة تتوكأ على عصاها، يتابعها بنظراته وقد اجتذبه الشرود، يعرف أن الزواج بـ «سلَّام» ليس أمنية تدور في خلد الجدة وحدها، يدرك أيضًا أن عمه «أبو الأحناش» يشارك الجدة آمالها، تظاهر دومًا أنه لا يرى تلك الرغبة في عيني عمه، عمه الذي قرأ في عينيه العزوف، فلم تُترجَم مشاعره إلى كلمات قط.

لماذا يشعر الآن وكأن حملًا ثقيلًا أُلقي على عاتقه؟ ليت الجدة لم تخبره بما في نفسها صراحة، وليت عمه «طوفان» لم يخبره بما يتردد من إشاعات في ساحة المرح، لما راوده شعور الضيق الذي يلازمه الآن.

زفر بقوة ثم عاد إلى الطاحونة، يتلقف من النساء سلال الخوص، ويطحن ما بها من حبوب، بعقل شارد، ووجه غير بشوش.

***

تهادى «قوس» في طريقه صوب السوق، دخل دكان التوابل، رص الأجولة بعناية في مكان ظاهر في طريق الرائح والغادي، ثم أخذ ينادي على بضاعته، واصفًا إياها بدقة، دون أن يبخسها قدرها، أو يسبغها فضائل ليست فيها.

«قوس» الأمين، هكذا يدعونه رجال الواحة ونساؤها.

غير منتبه إلى الفتاة التي تراقبه من بعيد، موارية نفسها خلف جدار من الطين، تتبعه بعين راصدة لكل خلجة من خلجاته.

يضطرب قلب «صدف» وتتسارع نبضاته، مخافة أن يراها «قوس» من حيث تراه، يتفاقم حرصها على الاختباء، فيغيب عن مرمى بصرها في كثير من الأحيان.

تخشى «صدف» في حياتها الكثير، وأكثر ما تخشاه أن ينكشف الشعور الذي تأسره في قلبها وتمنعه من الفرار.

اجتذب «قوس» انتباهها منذ أن بدأ العمل عند أبيها، في دكان التوابل الذي يملكه، تسمع ما يقوله الناس عن نزاهته، ثم رأتها بأم عينها حين كانت تراقبه سرًّا من خلف جدار الطين، وقد اهتز الميزان وأحدث خللًا في التقدير، فأسرع «قوس» خلف الرجل الذي باعه التابل، يبحث عنه كالملهوف في الطرقات، لم يدع بابًا إلا وتركه، ولا ساحة لتجمع الرجال إلا وحط عليها بالسؤال، عن الرجل الذي باعه السمَّاق، وانتقص منه جرامًا واحدًا من غير عمد.

بدا في عين الناس شابًّا متكلفًا، ماذا يكون وزن جرام من السمَّاق في تقدير الرجل الذي اشتراه؟ لكن «قوس» لم يركن إلى التكاسل وانصراف التفكير، عن الحق الذي منحه ناقصًا، والميزان الذي اختل فصار مطففًا.

يقطع طرقات الواحة كالملهوف، تتردد في ذهنه أصداء الآية والوعيد، ترتجف أوصاله، ويضيق مجمع أنفاسه، ويرى نفسه يوم الحشر جنبًا إلى جنب مطففي الموازين.

عثر على الرجل أخيرًا نائمًا تحت ظل حماره، أفزعه إذ أيقظه ووضع في يده قماشة صغيرة بها جرام من السمَّاق، حتى حسبه الرجل مجنونًا فقد اتزانه.

صارت تلك الحكاية تسلية الناس لأيام، يتحاكون بها وقد ألصقوا الأمانة باسم «قوس» ولازمته حتى الحين.

كانت تلك الدقة الأولى والشاردة، التي أدركت بعدها «صدف»، أن قلبها قد حاد عن وجهته المعتادة، وصار يتذوق ويذيقها مشاعر جديدة، لم تألفها سابقًا.

ومع كل يوم جديد تزداد النبضات الشاردة، حتى كونت لحنًا كاملًا خالصًا، لا يعزفه قلبها إلا حين تتسلل لمراقبة «قوس» خلف جدار الطين.

اليوم زاحم اللحن الأصيل نغمة حزينة باهتة، وقد أدركت أن ليلتين تفصلانها عن عرسها الموعود. سيمضي بها «كسَّار» إلى الطرف الآخر من الهاوية، حيث الجبل الأسود الذي يسكنه الممسوس ورجاله.

لن تراقب «قوس» ثانية من طرف خفي، ستُحرَم رؤيته إلى الأبد.

لن يعرف بالحب الساكن بين ضلوعها، الذي تخفيه مثل سر خطير، وتحرسه مثل كنز ثمين.

سيختنق هذا الشعور بداخلها حتى يجف، دون أن يدري به أحد، ستكتوي بنيرانه وحدها.

- تنتظركِ أيام طويلة مريرة يا «صدف».

هكذا همست لنفسها، وهي تمسح عبرة منفلتة من أسرها.

اقتربت من الدكان بعدما استعادت رباطة جأشها، تطرق صوب الرمال، لا تجرؤ على رفع بصرها، تلقي التحية بصوت غير مسموع، لم تلتقطه أذنا «قوس»، وقف أمامها منتظرًا لحديثها، ونظراته تسبح بين الرمال مثلها.

- طلب مني أبي أن آتي إلى الدكان لأخبرك أمرًا مهمًّا.. التابل الذي اشتريته من شهبندر التوابل قبل أيام.. أرجئ بيعه إلى حين نفاد الذي في المخزن لئلا تتلفه الحرارة داخل الجوال.

لم تدرك أنها كانت حابسة لأنفاسها إلا بعدما أنهت حديثها وأخذت شهيقًا عاليًا، هل انتبه لاضطرابها؟ هل فسَّر رجفاتها؟ أصابها الهلع لما طال به الصمت، حسبته فهم ما تكنه له في الخفاء. إلى أن قال «قوس» مؤكدًا: «لا تجعلي أباك يقلق على الدكان.. أديره كما لو كنتُ صاحبه».

زادتها كلماته حبًّا على حب، لو أنجب أبوها الولد، لما وجد منه برًّا وحسن معاملة أكثر مما يمنحه له «قوس».

قالت بنبرات متلجلجة، ومشاعر رؤوم مشفقة: «أردتُ تعزيتك في «عبد البَر»».

مكث بعض الوقت في دار «عبد البر» بينما كان يافعًا يخطو أولى خطواته في درب الشباب، شاركه اللقمة والكسوة وسقف الدار، لن ينسى له معروفه قط، وفي كبره كان يزوره ويعد له الطعام بنفسه، آخر كسرة خبز دخلت جوف «عبد البَر» كانت تلك التي قد أحضرها «قوس» إلى داره.

آلمه كثيرًا موت الرجل الذي لا يتحدث عنه أحد، الجميع يخشى الحديث، يمتنعون حتى عن تقديم واجب العزاء، أجج هذا بداخله الرغبة في اتخاذ ردة فعل، إلى متى سيظل الممسوس سيفًا مُسلطًا فوق أعناقهم، يقطع ما يشاء، ويُبقي ما يشاء؟ إلى متى سيظل أهل الواحة عُبَّادًا للخوف، زهادًا في الأمن؟ إلى متى سيُحرم عليهم الخروج في الليل، والنوم على الرمال، وعد النجمات؟

لكن ماذا بإمكانه أن يفعل وحده؟

- أخبري أباكِ ألا يقلق على الدكان.

كررها ثانية مما أشعرها بالحرج، فسارعت في الانصراف.

جلست في مكانها المعتاد بالسوق، تعد فرشتها لتبيع سلال الخوص التي صنعتها، وقد تركت قلبها الندي في دكان التوابل، بجوار الملح والفلفل والزيت الحار.

***

(2)

بينما «صدف» جالسة في السوق، ساهمة صوب المجهول، نما إلى سمعها صوت «كسَّار» يقول: «يا له من نهار بهيج».

انكمشت «صدف» في مكانها، تضم إلى صدرها إحدى سلالها، يردف «كسار» وقد جثا فوق إحدى ركبتيه أمامها: «أتيت إلى السوق وقد وددتُ لو أراكِ اليوم.. ماذا فعلتُ لأستحق تحقيق أمنيتي بهذه السرعة؟».

أطرقت «صدف» صامتة، تحبس الكلام في حلقها، ودت لو تأمره بالانصراف، لولا أن خافت غضبته، لا على نفسها، بل على أبيها الراقد في فراش المرض.

مد يده يلتقط إحدى سلالها، يقلبها بين يديه ويتأمل دقة حبكها، يقول بنبرة مغازلًا: «لا أحد يصنع السلال مثلما تفعل يدا «صدف».. لا أحد مثل «صدف»».

تندهش ويصيبها العجب، لم تملك يومًا جمالًا لافتًا، ولا قسمات جاذبة، يتناثر النمش الصغير فوق بشرتها معكرًا لها، عادية، ومهمشة، وغير مرئية، فلماذا حط اختيار «كسَّار» عليها بالذات؟

ودت لو تلقي عليه بسؤالها، لكن الكلمات ظلت حبيسة حلقها، لا تقوى على الإفصاح.

دنا منها «كسار» واضعًا السلة مكانها، ارتجفت «صدف» كأن ثعبانًا يزحف بالقرب من ربلة ساقها، كيف سيكون هذا الرجل بعد ليلتين زوجها؟ ضمت السلة إلى صدرها أكثر، تكتم نشيجًا متصاعدًا، ورغبة عاتية في الصراخ، لم يقطعها سوى مجيء «سراب» المفاجئ، وإلقاء التحية عليها بألفة، كأن صداقتهما ممتدة لسنوات. تردف «سراب» بينما ترمق من طرف خفي الدرع الذي يضعه «كسار» فوق صدره، والحصان الذي ربطه في سور قريب: «قالت «سلَّام» أن أخبركِ أن الخياطة ستأتي إلى داركِ بعد قليل.. ستكونين أجمل عروس يا «صدف»».

قالتها ثم وقفت وجهًا لوجه أمام «كسار» تبارك له عرسه القريب، وما أرادت إلا أن يرى وجهها بوضوح، لا ظن فيه ولا تأويل.

لم تستطع أن تستنبط من ردة فعله إن كان قد شبَّهها بالمرأة الميتة، لم يبدُ على «كسار» أنه عرفها، أو لعله يكتم في صدره ما لا تبوح به قسماته، هكذا يدرب الممسوس رجاله.

المؤكد أن الانزعاج تبدى جليًّا فوق قسماته، لقطعها حديثه الحميمي مع «صدف». أما «صدف» فقد استحسنت قدومها، جذبت ذراعها وأجلستها جوارها فوق البسطة، لم يجد «كسار» بُدًّا من أن ينصرف شاعرًا بالغيظ والخيبة.

وخلال الساعة التالية، تشاركت الفتاتان الصمت وبيع السلال، إلى أن قذفت «سراب» بحجر كبير وسط هذا السكون الطويل: «لم يفُت الأوان بعدُ يا «صدف»».

التفتت لها «صدف» بحيرة ابتداءً، ثم فطنت لمراد الكلام، فما كان منها إلا أن أطرقت من غير جواب، ما استفز «سراب» بشدة، ودفعها لتقول بحدة: «لا يستطيع هذا الرجل إرغامكِ على الزواج به.. إنه بحاجة إلى موافقتك وإلا لكان العقد باطلًا».

- أنتِ لا تفهمين.

قالتها «صدف» مستشعرة غضبًا متصاعدًا، لتطفل هذه الغريبة على حياتها كأنها تعرفها، بل وتجرؤ على توجيهها.

- بل أفهم يا «صدف».. لم يعتد «كسار» أن يُقال له «لا».. «لا» الأولى تكون دائمًا بصعوبة صفعة على الوجه، أنتِ بحاجة إلى التحلي بالقوة الكافية لصفعه، عليكِ أن تفعلي هذا لأجل نفسكِ.. أنتِ مستسلمة.. وأنا أكره الاستسلام.

«صدف» التي كانت تتحامل على نفسها لتبدو متماسكة أمام الجميع، لم تتحمل القطرة التي أضافتها «سراب» إلى كأسها، ففاض حملها؛ أجهشت الفتاة في بكاء محموم، لم تفلح اعتذارات «سراب» في تهدئتها، ولا وقف عبراتها، اضطرت «سراب» إلى مفارقتها شاعرة بالندم على كلماتها، والأسف لأجلها.

***

جلس الرجال يتسامرون وينشدون في مصاطب متقابلة على الجانبين داخل السقيفة، والسقيفة هي الجزء المسقوف من شارع العرسان الثلاثة؛ «جمعان»، و«هلال»، و«كسار» حيث كان يعيش قبل أن ينضم إلى زمرة رجال الممسوس.

تشاهدهم النساء من أسوار الأسطح وتشاركهم بهجة العرس بالزغاريد، ثم تخبر كل منهن الأخرى: «اليوم هو يوم التفصيل».

في يوم التفصيل تأخذ خياطة الواحة مقاس العرائس لتفصيل ملابسهن، وتجتمع النساء في بيت العرائس لعرض الأقمشة والفساتين الجاهزة الخاصة بالعروس، معلنات عما أتى به العريس من هدايا.

كانت الأجواء البهيجة في دار «سلَّام» أكبر من قدرة «سراب» على الاحتمال، وبخاصة أنها لا تزال تخفي عن الفتاة ما سمعته من «جمعان» في ليلتها الأولى بدارها، يساورها الشك في صحة قرارها، وقد أضحى الزفاف وشيكًا.

لكل معرفة ثمن، فهل يستطيع قلب «سلَّام» العليل تحمل الثمن؟

طافت «سراب» في أرجاء الواحة من غير هدف، تسأل نفسها هذا السؤال، تتبعه بأسئلة أخرى عن قصتها واللعنة التي حاصرتها وأفسدت حياتها.

وما عكر مزاجها رؤيتها لـ «صدف» في هذه الحالة، إنها أكثر هشاشة مما كانت تحتسب.

انتهى بها المسير إلى الهاوية، وهناك التقت بغير اتفاق «مشتاق»، مفترشًا الرمال، يمد عنقه ليستطلع المسافة الشاسعة إلى الأعماق.

- ماذا تفعل هنا يا «مشتاق»؟ أخبرتني أنك ستقضي اليوم في ساحة المرح.

منحها ابتسامة باهتة، لم يغب عنها كونه شارد التفكير، مشغول البال، على غير عادته. جاورته فوق الرمال، مدت عنقها صوب الأسفل تمرر نظراتها بأسفٍ فوق الهياكل العارية، قبل أن توليه اهتمامها، تقول: «ماذا تخفي؟.. هيا اعترف».

اتسعت ابتسامته، وإن كانت لا تزال باهتة من غير مرح، أمسك بحفنة من الرمال في قبضته، شد عليها وأحكَم.

- تُجيدين قراءة الناس.

- ليس كل الناس.. المقربين مني فحسب.

رفع رأسه يرنو إليها بطريقة لم تستطع تفسيرها، كأنه أراد أن يقول شيئًا ثم تراجع عنه في الحال، حثته تقول: «تستطيع أن تخبرني أي شيء يا «مشتاق».. أنتَ لستَ ابن خالي فحسب.. بل أخي الوحيد».

- أعرف.

قالها مبتسمًا، بقليل من المرح هذه المرة، نظر إلى قبضته التي لا تزال تقبض على الرمال محاولًا الإبقاء عليها بالداخل. قال بغتة دون أن ينظر إليها: «لا أرغب في مغادرة الواحة».

ولشد ما أدهشتها رغبته، «مشتاق» وواحة معزولة وسط الصحراء! هذا آخر مكان يصلح له للمقام، بدا لها وكأنه يهرب، ربما من الجدة المريضة التي يعجز عن شفائها، أو من والده المسجون الذي يعجز عن إنقاذه، وربما من كليهما.

الحياة في الواحة قابلة للسيطرة، لا يطرأ عليها جديد، تسير الأمور بطريقة متوقعة، من غير مفاجآت مؤسفة، ما دام المرء بعيدًا عن الممسوس ورجاله. *هل هذا ما اجتذبه إلى الواحة، الروتينية، والاستقرار؟* تساءَلَت في نفسها.

- أنا على العكس منكَ.. الواحة تخيفني.

- لماذا؟

رفع رأسه وسألها باهتمام، هزت كتفيها وقد شردت قليلًا: «لا أعرف.. يبدو لي كل شيء في غير موضعه الصحيح».

- ومتى كان كل شيء في موضعه الصحيح؟

قالها ساخرًا، بادرته باهتمام أكبر: ««مشتاق».. حديثك يقلقني».

كرر حازمًا ومؤكدًا، وأنامله تزيد من خنقها لحفنة الرمال: «لا أريد مغادرة الواحة يا «سراب».. أريد البقاء».

- وأنا؟ هل ستتركني أعود بمفردي؟.. وجدتنا المريضة التي تنتظر عودتنا.. وخالي.. أبوك.. ماذا أقول له؟

صرف نظره عن وجهها، ترك الرمال تتسرب من بين أنامله دون أن يضيف كلمة واحدة. قدَّرت «سراب» أنه يمر بفترة عصيبة، والصمت أحيانًا يكون أشد بلاغة من فصاحة اللسان؛ شاركته هذا الصمت الذي اختاره، إلى

أن قطعه بنفسه مردفًا بنبرة أكثر اتزانًا، وأقل مرارة: «رأيتُ فتاة يا «سراب».. تعلق قلبي بها من النظرة الأولى».

تجلت خيبة الأمل فوق قسماتها بجلاء، القصة فيها فتاة إذن!

- ستغير رأيك ثانية.. أعرفكَ جيدًا يا «مشتاق» أنتَ لا تستطيع أن تتمسك بشعور ما لفترة طويلة.. تغير مشاعرك كأنك تبدل ثيابك.. أنت تكره القيود والالتزام.. تبقى لنا في الواحة ليلتان كاملتان.. أثق أنك ستتعلق بغيرها قبل موعد المغادرة.

انفعل كثيرًا والتهبت أعصابه غضبًا: «لا تتحدثي عن شيء لا تعرفينه.. لم أطلب رأيكِ».

سئم تلك المعاملة، كأنه فتى طائش أحمق وأهوَج، سئم ادعاء الآخرين فهم مشاعره، وصلافتهم في توقع أفعاله، كأنه شخص بسيط خالٍ من التعقيد، ليس بالرجل البسيط أبدًا.

احتد ثم تركها مفارقًا، تاركًا خلفه «سراب» وقد قضمها الغيظ والحيرة، أتيا إلى الواحة من أجل هدف يبدو أن «مشتاق» لم يبذل لأجله أي جهد، والآن يركض خلف فتاة سيملها بعد أيام، وربما ساعات.

لم تكن في مزاج رائق للانغماس في مشكلاته العاطفية، تركته يرحل وبقيت هي بجوار الهاوية، تتطلع للجارة السوداء، حيث الجبل الأسود المهيب يتطلع لها بدوره في ترقب مريب.

***

يسوقها العجز أخذت تطوي المسافات في اتجاه الكوخ المنعزل في آخر الواحة.

كان «مطر» مستلقيًا فوق حصيرة أسفل شجرة جميز، سارحًا في الملكوت، فزع إذ رآها تقبل عليه، نهض مشيرًا لها بالانصراف، فظلت واقفة مكانها بعناد.

كالمرة السابقة، استطلع الأجواء من حولهما مخافة أن تكون قد تبعتها عين راصدة.

دخلت الكوخ، لحق بها مضطربًا ومنزعجًا من قدومها، وإن كان قد أحب لقاءها، لم تحتد عليه هذه المرة، سألته بروية من لا ينتظر الجواب: «لو سألتكَ عن المرأة التي أشبهها لن تخبرني شيئًا، أليس كذلك؟».

أدهشه سؤالها، لوهلة فحسب، أذهبَت ما علق بقسماته من ضيق، بدت له تائهة، ضلت الطريق، وقد أيقنت في نفسها أنه المَعلَم، والدليل.

لم تُكثر من الأسئلة، أو مناشدته ليبدد ظنونها، ويُبصِّرها بما يدور من حولها، سارت من قبل في هذا الطريق المرصود، وعلمت أن آخره بجدُر الصمت مسدود.

تكالب عليها الإرهاق والعطش، جلست «سراب» فوق المقعد الوحيد بالكوخ، تقص عليه من غير ترتيب، حياتها المحصورة بين فكي لعنة ورثتها من واحة زرزورة.

قصت على سمعه كيف دمرت هذه اللعنة حياتها، وبددت أمانها، وأحالَت أحلامها إلى كوابيس. وعندما رفعت طرف وشاحها كي تُريه آثار الحريق الأول فوق رقبتها، صرف نظره عنها في اضطراب، وقد تجعد جبينه واكفهر وجهه، لا تعرف إن كان ذلك تأثرًا بحكايتها، أم انزعاجًا من كونها تشاركه إياها دون أن يسألها ذلك.

أخبرته عن جدتها المريضة، وجدها الذي هجر زوجته وطفليه، بعد أن افتتن بواحتهم المسحورة. أخبرته عن زفافها الملعون الذي لا يتم لثلاث مرات متتالية، ينتهي بحريق يترك بصمته فوق جسدها، ويحفر في قلبها أثرًا لا يزول.

عند هذه النقطة رأت العبرات تنهمر فوق وجنته، مطرقًا صوب الأرض المفروشة بالحُصر، يسمعها بوجدانه قبل آذانه، ويتفاعل معها كما لو كانت حكايته هو.

يرفع أنامله ليمَس الحروق المتناثرة فوق وجهه، التي تتخفى وراء طاقية الصوف التي أهدتها له، رغم حرارة الظهيرة، لم يخلعها عن رأسه.

وقفت أمامه تشاركه الألم الذي اختبره كلاهما؛ النار التي تركت آثارها داخليًّا، كبصمة لا يراها أحد.

لا تعرف ظروف الحريق الذي تعرض له، لكنها تستطيع عبر قسماته أن تخمن أنها كانت تجربة غاية في الألم، تعرَّض خلالها لظلم أو خديعة، هكذا أنبأها حدسها.

- تستطيع مساعدتي.. تعرف ذلك.

قالتها وهي تواجهه، أرادت أن تترك بداخله أثرًا قويًّا مستغلة الشبه بينها وبين المرأة الميتة. ليس لـ «مطر» ثغرة سواها، ورغم انزعاجها من استغلاله، لم تكن تملك وسيلة أخرى للحصول على مرادها.

- هذه المرأة كانت تعني لكَ الكثير، أليس كذلك؟

حاول إخفاء وجهه عنها، تمامًا كما فعل في لقائهما الأول، باتت الآن تفهم أنه يفعل ذلك حين يرغب في إخفاء مشاعره، أو أفكاره.

ثمة ما يتعلق بتلك المرأة ويحاول أن يخفيه عنها، هذا مؤكد.

- ألا ترغب في الانتقام لها؟.. انظر إنها هناك في عمق البئر المهجورة.. في البرد والعراء.. بخلوا عليها حتى بقبر يواري عظامها.. أي شر هذا؟

تضطرب حركته، ولا يزال يوليها ظهره المحدَودَب، يرفع كفيه ليخفي وجهه، هل يبكي؟

- عاملوها كخرقة بالية.. تركوها وسط البئر إلى أن تحلل لحمها وتكشَّف عظمها.. لا يستحق أي إنسان هذا المصير.. فما بال إنسان تحبه.. ويعنيكَ أمره.

علا أنينه كطريدة مذبوحة، من الوريد إلى الوريد. يضرب بقبضتيه رأسه من الجانبين، يشتعل الألم بداخله، ويتمدد في قلبه وأحشائه. تعرف أنها تقسو عليه كثيرًا، لكن لا سبيل للتراجع.

- «مطر» أنتَ مدين لهذه المرأة.. إن كانت حقًّا تعني لك شيئًا.. لا أريد توريطك في مشكلتي.. كل ما أريده هو أن تخبرني...

صمتت، ولم تكمل عبارتها، طال انتظاره إلى أن أيقن أنها لن تضيف المزيد حتى يواجهها. التفت ببطء وتردد ملحوظ، إلى أن عاد قبالتها، بوجه محتقن، وشفتين مرتجفتين، متماسكتين بالكاد.

سددت عينيها الدامعتين إلى عينيه الداميتين، قالت وقد أيقنت أنها على بُعد خطوة واحدة من استنطاقه: «كل ما أريدك أن تخبرني إياه.. سر القوة التي كانت تملكها تلك المرأة والقادرة على إشعال النار».

كادت أن تظن أنها واهمة، وأنها أبعد من انتشال الكلمات من بئر الصمت السحيقة. لم تستسلم، كررت سؤالها، بحزم أكبر هذه المرة، وإن حافظت على نبرتها الهادئة: «ما القوة التي كانت تملكها هذه المرأة يا «مطر».. التي تمكِّنها من مواجهة الممسوس؟».

ازدرد ريقه مرتين، يقاوم صراعًا داخليًّا عاتيًا، تحركت شفتاه بتؤدة، تردد، اضطرب، ثم ثبت، وقرر. أراح كفه فوق صدره ونطق كلمته الأولى منذ زمن طويل: «قلبها!».

سرى صوته في أرجاء الكوخ يحجب ما سواه، رجفَت الموجودات وقد أصابتها الدهشة لسماع صوته غير المألوف، بنبرته الرخيمة الشجية.

حبسَت «سراب» أنفاسها من هول المفاجأة، رغم أنها ودَّت غير مرة أن يتكلم، عندما تحقق ذلك ثارت زوابع الرهبة بداخلها. نجحت أخيرًا في استنطاق الأحدب الصموت.

شفتاه لا تزالان على رجفتيهما، خلاياه تنطق بالتوتر، تنقبض وتنبسط قسماته كأنها انعكاس لمشاعره المضطربة غير القابلة للاحتواء.

أتبَع الكلمة بعبارة بالنبرة الرخيمة الشجية ذاتها: «لا تدعي الممسوس يراكِ».

ناشدها برجاء يائس، امتصت لهفته هواء الكوخ، وتركته تحت ضغط رهيب، حتى لكأن سقوط إبرة فوق الحُصُر قادر على إحداث انفجار مكبوت.

هل يرى فيها المرأة الميتة؟ هي من أثارت عاصفة العواطف المحمومة وألقته بداخلها، كيف لها الآن أن تُخرجه؟

لمشاعره يدٌ وأغلال، أوقفَت الزمن، وطوَّقَت المكان، فلم تقوَ على الحركة، أو التفكير في المغادرة، يرنو إليها بنظرات مقتحمة تأكل المسافة الفاصلة بينهما، وتهدم الاعتبارات التي تجعل كلًّا منهما غريبًا عن الآخر.

يرنو إليها ككلمة فرَّت من قصيدة هو كاتبها، أو نغمة سقطت من نوتة موسيقية هو عازفها، وحده يعرف من تكون، وإلى أي سطر تنتمي.

أجلَت حلقها، قالت كمحاولة يائسة للوقوف في وجه العاصفة: «ماذا سيحدث إن رآني الممسوس؟».

انقبض وجهه، تجعدت قسماته، وتسارعَت أنفاسه، بدا وكأن التفكير في ذلك مبعث لألم رهيب غير محتمل، كمصافحة النار التي أحرقَت كليهما. حامَت الظنون فوق رأسه، وتقافزت الخيالات السوداء أمام عينيه، قال وما ودَّ أن يقول: «سينتزعكِ مني».

لا «سيأخذكِ»، وإنما «سينتزعكِ»، كأنها نَبتة مُتجذِّرة في تربته، فصلُهما سيؤلم كليهما معًا، سيغير جوهريهما.

استوقفها اختياره للكلمات، وخطفتها بغير إرادة العاصفة التي أحدثَتها عامدة دون احتساب العاقبة.

تلك قصته هو، قصته مع المرأة الميتة، وهذا الوجه الذي تحمله إنما هو تذكرتها لتلعب دور البطولة الزائف في قصة لا تخصها، تعرف ذلك، ويعرف ذلك، لكنه يتظاهر بعدم المعرفة بينما يرنو إليها كجزء من حكايته. وما أثار فزعها، أنها -وللحظة واحدة- ودَّت لهذا الدور الزائف أن يستمر.

خارج الكوخ، كانت ثمة عين متلصصة تراقب من بابه الموارَب ما يدور بداخله، كشر «كسَّار» عن أسنان غير متناسقة، يتحسس هراوته، ويتهامس لنفسه في انتشاء: «سيمنحني الممسوس مكافأة سخية جزاء هذا الخبر.. سخية للغاية».

***

اقتربت الجدة «أم الرمال» من باب البيت الكائن وسط حديقة الفواكه، طرقته مرة ثم انتظرت طويلًا قبل أن تعيد الكرة، وعندما أوشكت على الانصراف انفتح الباب. مدت الجدة عنقها وسددت عينها السليمة تجاه الفتاة كي تتبين ملامحها، قدمت «أم الرمال» واجب التهنئة إلى العروس الثالثة، عروس «هلال» التي سيكتمل بها العرس الثلاثي القريب: «مبارك يا عروسة».

مسحت العروس بأنامل رقيقة فوق ضفائرها الذهبية، ثم قالت بنبرات ناعسة كعينيها العسليتين: «ظننتكِ نسيتِني يا جدة.. ذهبتِ إلى دار «سلَّام» ودار «صدف».. وتأخرتِ في القدوم إلى دار «فَلَك».. رغم أنني عروس مثلهما.. عسى المانع خيرًا يا جدة!».

دُنيازاد

تقافزَت النجمة السابعة

فزعة وحيرة ومُغرِقة

في خيالاتٍ سوداء قاتمة

شكّلتها الأحداثُ الحارقة

قالت تتلفّت حولها

إن الخطيئة مآلها

نار وعُزلة وعقوبة

بيدِ الممسوس ستنالها

تلك التي تجرّأت

نزعَت المسمارَ وتمرّدَت!

الليلة السابعة والعشرون

الأناني لا يُضحي، والمُضحي لا يتصرف بأنانية، فهل تجتمع في إنسانٍ كلتا الخصلتين: الإيثار والأنانية؟

(1)

هذا يومها الأخير في دار أهلها، الليلة سيكون عُرسها.

أصبحت لها دار جميلة تخصها، لن تضطر ثانية إلى مشاركة الأغراض مع أخواتها السبع، ولا المشاجرة المستمرة على حصص الطعام لكل منهن. لن تشارك في أعباء الدار وزراعة الحديقة من بذر البذور وجني الثمار.

لن تضطر مرة أخرى إلى النوم في حجرة تضم ثلاثًا من أخواتها، يتشاجرن في العشية والإبكار.

ستُخرِس ابنة خالتها التي تسخر منها لتأخر زواجها، وتُفحِم تلك التي تُشكك في جمالها.

ستسبق أخواتها في الزواج وهي صغيرتهن، وبخاصة الكبرى التي تعطل زواجها لتباطؤ عريسها في بناء الدار، ستكون الفائزة الأولى في سباق الاستحقاق.

ارتسمت ابتسامة انتصار على شفتَي «فَلَك»، تُدلك ذراعيها بزيت زيتون بِكر، أحضرته أمها كهدية عُرس من معصرة «طوفان»، عَم «سلَّام» الذي يخاصم الابتسام.

عندما خطبتها أم «هلال» لابنها، اندهشت «فلك» من فورها؛ تراه كثيرًا في أثناء ارتيادها لطاحونته، طلبًا لطحن الحبوب والغلال. تقف في صف طويل من نساء الواحة وفتياتها، تكوي قدميها سخونة الرمال، وتلهب بشرتها حرارة الهواء، تناشد «هلال» أن يُسرع في طحن حبوبها قبل الجميع، فيأمرها بالعودة إلى الصف وانتظارها دورها.

تتأفف وتسبه في نفسها، لم تحسَب قط أنه مجذوب هائم بجمالها!

رجل لئيم نجح في إخفاء اهتمامه بأمرها، وافقت دون حاجة إلى المماطلة، فهو شاب يتحدث عنه الجميع بالخير، يخطبونه لبناتهم ويرفض بتهذيب، إلى أن فتنت قلبه ومَلَكت فيه التفكير. أرسل أمه لتطلبها له، ترك كل بنات الواحة

ووقع اختياره عليها بالذات، تفكرت في ذلك وقد اتسعت ابتسامتها، وتضاعف فخرها.

تنتقل «فلَك» من ذراعيها إلى قدميها، ورائحة زيت الزيتون الحادة تداعب حواسها، تتفكر في فارس أحلامها، الذي كان بعيدًا كُل البعد عن رجل مثل «هلال». كانت ولعامين كاملين ترى في الممسوس رجلًا يليق بفتاة مثلها؛ غامض، جريء، قوي، له حضور طاغٍ يهابه الجميع. لطالما قضت الليالي ساهرة بجوار النافذة تنتظر أن يقفزَ فوق الهاوية بحصانه الأسود المارد، وقد أطلق صهيلًا يشق السماء، فيختبئ الجميع في الزوايا والأركان، بينما هي تقف ساهمة أمام النافذة، تود لو يوليها شطرًا من اهتمامه؛ يراها، ويختارها، ويأخذها معه خلف الهاوية حيث يعيش، يتوجها ملكة على الواحة، وسيدة الجبل الأسود، فتتفوق بسطوتها على الساحرة ذاتها.

مرَّ بخاطرها الشاب الغريب الذي صادفها مرتين، واسمه العجيب الذي استحسنت حرفه ووصفه.. «مشتاق».

غريب في كل شيء، لفت انتباهها بالكثير؛ مظهره، كلماته، نظراته، وعينيها المرسومتين في صفحات دفتره.

ليس بركة راكدة كشباب الواحة ورجالها، بل حجر يُحدث دوامات عجيبة لا تنتهي، ولشَد ما يجذبها الاختلاف.

الواحة من حولها مُغرقة في الرتابة، لا جديد تحت سمائها، لا شيء مختلف، ودت لو تفارقها دون رجعة، إلى رحابة العالم الكبير بالخارج. تسمع من الغرباء التائهين عن أشياء تخلب لبها، وتسحر سمعها، وتثير فيها خيالات مثيرة.

رجل كـ «هلال» كان أفضل ما يمكن الحصول عليه في هذا المكان، لكن الغريب المشتاق، مهد الطريق أمامها مرة أخرى لأحلام الرحيل، وهذا ما أثار خوفها، لا منه، بل من نفسها.

***

نفدَ ماؤها، اليوم هو الأخير لها في الواحة، ستبقى حتى العُرس كما وعدت «سلَّام» ثم تُغادر مع مطلع الفجر.

لم تفكر قط حين استفاقَت في كوخ الأحدب، أنها ستشعر بهذه المرارة لحظة الفراق، أسبوع واحد قضته بين أهل الواحة، تأكل طعامهم، تلبس لباسهم، وتستظل بأشجارهم، وتتهادى في السير فوق رمالهم.

لم تشعر يومًا بالانتماء إلى مكان كما أحست في الواحة، كأنها خلقَت لحياة العزلة، والبساطة، والصحراء.

افترشت «سراب» الرمال تحلب بقرة يملكها «أبو الأحناش»، في سطل امتلأ نصفه بحليب رائق المذاق، ستفتقد الكثير هنا؛ الطعام الجميل من غير مكسبات طعم أو ألوان اصطناعية، الوجوه السمحة، والطبع الأصيل.

من غير انتباه انسكبت عبرة حزينة فوق وجنتها، وغشيت عينها غيمة تُنذر بانهمار المطر.

على ذِكر المطر، تذكرت الأحدب، ولقاءها الأخير معه في كوخه، حينما أسمعها صوته لأول مرة، سكبَت على جرحه مِلح الذكريات، لم تسامح نفسها على قسوتها، والحالة التي تركته عليها عند انصرافها.

كان مكومًا فوق الرمال، يحتضن نفسه؛ يحتمي من البرد، والألم، والذكريات. يصدر أنينًا متواصلًا، يلهث من غير انقطاع، رجل كبير بمشاعر طفل صغير.

يشيعها بعينين مدماتين، تناشدانها البقاء.

أراقت شيئًا من الحليب إذ اصطدمت بحجر، استعادت توازنها وإن كانت بداخلها تدور عاصفة رعناء، مشاعر متباينة تتكالب عليها، تعرقل قرار الرحيل، وتُصعِّب عليها دروب الفراق.

ليلة أمس، مرَّت الحنَّانة على دور العرائس الثلاث، تضع الحنة في كفوفهن، في احتفالية طويلة صاخبة.

عجنت الحنَّانة الحنة في أطباق من الخوص، تضمنت خلطتها الخاصة المسك طيب الرائحة، والحليب لإضفاء النعومة والنضارة.

وضعت الحنَّانة معجونها الخاص داخل محمل صينية الحنة؛ المحمل ذو قاعدة دائرية واسعة من الحديد، تنتهي من الأعلى بقاعدة دائرية صغيرة متخذة شكلًا هرميًّا، ثم دسَّت داخل عجينة الحنة عددًا فرديًّا من الشموع المشتعلة. وضعت الحنَّانة معجونها الخاص في كفوف الفتيات، وأرجأت

العروس إلى النهاية كما تقتضي العادات، ثم ربطت فوق راحتيها بقطعة من القماش لضمان بقاء الحنة على حالها إلى صباح اليوم التالي.

لم تتحمل «سراب» رائحة الحنة التي تكرهها، التي ذكرتها بزفافها المُجهَض؛ خرجت إلى الصحراء تجالس الصخور، وتفترش الرمال، ترنو إلى السماء يحدوها الشوق إلى السير تحتها في المساء، حين يسبح فيها القمر والنجمات، هذا الفعل الذي حُرمت منه منذ أن وطئت أرض الواحة، فالنهار لأهلها، والليل للممسوس ورجاله.

كانت قد انتهت من حلب البقرة وأعطت السطل لإحدى النساء كي تُدخله مطبخ الدار، عندما أقبلَت عليها «سلَّام» ترتدي فستان الزفاف. جميلة أكثر من أي وقت مضى، رائقة، دائمة الابتسام، بينما شمس الظهيرة تراقب الحدث في ابتهاج، بادرتها: «هيا يا «سراب».. ستأتين معنا إلى قارئة الصخور».

ودَّت لو تسألها من تكون «قارئة الصخور»؟ لكنها خشيت أن يتحشرج صوتها بالبكاء، أردفت «سلَّام» وقد دنَت منها إلى أن رأت الغيوم تغشي عينيها: «هل حان وقت الرحيل؟».

تحاملت كي تقول: «كما وعدتُكِ.. سأنتظر الزفاف.. ثم أرحل ما إن تنتهي الليلة، ويبدأ يوم جديد».

أمسكت بكفها، تشاركها الوداع الأخير، أحبتها «سلَّام» وإن كانت تعاملها بشيء من الحذر بعد واقعة «أم الرمال»، سيُحزنها ألا تتمكن من رؤية «سراب» مرة أخرى، وقد اعتادت وجودها في دارها، ومشاركتها الكثير، كأخت لها.

لم تملك «سلَّام» يومًا مكبحًا لمشاعرها، ولا رباطة جأش قوية كـ«سراب»، تركت عبراتها تنفلت من غير أن تحاول منعها، تقول صادقة: «سأفتقدكِ كثيرًا».

- وأنا يا «سلَّام».. سأفتقدكم جميعًا.

شدت كل منهما على يد الأخرى، ترنو «سلَّام» إلى الساعة التي أهدتها لها «سراب» في لقائهما الأول، وقد أحبت ارتداءها فوف أكمام فستان الزفاف أبيض اللون.

قالت «سلَّام» بكثير من الحنان: «أحب أن أهديكِ شيئًا أنا الأخرى».

- لا داعي يا «سلَّام».. استضفتِني في داركِ طوال هذه الفترة.. فعلتِ لأجلي الكثير.

- أنا أصر.. كما أنكِ ستحبين الهدية.

هزت «سراب» رأسها متسائلة بفضول، فقالت «سلَّام» بشيء من البشاشة، وقد أحبت أن يكون كل شيء في يوم زفافها جميلًا ومبعثًا على الابتهاج: «لكِ ثلاثة أسئلة أجيبك عنها مباشرة.. بلا تردد.. بلا محظورات».

أصابت «سلَّام»، فقد أحبت «سراب» الهدية، واشتعل فيها الحماس. تباطأت في القرار، إلى أن استقرت على أول أسئلتها، غير عابئة بالشمس التي تتوهج فوق رأسيهما: «كيف أصيب وجه «مطر» بالحروق؟».

أطرقت «سلَّام» قليلًا صوب الرمال، ثم رفعت رأسها تقول: «اشتعلت النيران في داره حين كان بداخلها.. كانت دارًا جميلة من طابقين، أكثر رحابة من الكوخ الذي يقيم فيه الآن.. لم يكن حادثًا.. كان حريقًا متعمدًا».

صدمها الجواب، كانت تظن أي شيء إلا أن يكون قد أصيب في حريق متعمد، من ذا الذي يريد به هذا الأذى؟.. تريثت قبل أن تنطق بالسؤال، تجاهد كي تتخير أهم الأجوبة التي تروي بها فضولها المتعطش قبل الرحيل، ستظل هذه الواحة وأسرارها مؤرقة لليالٍ طويلة بعد عودتها إلى القاهرة.

تفكرت طويلًا ثم رمَت بسؤالها الثاني: «هل تعرفين «أبو العيون» الذي أبحث عنه؟ أعرف أنكِ أجبتني بالنفي عندما سألتكِ أول مرة.. لكن كان هذا قبل لقائي مع الجدة «أم الرمال».. أشعر أنكِ فهمتِ الكثير بعد حديثها.. فهل تعرفين من يكون؟».

رمقتها «سلَّام» لبرهة ثم ابتسمت قائلة: «أنتِ ذكية.. نعم لم أعرفه حين سألتني أول مرة.. لكن بعد لقائكِ العاصف مع الجدة.. عرفته.. لم أخبركِ لأنني حقًّا أخشى الجدة.. كلمتها سيف على رقابنا.. أما الآن وقد اخترتِ هذا السؤال.. سأجيبك يا «سراب»».

شحذت «سراب» كل انتباهها، توقفت نظراتها عند شفتَي «سلَّام» وهي تقول: «هذا الرجل بدَّل اسمه بعدما سكن الواحة.. لن أخبركِ عن اسمه الجديد كي لا أخون ثقة الجدة.. فهذا تحديدًا ما ائتمنتني عليه وجعلتني أقسم بعدم الإفصاح عنه.. لكن ما أستطيع أن أقوله لكِ إنه رجل جيد أوقعه حظه العاثر في طريق امرأة سيئة أرادت بنا السوء.. رجل طيب تزوج بساحرة!».

هذا ما لم تتوقعه ولا في أسوأ أحلامها، تساءلَت وقد صدمتها المفاجأة: «هل تقصدين أن جدي تزوج بوالدة «صدف»؟».

- كلا.. اسمعي يا «سراب».. السحر لا يتوارث في واحتنا.. لا ترث ساحرة ساحرة قبلها، تظل إحداهن على عرشها إلى أن تظهر ساحرة جديدة.. تستعين بالجن الذي يعيش في الجبل الأسود وتسخره لأجلها.. تتناحر الساحرتان إلى أن تفوز الأقوى منهما.. المرأة التي تزوجها جدك كانت ساحرة الواحة تعيش بيننا لسنوات طويلة إلى أن غلبَتها والدة «صدف» وأنزلتها عن عرشها.. ثم توهَّجت والدة «صدف» بمهارتها وبراعتها وأصبحت ساحرة الجبل، صارت تعيش داخل الجبل الأسود في حماية الممسوس ورجاله.

تخبطت في رأسها آلاف الأسئلة، ولدقيقة كاملة عجزت أن تتخير سؤالها التالي. ودت لو تتحصل على كل الأجوبة دفعة واحدة، لكن الحياة لا تمنح شيئًا بهذا الكرم.

استجمعت أفكارها، ثم نطقت بسؤالها الأخير: «أين أجد جدي «أبو العيون»؟».

رنَت «سلَّام» صوب الأفق ولم تجِد بنظرها، التفتت «سراب» تتطلع حيث تنتهي نظرات «سلَّام».. هناك، عند الطرف الآخر من الهاوية!

كانت تبحث عن جدها في المكان الخطأ، «أبو العيون» لا يعيش في واحة زرزورة، إنه هناك، يسكن الجبل المهيب في الجارة السوداء!

عرفت ذلك بعد فوات الأوان، نفد منها الوقت، وانتهى ما تحمله من الماء.

مر بخاطرها سؤال مهم، تعرف أنها لن تستطيع أبدًا أن تسأله لـ «سلَّام»، بعدما استهلكَت الهدية من أولها لآخرها؛ عندما أخبرتها «سلَّام» أن «مطر» نُبذَ لأنه حاول قتل الساحرة، هل كانت تقصد والدة «صدف» ساحرة الجبل التي تعيش في حماية الممسوس، أم ساحرة الواحة القديمة التي تزوجها جدها؟

أي الساحرتين تسببت في قطع لسان جدتها، وإصابة حفيدتها بلعنة الاحتراق كلما دنا منها رجل يبغي الزواج؟

أيتهما غريمتها، التي تملك دواء علَّتها؟

كانت تحسَب أن مهمتها عصية، أدركت الآن أنها كانت مستحيلة من البداية، مهمة خُلِقت لتفشل.

لن تعرف الحقيقة أبدًا، لن تنفك لعنتها أبدًا، كانت تركض خلف السراب، وآن الأوان كي تستفيق، وتعود إلى جدتها التي تركتها على فراش المرض، تؤنسها في أيامها الأخيرة، وتعتاد مذاق الوحدة التي سترافقها إلى الأبد.

وجهت بصرها إلى السماء تقول بمرارة هازئة: «أرأيتِ يا شمس ويا كواكب في مداراتها؟.. «سراب» التي لا تستسلم أبدًا، رفعت راية الاستسلام».

***

(2)

تلكأت «صدف» في ارتداء فستان الزفاف الذي أهداه لها «أبو الأحناش» كما لو أنها ابنته، لحظتها كرهَت اللون الأبيض، وصوت الزغاريد، وما نما إلى سمعها من أهازيج[1] وأناشيد.

رفضت أن تدع الحنَّانة تدنو منها، وكانت العروس الأولى للواحة التي لا تُحنِّي كفَّيها، ولا ترسم فوق ذراعيها وقدميها.

تهربت من حشد النساء في دارها، واعتكفت في غرفة أبيها، تجالسه فوق فراشه، وقد تكالب عليه المرض، يتشاركان بكاءً عاجزًا، وحديثًا في صنوف القهر مغموسًا.

في الصباح ذهبت إلى دكان التوابل، لتلقي على «قوس» النظرة الأخيرة، قبل أن تكبَّل بقيود الزواج الحديدية. كان الدكان مغلقًا، حُرمَت حتى من الوداع الأخير.

جذبتها النساء للذهاب إلى دار قارئة الصخور، فرافقتهن مرغمة.

قارئة الصخور امرأة مستبصرة، تجيد رؤية المسارات التي تتخذها الرمال فوق صخور سوداء صغيرة، اقتُطعت من جسد الجبل الأسود المهيب، ابتاعتهم بعشر عملات ذهبية كاملة من أحد رجال الممسوس، تقرأ بها الطالع، تنظر في دفاتر المستقبل، وتقتبس منه ما تشاء، هكذا يعرف أهل الواحة مهمة قارئة الصخور. يبجلون مهمتها الجليلة، التي لطالما أنذرتهم بمجيء عاصفة ترابية، ومنعت الواحد منهم من الوقوع في كارثة الزواج بامرأة لا تناسبه، أو الدخول في تجارة كاسدة، أو زراعة محصول سيأكله الدود.

اجتمعت زمرة من النساء في دار قارئة الصخور، تلك المرأة التي لها من البنات ثمانٍ، إحداهن هي العروس الثالثة «فَلَك».

---

(1) موروث شعبي من الأغاني العامية، مفرده أهزوجة.

جلست العرائس الثلاث بفساتين الزفاف، ملتفات حول قارئة الصخور، بعد أن رحبت بالقادمات إلى دارها ذات الطابقين وسط حديقة الفواكه، وقدمت لهن واجب الضيافة من القهوة والرُّطَب.

ترنو بزهو إلى ابنتها الحسناء بفستانها الأبيض الذي خاطته بنفسها، وقد تغلبت على العرائس في الجمال، فكَّت الضفائر، وصنعت بشعرها فوق رأسها تاجًا ذهبيًّا. تجلس في الوسط كملكة، والعروستان الأخريان وصيفتاها.

منحت قارئة الصخور كل واحدة من العرائس صخرة سوداء صغيرة في حجم عقلة إصبع، طلبت منهن وضعها في أفواههن حتى حين، ثم يلقين بها في طست مستدير من النحاس ممتلئ بالرمال، وضعته القارئة أمامها.

أخذت تقلب الصخور الندية في الرمال، ثم ترفع واحدة بعد واحدة بين سبابتها وإبهامها، تنفضها لتتخلص من الرمال الزائدة، ثم تشرع في قراءة مسار الرمال العالقة، التي تحكي قصة لا يتمكن سواها من قراءتها.

تأخذ وقتها، دون أن يستعجلها أحد. ترنو إليها الأعين برهبة، وتتعلق بشفتيها الأفئدة، في انتظار ما ستقوله المرأة الملهمة. تعتدل قارئة الصخور أخيرًا في جلستها، ترتدي جلبابًا مزخرفًا متعدد الألوان، وقد ربطت منديلًا قماشيًّا ملونًا حول رأسها، تعقده في عقدة مزدوجة، خاطت به حجارة صغيرة ملساء. تتطلع إلى العرائس الثلاث، ثم تقول مؤكدة: «عروستان سيكتمل زفافهما، والثالثة ستظل بلا تمام، مثل قمر الواحة في طور الأحدب[1]».

وقع كلامها كسيف ينحر أعناق البهجة، وحط على رؤوس النساء طير الوجوم. اضطربت «سلَّام» وقد خُيِّل لها أنها العروس الناقصة، التي لن تكتمل فرحتها هذه الليلة. وكذا مرَّ التوتر فوق قسمات «فَلَك» وقد خشيت الفضيحة والشماتة. وحدها «صدف» أخذت تدعو ملء فؤادها، أن تكون العروس الثالثة، فيفسَد من حيث لا تحتسب زفافها.

تتابع «سراب» ما يحدث بوجه منزعج، دون أن تتفوه بكلمة واحدة منذ أن دخلت الدار، تحدوها رغبة حثيثة في قلب طست النحاس وما به من رمال فوق رأس القارئة، مالت صوب «سلَّام» تقول بحدة: «ما هذا العبث؟.. هذه المرأة دجالة.. لا يعرف الغيب إلا علام الغيوب».

---

(1) يمر القمر بعدة أطوار على مدار الشهر؛ هلال، ثم تربيع أول، ثم أحدب متزايد، ثم بدر، ثم أحدب متناقص، ثم تربيع ثانٍ، ثم هلال ثانٍ، ثم محاق آخر يوم بالشهر.

نهرتها «سلَّام» هامسة: «احذري أن تسمعكِ.. كلنا نثق في كلامها.. صدقت قراءاتها ألف مرة ولم تخِب إلا مرات معدودات.. هذه امرأة مبروكة».

- هذه امرأة لا ذمة لها.. وتقعون جميعكم في ذنب عظيم بطرق بابها وتصديق هرائها.

اتسم همس «سلَّام» بحزم أكبر وهي ترنو إليها قائلة: ««سراب» لا تتدخلي فيما لا تفهمين.. أنتِ لن تكوني هنا صباحًا على أي حال.. واحذري أن يسمعكِ أحد.. فأنتِ تتحدثين بحديث المرأة الميتة نفسه!».

- أي امرأة؟

- تلك التي بقيت عظامها في البئر المهجورة.. المرأة التي لا نحب ذِكرها.

حتى وإن أثارَت غضب «سلَّام» واستياءها، لم تستطع «سراب» منع نفسها من أن تقول بقوة ووضوح: «إذا كان هذا ما كانت تقوله المرأة الميتة التي تكرهونها.. فهذا يجعلني أفكر في كل ما تعتقدون.. يبدو أن القصة ليست كما تؤمنون يا «سلَّام»!».

***

بينما لا يزلنَ في دار قارئة الصخور، فُزعت «سراب» عندما رأت «مشتاق» يتطلع من خارج النافذة، مُقلبًا عينيه في النساء بالداخل.

انتفضت في غضب، خرجت من الدار، والتفت حولها، مُمسكة إياه بالجرم المشهود، أخرجت النبلة من ردائها، والتقطت حجرًا صغيرًا بين الرمال، قالت وهي ترشقه مسددة إياه إلى رأسه وقد أصابت هدفها: «ألن تتوقف عن هذا الفِعل الخسيس؟».

ودت لو تنهره أكثر وتصرخ في وجهه معنِّفة، لولا أنها خافت أن يسمعها أحد، فيتعثر أمر رحيلهما عن الواحة بالهدوء الذي دخلاها به.

لم يبدُ أنه انزعج لرؤيتها، ولا تألم لضربتها، كان وكأنه ينتظر خروجها، غير نادم على فعلته، سألها بلهفة، بكل اللهفة: «هل «فَلَك» هي العروس؟».

توقفت «سراب» لبرهة تسأله بريبة: «من أين تعرف الفتاة؟».

- رأيتها في الواحة.

- أنا أرى رجالًا طوال الوقت في الواحة إلا أنني لا أعرف أسماءهم.

- لم تجيبي عن سؤالي.. هل هي العروس؟

- هي إحدى العرائس الثلاث في الزفاف المشترك اليوم.

كانت تجيد قراءة الوجوه، لا تنجيمًا وادعاءً كما تزعم قارئة الصخور، قراءة حقيقية مكنتها من أن تربط وجهه المحتقن ونظراته الغائمة المشتتة بحديثه السابق عند الهاوية.

ضيَّقَت عينيها، ثم قالت لما رأت الانفعال يتسرب من قسماته: «لا تقُل لي إن «فلَك» هي الفتاة التي حدثتني عنها!».

- لا.

قالها بغضب جعلها تشكك بما أقر به، تركها غير عابئ بنداءاتها من خلفه.

لم يرحل «مشتاق» كما ظنت، التف حول الدار يتخير نقطة غير مكشوفة تصلح للتسلق، قفز من النافذة المشرعة إلى الداخل، مكث في مكان غير مرئي وانتظر.

بعد وقت غير طويل، رأى «فلَك» تدخل إحدى الغرف، تبعها وأغلق الباب من خلفه، فزعت الفتاة كأنها رأت عفريتًا أو ما هو أسوأ: «هل فقدتَ عقلكَ.. كيف دخلتَ داري.. ماذا تفعل في غرفتي؟».

- لماذا تتزوجين؟

لم تدرك الفتاة أنها التقت شخصًا من النوع الذي إذا هامَ تعلق، وإذا تعلق ضاقت الدنيا أمام عينيه فلا يرى إلا هدفه، حتى يمل أو ييأس.

لم تعرف الفتاة أنه من النوع الذي يَترُك ولا يُترَك.

- وما شأنكَ؟

- أنتِ جعلتِه من شأني.

- لم أعدكَ بشيء.

- لستُ بالرجل الذي يحتاج إلى وعود منطوقة، تكفيني نظرة لأثق.

رمقها في لوعة، وقد بدا على شفا الجنون، تكالبت عليه ذكريات الليالي الطويلة التي أمضاها في رسم عينيها، ونسج قصة حب عاصفة تجمعه بصاحبة العينين الناعستين عندما يعثر عليها. وضع فيها منتهى آماله، ومُبتدأ حياته الحقيقية، كل ما قبلها كان زائفًا، يلعب فيه دورًا رُسم له، لم يحبه، ولم يختَره، وحدها هي ما أحبه واختاره، فرصته الوحيدة ليعيش حياة حقيقية.

توهجت في رأسه هذه الفكرة التي غذَّاها بخيالاته، إلى أن تملكت منه، وسيطرت عليه، وجد الفتاة التي سيبدأ معها حكايته، لن يتركها وإن كان في هذا الصراع نهايته.

- هل يرغمونكِ على الزواج؟

رأت في سؤاله مخرجًا للمأزق الذي وضعت نفسها بداخله، أجابته تسترق السمع صوب الممر: «نعم.. نعم.. أنا مضطرة إلى الزواج.. ها قد رأيتَ أنني ضحية في هذه الحكاية.. هيا غادر الآن قبل أن يراكَ أحد وتتسبب لي في فضيحة».

سمعت «فلك» صوت حركة في الرواق، قالت وقد أصابها الفزع: «ستأتي أمي بعد قليل.. أرجوك اذهب».

- لن أذهب من دونكِ.

- كيف آتي معكَ.. أنا عروس!

قال وقد تملك منه الهوَس، وغاب عن حديثه المنطق وسداد التفكير: «سأطلبكِ من أبيكِ الآن».

- أنتَ حقًّا مجنون!

الجنون فقدُ السيطرة على العقل، وانزلاق المنطق من بين الأنامل، والانحياز للظنون والخيالات، ووفق هذا التعريف كلنا مجانين بقدر ما، هذا ما فكر فيه «مشتاق» عندما رمَته ذات العينين الناعستين بالجنون.

هل رسم الرجل الآخر عينيها قبل أن يراها، هل علَّق عليها -كالمشجب- آماله وأحلامه، هل يراها كصمام أمان لحياته القابلة للانفجار؟

إذن هو أحق بها منه، تراه «سراب» شابًّا تافهًا لا يتحلى بصفات الفارس، غير قادر على التمسك بشعور حقيقي، لكنها مخطئة، سيثبت لها أنه يجيد فنون الحب بأكثر مما تجيدها.

خرج من النافذة من غير وداع، لا يليق الوداع إلا بالنهايات فحسب، لكنهما لا يزالان في مبتدأ الحكاية.

راقبته «فلك» يتسلق الجدار نزولًا إلى الأسفل، رغم الرعب الذي شعرت به، أعجبتها المغامرة، وما قذفته في دمائها من إثارة ودهشة.

وكانت المرة الأولى التي يحدث لها ما يُدهشها، في تلك الواحة الرتيبة المملة.

***

اجتمعت النساء في دور أهل العرسان؛ «جمعان» و«هلال» و«كسَّار»، من أجل احتفالية الخبيز.

قمن باحتفالية تنقيح الغلة بالأمس في بدارات[1] كثيرة، وقد جهزن غلة القمح وانتهين من طحنها وتجهيز الدقيق استعدادًا للخبز اليوم لـ «عزومة الفرح».

أعددن الخبز الشمسي، بعد العجن في الماجور، وتقطيع العجين قطعًا متساوية ووضعها على الكرسة[2] في مساحة مشمسة.

فيما يحضِّرن الفتيات الصغيرات وقود الفرن البلدي من القش والحطب.

بعد الخبز الشمسي، وعلى أنغام الأناشيد، خبزن الكعك والفطائر والقرقوش[3] والمنون[4]، وأرسلنها إلى بيت العرسان لمدة سبعة أيام من بعد الزفاف.

انغمس الرجال في احتفالية زفة العجول وسط ساحة المرح، يجاملون أهل العرسان بما يملكون من ثيران قوية البنيان، يرقصون بها مع العجول التي ستُذبح بعد قليل لإعداد وليمة الزفاف.

زين أهل الواحة الثيران بشارات ملونة حول رقابها، فيما تميزت العجول التي ستُذبح بشارات حمراء، ثم صفُّوها في دائرة متسعة بوسط الساحة. يؤدي أحد الشباب فقرة راقصة، يحمل فوق رأسه محمل القلل المصنوع من خشب السنط، والمزخرف بالخيط والمغرة الحمراء، وفوقه أربع قلل مملوءة من ماء البئر المسحورة.

غاب العرسان الثلاثة عن ساحة المرح، في هذا التوقيت ينغمس كل عريس في احتفالية الحلاقة، يمر حلاق الواحة على دور العرسان، يأتي أصحاب

---

(1) البدارة هي أكبر أواني الخوص.

(2) تُصنع من الروث والتبن وبعض من رماد الفرن.

(3) الفايش.

(4) نوع من الفطائر الصغيرة، تؤكل طازجة مع الشاي.

العريس لتقديم «النقوط»، يضع صاحب النقطة عملاته الذهبية في طبق به ماء، ويرتفع صوت الحلاق بعَد النقوط، التي يحصل عليها الحلاق لنفسه كاملة.

كانت أم كل عروس منشغلة في إعداد وجبة عشاء العروسين، من قلب وكبدة ذبيحة وليمة الزفاف، وفي دار «سلَّام» أعدت الوجبة زوجات الأعمام[1].

في تلك اللحظة بالذات شعرت «سلَّام» بالحنين إلى أمها.

انسلت من بين الجمع، رمَت فوق فستان زفافها رداءً أسدلَت مقدمته على وجهها، ثم سارت بين الناس دون أن يتعرفوها، وتوجهت صوب مدافن الواحة بالقرب من البئر المهجورة.

جاورَت موضع أمها الراقدة تحت الثرى، تبكي كأنها فقدتها للتو، تود لو كان الله قد أمهلها الوقت، لترى «سلَّام» عروسًا في فستان الزفاف. صنع لها «أبو الأحناش» أجمل الأثواب، إلا أنها فضلت أن ترتدي الثوب نفسه الذي ارتدته أمها ليلة زفافها.

مسحت فوقه بأنامل الحنين، كأنها تمررها على جسد أمها، هدأت وطأة الشمس ولهيبها، ورأتها تميل من فوقها، فأسرعت بالعودة إلى دارها. على الزفاف أن ينتهي عند المغيب، قبل أن تلتحف السماء برداء أسود وتحين الساعة المحرمة.

لما كانت على مشارف دارها، رأت عمها «طوفان» وابن عمها «هلال» واقفين تحت السقيفة، منهمكين في حديث مهم.

تعرف أنهما قريبان من بعضهما، ربما لأن سنوات قليلة تفصل بينهما، أثار تجمعهما في هذا التوقيت بالذات الكثير من فضولها، تساءلَت: *لماذا فارقا ساحة المرح بينما شيخ الواحة على وشك الحضور لعقد الزواج؟*

مرت بالقرب من نخلة سامقة، تقع في خلفية السقيفة، لم تتعمد استراق السمع، إلا أن اسمها تردد مرتين في جملة واحدة، مما دفعها لأن تقترب أكثر من النخلة، وتستتر بساقها.

كان «طوفان» يضرب المقعد القريب بقبضته، يقول بغضب متنامٍ لا يهدأ: «لو كان ما يُقال صحيحًا.. لن يفلت من يدي».

---

(1) بعض مظاهر احتفالية تنقية الغلة والخبيز ورقصة العجول والحلاقة، من تراث بعض قرى الواحات الداخلة.

قال «هلال» يحاول تخفيف حدة عمه: «لا يجرؤ على إحزان «سلَّام».. يعرف أننا لن نسمح له».

عقدت ما بين حاجبيها ما إن رأت «جمعان» مقبلًا على السقيفة، تابعت حديثهم في اهتمام. قال «جمعان»: «ها أنا قد أتيتُ، ما هو الأمر المهم؟».

التفت له «طوفان» بكامل جسده، يتفوق عليه في القامة والمهابة، يسأله إن كان قد أفضى لأصدقائه بعدم رغبته في الزواج بـــ «سلَّام».

تجمدت «سلَّام» في مكانها، وتلجلج «جمعان» إذ أنكر في مستهل حديثه، ثم فضحه توتره، ورغبته الحثيثة في الفرار، قال بعنف من غير مواراة: «لم أكذب بشأنها.. يعرف أبي أنني لا أريدها.. لكنني لا أعصي له أمرًا.. فما المشكلة في أن أفضي إلى أصدقائي بما أحمله في صدري؟».

صفعه «طوفان» صفعة قوية أدمَت شفته العلوية، وأحدثَت شرخًا في كرامته، وقد شعر أن رجولته قد تعرضت لصفعة مماثلة.

اندفع ينقض على «طوفان»، فما كان من «هلال» إلا أن أوقفه بقبضة عاجلة، أدمَت وجهه في غير موضع، وآلمته أشد الإيلام.

أطلقت «سلَّام» شهقة خفيفة كتمتها بكفها، بينما «جمعان» يصيح في اهتياج: «لم أرغب يومًا في الزواج بابنتكم المريضة.. إن كان هناك من هو أولى بها فإنه «هلال» ابن عمها.. لماذا تلقون بها فوق عاتقي وكأنني لا أصلح إلا لسَقط النساء؟».

كان لوقع «سَقط النساء» تأثير خنجر مرشوق في منتصف قلبها، اعتصره الألم وأدمته الصدمة بما يفوق قدرة جسدها على الاحتمال.

لم تستطع سماع المزيد حتى وإن ودَّت، تحاملت على نفسها، تقبض على صدرها بكفها، وبالأخرى تستند إلى الجدران، إلى أن أتت غرفتها من الباب الخلفي للدار.

سقطت فوق فراشها لاهثة، تجتر المهانة والنبذ، كأنها كما قال «جمعان»؛ سَقط النساء، ناقصة، لا تليق بأي رجل في الواحة، أي رجل.

بكت حتى ظنت أنها ستسقط أرضًا مسلوبة الوعي، أخذت مسحوق الدواء وحاولت تهدئة قلبها بتنظيم تنفسها كما علمها مطبب الواحة.

إن كانت قد حزنت لأجل نفسها مرة، فقد حزنت لأجل أبيها مرات مضاعفة، لو أنهت الزفاف قبل أن يبدأ، لقتلت حلمه في المهد، ولا شيء قادر على كسر

«أبو الأحناش» مثل فكرة أنها فتاة ينبذها الرجال، لن يرافقها في الحياة من بعده سوى الوحدة والخذلان.

كيف تخبره أن «جمعان» لا يريدها؟ وأنه سيظل إلى نهاية عمره الأب الذي يتآكل قبله قلقًا وحسرة على ابنته الوحيدة؟

ماذا إن حدثت معجزة وأحبها «جمعان»؟ لم يحب «أبو الأحناش» أمها قبل زواجهما، ما إن جمعتهما دار واحدة حتى قذف الله بحبها في قلبه، فلماذا لا يكون لها قصة مماثلة؟

- كل شيء سيكون طيبًا.

تهامست لنفسها، وقد تباطأ نبضها، وخف الألم، عليها أن تفكر في الأمور الجيدة، وتصرف عن رأسها أشباح الظنون والمخاوف، كما قالت لها «أم الرمال» ذات مرة: «ما تُفكرين فيه اليوم، ستُلاقينه صباح الغد».

ستتظاهر أنها لم تسمع، ولم تكن قبل ذلك بحاجة إلى أن تسمع، كانت تشعر، وتظاهرت أنها لم تشعر، عليها أن تستمر في لعبة التظاهر لا أكثر، اللعبة السرية التي ابتكرتها بنفسها.

فتحت أحد الأدراج وأخرجت هدية الزفاف التي اختارتها لـ «جمعان»، كوفية صنعتها بيديها، وخاطت على طرفها بخيوط الحرير أول حرف من اسمه، لم تشترِ الهدية، صنعتها على عينيها كي تكون فريدة، خاصة، لا يكون لرجل في الواحة شبيه لها.

انتهى تجمع السقيفة بمغادرة «جمعان» الذي يعجز عن العصيان، وعندما وسمه «طوفان» بـ «الجبان»، تحداهما إن كان أحدهما يجرؤ على إفساد الزفاف. وفي الحقيقة لم يكن أحدهما ليجرؤ على تدمير فرحة «سلَّام» وهدم أحلام «أبو الأحناش».

شعر «هلال» بالحمل يثقل فوق عاتقه، لو لم يكن أنانيًّا جدًّا لخالف أهواء قلبه، ولتزوج هو بـ «سلَّام»، ضاق بحمله فأفضى به في لحظة اختناق. ما إن صرح بذلك حتى نهره «طوفان» بغلظته: «ومن قال لكَ إن «سلَّام» كانت لتقبل بكَ؟».

زفر «هلال» وقال في ضيق: «جاءتني «أم الرمال» قبل يومين وأخبرتني أنها كانت تود لو كنتُ أنا من تزوج «سلَّام».. من يومها وأنا أشعر بالاختناق يا عمي، كما لو أن جبلًا حط فوق صدري».

- أنتَ أحمق يا «هلال».. «سلَّام» لم تنظر إليكَ يومًا بهذه العين.

ثم قال في تجهم: «تلك المرأة لا تعرف ما تقول».

رنا إليه «هلال» بفضول: «لماذا تبغض الجدة «أم الرمال» يا عمي؟».

رد «طوفان» باقتضاب: «لا أبغضها.. لكنني لا أحبها مثلكم يا «هلال»».

ثم أضاف بتوتر وانفعال: «ماذا سنفعل بشأن هذا السمج؟».

هز «هلال» كتفيه، وقد خففت كلمات عمه الكثير من هواجسه: «حذرناه وأخفناه.. سيتوقف عن التفوه بالتفاهات لأصدقائه بعد الآن».

قبل أن ينطلقا صوب ساحة المرح ليعقد «هلال» الزواج على عروسه، نظر إليه «طوفان» يسأل بقسمات جامدة: «وماذا بشأن أنه لا يحبها؟».

قال «هلال» وقد كان شابًّا عمليًّا لا يتوه كثيرًا في سراديب الشعور: «الحب ليس دافع الجميع للزواج يا عمي.. على الأقل لن يُحزنها.. لن يجرؤ في وجودنا، سنكون له بالمرصاد».

***

(3)

اتفقت «سراب» مع «مشتاق» على أن يلاقيها في دار «عبد البر» فجرًا لأجل وداعهما الأخير.

قرر «مشتاق» البقاء في الواحة وخابت كل محاولاتها لإقناعه بالرحيل، ضربت له موعدًا عند الفجر، وليس في نيتها أبدًا تركه فريسة لأهوائه، وصيدًا سهلًا لنزواته الشخصية.

قررت وضع مسحوق منوم في مشروبه، أخذته من دار «سلَّام»، وصفه مطبب الواحة لـ «أبو الأحناش» الذي رافقه الأرق لأيام.

ظلت يومين كاملين تعد الخطة، بتفاصيلها كافة، بعدما يسقطه المسحوق في بئر النوم، وما إن تشرق شمس يوم جديد، ستطلب من أحد رجال الواحة مساعدتها في حمل «مشتاق» حتى البوابة الحجرية، ومنها ستجذبه إلى الخارج، وما إن تصبح خارج الواحة ستخرِج من حقيبتها الألعاب النارية التي حملتها معها من القاهرة، كخطة بديلة أعدتها في حال لم يعمل اللاسلكي. وبما أن «مشتاق» قد نسي إحضار اللاسلكي من الأساس، فلا تملك إلا السير وفق خطتها البديلة. ستطلق الألعاب النارية في السماء كما اتفقت مع «مسعود»، الدليل كبير السن، كثير الخبرة، الذي عرَّفها بـ «رمَّاح» متقفي الأثر.

كانت قد أنقدته مبلغًا سخيًّا نظير أن يعسكر في المناطق الفسيحة بالقرب من الجلف الكبير، حيث كانت تعرف أنه الموضع الذي عثر فيه جدها على واحة زرزورة، ينتظر إشارتها المتفق عليها.

ما إن يرى «مسعود» الألعاب النارية سيتمكن من تحديد موضعهما، سيأتي بسيارته لحملهما في رحلة العودة خارج الصحراء الغربية، لقاء مبلغ أكبر وعدته به.

لن تترك «مشتاق» خلفها، لم تأتِ إلى الواحة لتخسر فردًا آخر من عائلتها.

بينما تجهز حقيبتها، وتتأكد من وضع طعام كافٍ في حال تأخر «مسعود» في العثور عليهما، أخرجت الرداء والوشاح اللذين أهداهما لها «مطر»، وقررت ارتداءهما في رحلة العودة.

كانت تتحرك بآلية، تتصرف بعقلانية، مخافة الوقوع فريسة عواطفها فيتزلزل صمودها، ويخونها البكاء.

لم تودع «سلَّام»، تكره «سراب» الوداع، اكتفت بحديثهما الأخير والهدية، تسللت من الدار المزدحمة بالمهنئات، وسارت في الطرقات الخالية من رجال الواحة، إذ يجتمعون في ساحة المرح، لا يتخلف منهم أحد.

ليلة أمس، راودها الحلم المقبض مرة أخرى، امرأة بلا وجه ترتدي الأبيض، تركض بلا انقطاع، و«سراب» تقتفي أثرها هذه المرة، في محاولة لإنقاذها، لكن المرأة تسقط في البئر في اللحظة الأخيرة التي أوشكت فيها «سراب» على الإمساك بذارعها.

تسقط ميتة من فورها، بلا كلمة، بلا صرخة.

تستفيق «سراب» فزعة من الحلم المشؤوم، ظلت طوال اليوم تحمل طاقته السلبية بداخلها، تتحرك بها، ولعلها هي المحرك الأساسي الذي يدفعها الآن للذهاب إلى البئر المهجورة، لتوديع المرأة التي لا تعرفها.

كانت هناك في القاع، عظام لا حول لها ولا قوة، يغطيها رداء متهالك، لاكته الرياح، وأبلته الأمطار.

على ضوء الشمس التي تميل صوب المغيب، انتبهت فجأة إلى شيء يلمع في القاع، جثت على ركبتها، اشرأبت بعنقها، ودققت النظر.

هناك في الأسفل كانت ثمة قلادة فضية تعكس أشعة الشمس، ملتفة حول فقرات رقبة الهيكل العظمي، وتسبح الدلاية المعلقة بها في الرمال بجوارها. رمال حركتها الريح قليلًا لتتبدى القلادة بوضوح أكبر، في تلك اللحظة اندفع الأدرينالين يغزو دماءها!

أخرجت القلادة الفضية الملتفة حول رقبتها، التي تحتفظ فيها بصورة قديمة لها قبل عمليات التجميل، قبضت عليها بأناملها بقوة متناهية، إذ كانت نسخة مطابقة للقلادة الملتفة حول رقبة المرأة الميتة!

ما احتمال أن تلعب الصدفة دورًا حيويًّا يجعلها تملك قلادة مشابهة لقلادة امرأة ميتة لا تعرفها تعيش في واحة مسحورة لم تزُرها قط؟ الاحتمالية هي صفر، ليست صدفة أبدًا.

هل أخذت جدتها هذه القلادة من الواحة قبل فرارها؟

هل أهداها لها جدها، أو أحد أبناء الواحة، أو إحدى نسائها؟ إذن لماذا لم تخبرها الجدة بأهمية تلك القلادة وأنها إلى الواحة المسحورة تنتمي؟ لماذا أهدتها لها في عيد مولدها الأخير ولفتها حول رقبتها كأي قلادة عادية؟

فتحت «سراب» قلادتها بأنامل مرتجفة، تحسست وجهها القديم الذي تواريه في قلبها.

أغلقت القلادة وأخذت تتأمل تفاصيلها من الخارج في اهتمام كبير، أكثر مما فعلت يومًا؛ ناعمة الملمس، فضية اللون، دقيقة الصنع، لا تخلو من اختلاف طفيف في الزوايا كأنها مصنوعة يدويًّا، في منتصفها شجرة بارزة لها من الغصون ثلاثة.

لم تتوقف يومًا عند هذا الرسم لكنها تتوقف الآن، لماذا للشجرة ثلاثة غصون فحسب؟

دققت النظر إلى قلادة المرأة في قاع البئر، من المسافة بينهما لم تستطع رؤية تفاصيل دقيقة كالشجرة والغصون، لكنها ميَّزت بوضوح الشكل البيضاوي للقلادة، وأطرافها المزخرفة برسوم هندسية متعرجة ومجوفة.

شعرت بالوهن الشديد، أخرجت من حقيبتها آخر رشفة ماء تملكها، لم تكن كافية لترميم قوتها.

كانت ناقمة، ويائسة، وغاضبة، لا شيء تستطيع وضعه في موضعه الصحيح، ولا شيء يزعجها أكثر من أن تفقد السيطرة، والإرادة، والوجهة، والدليل، ولشد ما يحبطها ألا تكون عنصرًا فاعلًا.

نما إلى سمعها مناداة الرجال للاجتماع في ساحة المرح لعقد قران العرائس الثلاث، بعدما انتهوا من تناول وليمة الزفاف.

تزايد شعورها بالسخط، وذكرتها قلة الحيلة بفتاة أخرى تشعر بالضياع والخذلان، فتاة لا تملك أن تتحدث، فتاة لا صوت لها.

تحركت مندفعة صوب الساحة، تفتش بلهفة عن شخص بعينه، تسأل أحدهم، فلا يجيبها، مستنكرًا وجودها في ساحة يتجمع فيها الرجال، يجيبها آخر، فتتوجه من فورها إلى الشخص الذي تريد.

- يجب أن أتحدث إليكَ في أمرٍ طارئ.

قالتها للرجل الواقف قبالتها، الذي رسم على وجهه ابتسامة هازئة مرددًا: «الآن؟».

- الآن.

في ركن قريب وقف عاقدًا ذراعيه أمام صدره، يسألها بلا مبالاة عما تريد. تستجمع شجاعتها، ترتب كلماتها، وقد قررت أن تكون صوت الفتاة التي خذلها صوتها، كما خذلها الجميع. تقول في قوة غير عابئة بالعاقبة: ««صدف» لا تريد الزواج بكَ».

يُطلق «كسَّار» ضحكة جوفاء، تذبل بالسرعة التي نمَت بها، يقول بقوة مماثلة: «وما شأنكِ بنا؟.. أنتِ مجرد غريبة في أرضنا.. لم تشربي حتى من مائنا.. كم تبقى على نفاد مائكِ، ساعة، ساعتان، ثلاث ساعات؟».

أزعجها أن يكون متقدمًا عليها بخطوة، يعرف ما لم تخبر به أحدًا. قالت من غير تردد، لا تخيفها قوته، ولا يده التي تتحسس في رسالة واضحة هراوته: «ألا كرامة لكَ؟.. كيف تتزوج بفتاة تعرف جيدًا أنها تبغضكَ؟».

- هل أخبرتكِ «صدف» بذلك؟

- ليست بحاجة إلى إخباري.. هذا واضح لكل إنسان في الواحة.

فتح كفيه يشير إلى ما حوله باستخفاف: «إذن لماذا لا يتحدث أحد؟».

- لأنك وسيدكَ لم تسرقا لياليهم فحسب، سرقتما أيضًا أصواتهم.

شعر بالجرح الطولي الذي يشق وجنته اليسرى ينبض من فرط السخط، قال بغيظ عظيم: «من أنتِ لتقولي ذلك؟».

- لستُ أكثر من فتاة عادية تحاول أن تكون صوتًا لـ «صدف».

قال ساخرًا بنبرة متشفية: «وفري طاقتكِ.. ليست «صدف» هي التي بحاجة إلى الإنقاذ الليلة».

- ماذا تقصد؟

تجاهلها عائدًا إلى الاحتفال، لم تشعر للحظة أنه قد أطلق تهديدًا أجوف، كان ثمة شيء في ثقته وعجرفته جعل صدرها ينقبض، والخوف يزحف فوق ربلة ساقها، يتمسك بها، ويرفض تركها.

وقع هرَج ومرج وسط الساحة، يتهامس الرجال هنا وهناك، الخوف الذي تسلق ساقها انقض على وجوههم، يخمشها بمخالبه. سألت من تمر بهم عن الخطب الجلل الذي أفسد فرحتهم، وضيق عليهم ساحتهم، تجاهلها الجميع، ينظرون إليها شزْرًا، والبعض يرمقها بلوم كبير، لوم لم تفهمه إلا بعد أن أجاب أحدهم سؤالها: «دُقَّ مسمار في كوخ الأحدب!».

هرول الجميع في اتجاهات متفرقة، وقد أفزعهم الخبر، ثم توقف كل منهم بغتة في موضعه، لم يتمكن أي من الرجال من مغادرة ساحة المرح، إذ وقف «كسار» فوق صخرة عاليًا وأقسم إن حاول أحدهم إفساد الزفاف والذهاب إلى كوخ الأحدب، أن يبلغ أمره للممسوس، فيأتي ويقطع عنقه بنفسه أمام نساء الواحة وأطفالها.

شل الخوف أقدام الجميع، لم يتحرك منهم أحد، عادوا للالتفاف حول شيخ الواحة، والعرسان الثلاثة.

وحدها «سراب» أخذت تركض في اتجاه الكوخ، وقلبها ينبض في اهتياج، هل عرف الممسوس أن «مطر» استضافها؟ هل أفشى «كسار» اللئيم أمره وأمرها؟

أفسدت حياة الرجل رغم نياتها الطيبة، الرجل الذي أنقذها وأطعمها ولم ترَ منه ما يسوؤها، بل هي من ألحقَت به الأذى.

قطعت المسافة الكبيرة الفاصلة بين الساحة والكوخ ركضًا، وهلعًا، وجلدًا لذاتها، تحمل حقيبتها فوق ظهرها، تتعثر في صخرة، وتثقل حركتها كثافة الرمال.

تركض وتركض بلا انقطاع.

كانت الشمس في طريقها لأن ترسل كفوفها مودعة، عندما بلغت الكوخ وهالها ما رأت.

مسمار كبير يخترق الباب، تمامًا في المنتصف، يذكرها بثاني ليلة لها في الواحة، عندما رأت مسمارًا مماثلًا وقد دُق في باب «عبد البَر»، هل سينال «مطر» مصيرًا مماثلًا؟ ألن يتحرك أيٌّ من أهل الواحة لإنقاذ الرجل الذي

يحبون؟ ألن يقف أحد منهم في وجه الظلم الذي تعرض له ولا يزال؟ ألن يخرج صوت واحد ينقذ الرجل من مصير محتوم؟

من بعيد تنامت إلى سمعها موجتان من الزغاريد، تفصل بينهما دقائق معدودات، صدقت نبوءة قارئة الصخور واكتملت زيجتان دون الثالثة، فشلت حتى في أن تثبت أن المرأة أفاقة مُنجِّمة.

من مبعدة، لمحت حصان «كسَّار» يتهادى فوق الرمال، ومن خلفه تجلس عروسه متشبثة، تتجاذب الرياح أطراف فستانها، تثق أنه ما مر من أمامها إلا ليُلهِب غيظها، اكتمل زفافه بـ «صدف»، وسيلقى «مطر» العقاب بسببها.

كل شيء في غير موضعه، سحق القهر قلبها، تسرب الغضب من رأسها إلى يديها، مشكلًا ردة فعلها؛ اندفعت صوب الباب الخشبي، تنزع المسمار بقوة لا تملكها، أدمَت أصابعها، وجرحت يديها، استعانت بأداة حادة بجوار الكوخ الذي يخلو من صاحبه، مكَّنتها بعد محاولات مضنية من نزع المسمار.

قبضت عليه بيدها المدماة، ثم ألقت به صوب الرمال، أطلقت الشمس الشاهدة شهقة عالية، ثم سقطت في بئر الظلام العميقة، لم تتمكن من رؤية المزيد، خرج القمر من بئر الفضة وقد اغتسل بأكمله، أفزعه ما رأى ما إن تطلع إلى الأرض أسفله، أسرع بمناداة حفيداته النجمات، جمعهن حوله في شرفة سماوية تطل على الكوخ وساحته، وأمرهن بإشاحة النظر، سيحدث بعد قليل أمر رهيب غير محتمل.

أُضيئت مشاعل النار، وتمكن أهل الواحة من رؤية ما يدور عند كوخ الأحدب، تناقلوا الخبر من الشرفات والأسطح وزوايا الحارات، أخذوا يبتهلون في الدعاء، كي تمر ليلتهم في سلام، دون أن ينالهم سوء أو ضرر.

بغتة، شق السكوت صهيل رهيب، ووقع أقدامٍ رشيق مهيب، أفزع النجمات الصغيرات في مهدهن، مد القمر أذرعه يضمهن، فانسكبَ ضوؤهن في فضته.

لم تجد «سراب» ملجأ من لسع الرياح لوجهها، ولم تستطع أن تدفع عنها سياط الخوف التي تنزل بقوة فوق صدرها، ثبتت أمام الكوخ، بينما البوابة الحجرية القريبة من موضعها تغري بالفرار؛ لم تحاول الهرب، ما كان بإمكانها ترك «مشتاق» خلفها، وما كان باستطاعتها التخلي عن «مطر»، وهي تعلم أن لا أحد من أهل الواحة سيدفع عنه الأذى وينصره.

اقترب الصوت المفزع أكثر، وأكثر فأكثر، إلى أن أشارت نيران المشاعل صوب الحصان القادم من بعيد، يلتحم بالرجل الجالس فوقه كأنهما كيان واحد، كيان أسود غاضب.

أخرجت النبلة من جيب ردائها، واستعدت لتسديد حجر صغير صوب هدف يهرول صوبها، ستفقأ عين الممسوس، تعرف أنها قادرة، رغم الظلام، والريح العاصف، في التسديد هي جِد ماهرة.

اقتربت منها الكتلة السوداء الصاخبة، أكثر فأكثر، أطلق الحصان صهيلًا عاليًا ثم توقف على بعد أمتار قليلة، بعدما جذب الممسوس اللجام بقوة متناهية.

يلف وجهه بقماش أسود، لا يظهر منه سوى عينين حادتَي النظرات، حتى يداه كانتا خلف قفاز أسود سميك، ترى الغضب حاضرًا متجسدًا، مشتعلًا في عمق عينيه.

من غير أن تعرف السبب، تذكرت النار التي اختبرتها ثلاث مرات، وتركت آثارًا شائهة فوق جسدها، لنظراته الغضوب قوة النار وأثرها، شعرت أنها تحترق للمرة الرابعة!

اهتزت يدها التي تسحب المطاط إلى الخلف، وكاد الحجر أن يسقط من يدها الأخرى. خلال لحظات كانت قد استعادت ثباتها، لا تعرف مصدر القوة الذي دفعها لتقول هادرة في وجه الممسوس المستتر خلف لثامه الأسود: ««مطر» لم يخطئ في شيء.. أنا التي دخلت كوخه من غير إرادته».

التصقت نظراته بوجهها، لم تحد عنها قيد أنملة. جنبًا إلى جنب الغضب رأت في عينيه دهشة بالغة. الوجه الذي ظلت تجوب به الأسواق ليكون طعمًا يجذب رجاله، رآه الآن بملء عينيه، وقد صدمته المفاجأة!

عرفت «سراب» أنه يحسبها الآن المرأة الميتة في قاع البئر المهجورة، ولم تعرف إذا كان هذا خيرًا لها أم شرًّا.

للحظات سكن كل شيء في الواحة، اختبأت الرياح خلف الصخور، واندست الأصوات أسفل سجادة الرمال الممتدة، بدا وكأن الموجودات كلها قد انتبهت للحظة التي وقعت فيها نظرات الممسوس على وجه المرأة التي تجابهه ببسالة، الوجه الذي لم يحسب أن يراه ثانية.

باعدت ساقيها قليلًا، شدت جذعها، تستعد للمواجهة، تردف بالحدة ذاتها: «لو اقتربتَ أكثر.. سترحل بعين واحدة».

رفع الحصان قائمتيه في الهواء عاليًا، كأنه فهم تهديدها لسيده، فصهل في وجهها محذرًا.

قرَّب الممسوس حصانه أكثر، وأكثر فأكثر، معاندًا، ومتحديًا، يتمعن في القسمات التي يراها تحت مصباح القمر، فتتأكد له تفاصيل الوجه الذي يألفه.

كلما اقترب، ابتعدت «سراب» إلى الخلف خطوة فخطوات، إلى أن التصق ظهرها بباب الكوخ، وما عاد أمامها فسحة للتراجع، أطلقت الحجر من النبلة من غير احتراز.

ندَّت عنه زمجرة غاضبة فظنت أنها أصابت الهدف، عندما رفع رأسه مسددًا نظراته النارية عرفت أنها حادت، ربما للمرة الأولى في عمرها، بسبب كفها التي ترتعش، رغم التظاهر بالجَلَد.

طاف حول الكوخ بحصانه كما لو أنه يتلاعب بأعصابها، يمنح نفسه وقتًا للتفكير بعدما زلزلته المفاجأة. ما إن اكتملت الدائرة، حتى أخرج الممسوس حبلًا ثخينًا من معطفه، الحبل نفسه الذي ربط به «عبد البَر» في الحصان ساحبًا إياه فوق الرمال. صاحت به: «لا أخافك، هل تسمعني؟ لا أخافك».

قالتها بينما ترتجف، ترك الحبل ونزل عن حصانه بقفزة واحدة، أمسك بها قبل أن تنتبه لنيته، رفعها فوق حصانه ثم ركب خلفها، لا يفصل بينهما سوى حقيبة ظهرها، سحب الممسوس اللجام بقوة، فانطلق الحصان مهرولًا.

شرعت تستغيث بأهل الواحة، مستصرخة، منادية فيهم الشهامة والهمة، لم تند عن أيهم استجابة واحدة، كأنهم أموات لا آذان لهم.

شعرت بقلبها يكاد يتوقف من فرط الفزع، بينما يقفز بهما الحصان عاليًا، فوق الأغراض والمباني ذات الطابق الواحد، يتعمد فارسه إلقاء الفزع في نفوس الجميع بضرب الرمال بسوطه، لئلا يجرؤ أحدهم على مغادرة داره، واعتراض قراره.

الشيء الوحيد الذي كانت تعرفه «سراب» بعدما عبرا المساحة الفسيحة بعد المدافن، أن الممسوس متوجه بها صوب فم الهاوية.

شعرت أن أجلها قد حان، لن يتمكن من القفز بحصانه وقد ثقلت حمولته، عندما اقترب من الفراغ السحيق توقفت عن الصراخ، أخفت وجهها بين

راحتيها، لا تريد أن ترى لحظة انطباق فم الهاوية عليها، وابتلاعها في جوفها، تسحقها الصخور، وتجاورها الهياكل العظمية.

توقف الممسوس على مبعدة، ثم هرول بالحصان في خط مستقيم، كانت قفزة مهيبة عالية، لم يطلق الحصان خلالها صهيلًا واحدًا، بينما الممسوس يصيح بقوة آلمت أذنها.

ما إن لامست حوافر الحصان أرض الجارة السوداء غير الممهدة، حتى شعرت بزلزلة قوية كادت أن تطيح بها، أمسك الممسوس بها، شد وثاقه حولها، دفعها الغضب والمهانة لأن تلتفت، تود لو تخمش وجهه المتخفي، أو تفقأ له عينًا أو الاثنتين، لكنه يقبض على معصميها كقيد حديدي، لا فكاك منه.

نشبَ البرق مخالبه في وجه السماء، وبعد هنيهة سُمع سوط الرعد يرج الواحة بأسرها، لم يمضِ الكثير حتى تساقط المطر بغزارة، كأن السماء أفلتَت نهرها، نهر جارف كاد أن يغرق أرض الواحة وبيوتها.

دُنيازاد

رجفَت النجمة الثامنة
تشعر بخطورة حلمها
رأت وما رأى غيرها
عين الحقيقة النائمة
نادَت في السماء المظلمة
أن الحقيقة قاسمة
لظهر الكذب وسقفه
سيسحق المخادع ومكره
ستفضح النجمة التي كذبَت
وتُعري الخدعة إذ انكشفَت
إنها البداية فاسمعوا
ثقوا بقولي واجمعوا!

الليلة الثامنة والعشرون

أيهما أنت؛ ما تعرفه عن نفسك،
أم ما يقوله الآخرون عنك؟

(1)

لم يحزنها شيء كما أحزنها ضياع السوار.

سوار خاص جدًّا، يختلف عن أي قطعة تستطيع شراءها من سوق الواحة بنصف عملة معدنية من الذهب؛ صنعته أمها خلال الحمل، قابل للتضييق والاتساع، كي يناسب معصمها في جميع أحوالها.

يجمع خيط السوار حجارة صغيرة ملونة، انتقتها أمها بعناية فائقة، صنعت ثقبًا صغيرًا في كل حجر، وجمعتهم في سوار جميل ليس له مثيل. بكته «سلَّام» كأنها تبكي عزيزًا واراه الثرى، أو تشهد موت أمها للمرة الثانية.

مسحت بشجن فوق مكانه الفارغ حول معصمها الأيمن، أنهكها البحث عنه في كل مكان؛ في السوق، والدار، ووسط الرمال.

تفكرت قليلًا في قرارها، كانت كل الطرق تُفضي إلى جدار مسدود، مهما حاولت لن تحصد في النهاية سوى المرارة والخذلان، جاهدت نفسها كي تتحلى بالشجاعة الكافية لتصحيح المسار.

- لن أتزوج بـ «جمعان»!

كان للقرار دوي قاسٍ على «أبو الأحناش»، ترك ساحة المرح لمَّا أرسلت في طلبه، اختلى بها في غرفتها قبل أن تلملم الشمس شعيراتها.

في طريقه إلى الدار تآكله الهلع، ظن أنها مريضة والجميع يخفي عنه الخبر، فلما رآها سليمة معافاة، ولا تزال ترتدي فستان الزفاف، عانقها بلهفة وحنان، ثم أصاخ إليها السمع. ظن أنه سيسمع منها أي شيء، إلا ما قالته للتو.

- لماذا يا بُنيتي؟

جمع لحيته البيضاء في قبضته، ثم أردف محتدًّا ومتوعدًا: «هل قال «جمعان» ما ضايقكِ؟.. هل فعل ما أحزنكِ؟.. إن كان الأمر كذلك سترين ماذا سأنزل به من جزاء لن ينساه».

رغم حلمها الذي لم يكتمل مثل القمر الأحدب كما قالت قارئة الصخور، أيقنت أنها محظوظة بكل هذه القلوب المحبة من حولها.

عانقته باكية، ممتنة لكونها ابنته. توحَّش هلعه، وتضاعفَت لهفته؛ أطَّر بوجهها الدقيق بين كفيه، يناشدها كي تخبره عن السبب الذي جعلها تعزف عن الزواج بـ «جمعان».

أمسكت «سلَّام» بكفيه مقبِّلة، لم تفصح صراحة عما تكتمه في خاطرها، أحجمَت إذ من المهانة أن تقول إنه هو من لا يريدها.

قالت تهز كتفيها بإرهاق شديد: «يبدو أنني اتخذت القرار الخطأ.. ما كان عليَّ الموافقة به منذ البداية.. لا أشعر أنني و«جمعان» نصلح لأن تجمعنا دار واحدة.. نحن مختلفان كثيرًا.. أدركتُ هذا متأخرة».

- لم يكن هذا رأيك يا بُنيتي.. هل أنتِ واثقة أنكِ...

قاطعته بوهن، والدوار يلف برأسها: «أبي.. أنا حقًّا متعَبة.. أرجوك أنهِ الأمر الآن.. ثم سيكون لنا جلسة طويلة نتحدث فيها بكل شيء.. عندما أشعر أنني بخير».

أمسكت بكفه تستطرد بأسى: «أعرف أنني وضعتكَ في موقف عصيب.. أعتذر كثيرًا يا أبي.. لكن صدقني ليس بيدي.. لا أستطيع الزواج بـ «جمعان».. لا أستطيع أبدًا».

ما كان بإمكانها أن تعيش حلمًا ليس لها، تختبئ داخل قوقعة من الأوهام، مجترة مشاعر زائفة؛ إنها حياة واحدة.

مسح «أبو الأحناش» على شعرها، غرف من بئر حنانه التي لا تنفد: «أنتِ حبَّة القلب.. وزهرة العُمر.. إن كنتِ غير راغبة في الزواج بـ «جمعان».. إذن لن تتزوجي به.. لا يهمني ما يقوله أهل الواحة.. لن أفعل إلا ما يسعد ابنتي».

خرج من غرفتها، ورأسه متخم بالمشاعر المتباينة؛ الحرج، والتصميم، والقلق. لم يكن الأمر بالسهولة التي زعمها، التراجع عن الزواج بعدما تجمع الرجال في ساحة المرح سيكون حدثًا مدويًا تتحاكى عنه الواحة لسنوات، ويعلق بذاكرتهم لحقب متتالية.

لكن تزويجها كان بهدف إسعادها، فإن لم تكن سعيدة به، فما الجدوى إذن؟

أغلقت «سلَّام» باب غرفتها من خلفه، ولم تسمح لأحد بالدخول من بعده، تعلم أن الفضول سيحط فوق رؤوس النساء المجتمعات في دارها، ما إن يبلغهن «أبو الأحناش» بخبر إلغاء الزواج، لم تكن قادرة على مجابهة مثل تلك الأسئلة.

يبدو أن الخبر لم يأخذ وقتًا طويلًا في الانتشار، دوي أصوات النساء بالخارج ومحاولتهن اقتحام عزلتها أنبأها بذلك.

رقدت «سلَّام» فوق الفراش بإرهاق كبير، كأنها ركضت في الواحة من شرقها إلى غربها، تلهث وينقبض قلبها، تشربت وسادتها الكثير من ماء عينيها، شربت حتى ارتوت عمرًا بأكمله.

كانت الشمس لا تزال متربعة فوق فراشها السماوي، تسحب آخر شعيراتها الذهبية، عندما خُيل لـ «سلَّام» أنها رأت خيالًا يمر أمام النافذة، لم تملك طاقة كافية أو رغبة مواتية لاستطلاع هويته. لو أقدمت على فتح النافذة لرأت فوق الجدار المقابل ظل رجل يستتر كعادته خلف شجرة السنط القريبة، عرفته الشجرة ما إن أطلت عليه بنظرة واحدة، فلطالما كانت شاهدة على شوقه ولهفته.

يرسل نظرات مسترسلة مغلفة بالشغف صوب نافذة «سلَّام» المغلقة، لا يدرك أن الشمس الخبيثة عكست ظله على الجدار. يمسك الظل بسوارٍ من حجارة صغيرة ملونة، عثر عليه وسط الرمال بالقرب من دارها، يعرف أنه سوارها، لطالما رآها تتحسسه بأناملها الرقيقة وتداعبه.

شدَّ عليه بيده معانقًا، ثم رفعه إلى شفتيه مُقبلًا.

لو قسم شوقه على الواحة لكفَت رجالها ونساءها، ولتبقى بقلبه ما يفيض على حاجة أهلها، الآن وقد بلغه خبر إلغاء الزواج شعر أنه قد حاز الدنيا بأسرها.

حطت بجواره حمامة صغيرة، خاف أن تسمع حديث قلبه، ثم تمشي بين الناس هاتكة لسره، فأزاحها بيده يهشُّها.

لو أقدمت «سلَّام» على فتح النافذة، لرأت ظل الرجل المُتيَّم بصمتٍ، والمختفي خلف شجرة السنط.

لكنها لم تفتح ولم ترَ.

***

دخلت «فلَك» دارها الجديدة فرحة، تُسدل وشاحًا من التُّل أبيض فوق وجهها طوال الطريق من دار أهلها، لا يرفعه إلا العريس كما تقتضي العادات.

وقف «هلال» في الخارج يتحدث إلى رفاقه وقد بلغتها أصوات الضحكات. تجولت في الدار تلف حول أناملها ضفيرتها الذهبية الكبيرة، المتوارية خلف وشاح التل، تفكر في الحدث المدوي الذي جرى بين الناس اليوم.

نفَّذ مجنونها ما قاله في دارها، وقد كانت تحسبه مجرد كلام معسول. أتى أباها وسط الرجال في ساحة المرح طالبًا إياها للزواج، فما كان من أبيها وأصحابه إلا أن انهالوا عليه بضرب مبرح، ثم حبسوه في دار أحدهم، يراقبه اثنان من الشباب، كيلا يقدم على فعل جنوني يفسد مراسم الزفاف.

تسرب الخبر إلى أسماع البعض، رغم جهد أبيها للإخفاء، ابتسمت وتساءلت، هل بلغ الخبر سمع «هلال»؟ تحب له أن يعرف، ليدرك أن عروسه مرغوبة من رجال الواحة وغربائها.

غدًا صباحًا عندما تأتي النساء إلى دارها لتقديم المباركات والتهنئة، ستكون فاكهة أحاديثهن، ومنبع همساتهن، سيتحاكى الجميع عن الفتاة التي طلبها رجل ليلة عرسها، لن يكون لفتاة في الواحة مثل سيطها.

ما إن دخل «هلال» الدار حتى ارتسمت على وجهه ابتسامة رائقة، مبتهلًا لأن تكون هذه الليلة بداية لحياة جميلة هانئة، يحظى فيها برفيقة درب، تبني معه دارًا هادئة، وعائلة كبيرة بها عشرة من الأولاد والبنات، يزيد على ذلك ولا يقل، يستعيض بهم عن الوحدة التي عاشها، إذ كان ابنًا وحيدًا لأمٍّ مات عنها زوجها.

اضطرب قليلًا عندما لم يعثر على كلمات مناسبة، لم يكن ممن يجيدون فنون الكلام، وغزل الأحاديث المنمقة، يُمكنه بفعل صغير أن يُشعِر من أمامه بالكثير، أما الكلمات فتخونه دائمًا، تتفلَّت كالرمل بين أنامله.

دنا منها بروية، يرفع عنها التُّل الأبيض الذي يواري وجهها، تبتسم «فلك» بدورها، خجولة، وسعيدة، إذ لم تكن العروس التعسة التي سيفسد زفافها.

تضاعفت سعادتها ما إن رأت نظرات «هلال» الراضية، تعرف جيدًا كم لجمالها من تأثير، لا يقاومه إلا القليل.

كانت أمه قد وصفتها له بدقة متناهية، حتى ظن أنه رآها في خيالاته رؤى العين، والآن تحقق من دقة وصفها، كانت تمامًا كما رسمها.

لا يتذكر أنها وقفت مرات ومرات في طابور طاحونته، إذ لم يعتَد تقليب النظر في وجوه النساء. كانت تجربته الأولى في التحدث بحميمية إلى امرأة، والاختلاء بها، لم يكن أي شيء كما تصور في خياله، كانت مهمة التواصل أصعب مما حسب.

خانته الكلمات التي حاول استدعاءها، وتلك التي أوحى له بها أصدقاؤه بالخارج، لم يعثر سوى على القليل في جعبته، وما اتسم بالوضوح والصراحة دون مجاملة.

- أنتِ جميلة.

أسعدها أن سمعت اعترافه بعدما قرأته فوق صفحة وجهه، ممزوجًا بشيء من الدهشة كأنه يراها لأول مرة، أوعزَت ذلك لكونها بدت في عينيه أجمل من كل المرات التي يتذكرها.

قالت «فلك» بدلال مؤكدة: «أعرف».

ودت لو أسمعها أكثر من هذا الاعتراف المقتضب، أن يسبغ عليها شتى صنوف الثناء والمجاملة، مثلًا: كيف ومتى ولماذا أحبها؟ إلا أنه صمت بعدها.

ودت أن تكون الليلة هي بادئة حبهما الأسطوري، الذي تتحدث عنه الواحة لسنوات قادمة، مثل كل القصص التي مرت بالصحراء، وعلقَت بذاكرة أهلها.

اشتهت أن تكون بطلة قصة حب خرافية، و«هلال» بطلها، يمسك بيديها ويخبرها عن حياتهما القادمة، الممتلئة بالحب والشوق والشغف، يقفز بها فوق الزمن، ليختزل مراحل علاقتهما في وثبة واحدة.

ودت لو تزداد وتيرة دوران عجلة الزمن، لتصل إلى سرعتها القصوى المتناهية.

بينما يميل «هلال» إلى التباطؤ، وإعطاء كل لحظة قدرها، يجيد بذر الحب في أرض الشعور، وإن لم يكن له خبرة سابقة.

متأنيًا، مفسحًا للزمن مساحة حرة للحركة، بلا اختزال، بلا تحريض. طرفان متقابلان، أحدهما يفعل ولا يقول، وآخر يود أن يسمَع ما يُسكره.

مرَّت ليلتهما الأولى هادئة، بلا عواصف، بلا سحر، بلا نجوم متلألئة.

***

(2)

لم تكن الحياة في الجارة السوداء كما تخيلت!

قفز الممسوس بحصانه فوق الهاوية، أمسك بها عندما أوشكت على السقوط فوق الحجارة السوداء المتناثرة.

اهتاجت بشدة، حتى ليظن الرائي أن مسًّا من الجنون قد أصابها، حاولت الإفلات وبذلت من أجل ذلك كل جهدها؛ لم تستطع التغلب على تصميم الممسوس وقوته، ولا فك قيد ذراعه التي تشل حركتها، وتحد من هروبها.

لطالما ظنت أن الممسوس ورجاله يعيشون في العراء، داخل خيم صغيرة متسخة، متناثرة أو في مجموعات، توقد في منتصفها نار للتدفئة وإخافة الحيوانات.

يشربون ماءً راكدًا، يأكلون أوراق الشجر، يعيشون وسط القاذورات، ولا يغتسلون إلا نادرًا.

عبر الممسوس بحصانه بوابة حجرية عظيمة، تُفضي إلى بطن الجبل، تصطف على الجانبين مجموعة من المشاعل المثبتة، تقود إلى مدخل يشق الجبل الأسود المهيب.

المشاعل تنير الطريق، وتوضح تفاصيل المكان.

لا يعيش الممسوس في الخيام، حفر ورجاله داخل الجبل الأسود مدينة كاملة، بها حجرات وممرات وطوابق وأركان متباينة!

عبر بها من ممر إلى آخر، فوق أرض من الحجارة شبه ممهدة، يستجلب صراخها رجاله من مواقعهم، فيخرجون إلى الممرات مُلقين عليها نظرات فاحصة، يتحسس كل منهم هراوته، وسيفه، وخنجره، في حال نجحت في الإفلات من سيدهم وسَعت إلى الهرب.

الممرات التي عبرها بحصانه حلزونية تميل إلى الأسفل، شعرت أنه يتوجه بها إلى مستوى أقل من سطح الأرض، هل ينوي دفنها في أعماق الجبل، هل هكذا سيكون عقابها؟

لم يتوقف صراخها، وضربها، ومحاولات الإفلات اليائسة، بشراسة تليق بطبيعتها غير المستسلمة.

أخيرًا دخل بها ولا يزال راكبًا معها صهوة حصانه، إلى مساحة تحوي غرفًا مكشوفة على الجانبين، مطوقة بقضبان حديدية، تشبه الزنازين.

أوقف حصانه عند واحدة، نزل بقفزة رشيقة إلى الأرض ثم سحبها لتجاوره. لم تكد تحط فوق الأرض بقدميها حتى أصابها دوار عنيف، بعد الرحلة الشاهقة التي ألهبَت فزعها، وزلزلت ثباتها.

لم تكن سهلة الانقياد صوب الزنزانة، حاولت الإفلات قدر جهدها الهزيل. أغلق بابها بجنزير طويل، ثم توقف أمامها لاهثًا، يفصل بينهما جدار قصير من القضبان الصدئة المتقاربة.

- ستنال عقاب ما فعلتَ.. أتحسَب أننا نعيش في عالم همجي بلا قوانين؟

مدت يديها تحاول خمشه بأظفارها، توجه صفعة أو لكمة، كان يعرف جيدًا المسافة التي يقف عندها، كي يتقي جنونها.

قبضت على القضبان تحاول نزعها، فِعل يائس لا يُفضي بها إلى شيء، لكنها استمرت في المحاولة. يراقبها الممسوس بنظرات ثاقبة لا تحيد، كمن يراقب حيوانًا هائجًا أسير القفص.

لا تزال الدهشة تتسور عينيه، ملتصقة بالحيرة والغضب.

هل يحاول اكتشاف ما إن كانت هي امرأة البئر أم واحدة تشبهها؟ هل يفزعه مدى التشابه بينهما ويعجزه عن اتخاذ قرار بشأنها؟ هل يتريث كي لا يخطئ في إقرار مصيرها؟

بدا لـ «سراب» أن «أجل» هي الجواب الصحيح عن جميع تلك الأسئلة.

- لا يحق لكَ أسري بهذا الشكل.. لستُ واحدة من أهل واحتك.

لم تتوقف عن الصياح ومحاولة نزع القضبان إلا عندما انتقل فيروس الاهتياج إليه، عمل الهواء المشحون بالتوتر كوسيط بينهما؛ شرع الممسوس يزرع الممر مجيئًا وذهابًا كأن مسًّا من الجنون قد أصابه بدوره.

يمسك بعصا ثخينة كما لو كان موشكًا على تحطيم رأسها.

كما لو كانا قد تبادلا الأدوار، كان هو المحبوس في الممر، وهي تراقب حركته، لم تكن قادرة على رؤية وجهه المتخفي وراء اللثام الأسود، مكَّنها حدسها من قراءة إشارات جسده وانفعالاته.

الصمت المطبق، والرائحة الصخرية، والظلمة الجاثمة رغم مشاعل النيران المتناثرة، عمل كل ذلك على خلق جو قوطي مقبض، كأنها انتقلت بالزمن لا بالمكان فحسب.

- لماذا أتيتَ بي إلى هنا؟.. كنتُ على وشك الرحيل فجرًا.. أنا لا أنتمي إلى هذا المكان.

توقف عن حركته المستمرة، يرنو إليها بنظرات غامضة، لم تتمكن من قراءتها، يضم قبضتيه بشدة كما لو كان على وشك لكمها.

لم تتحمل العطش، والجهد، والانفعال، خانها جسدها وسقط في الحال، كان آخر ما رأته قبل أن تظلم الدنيا من حولها، الممسوس داخل زنزانتها، غاضبًا، عازمًا.

كان كقنبلة موقوتة توشك على الانفجار، قنبلة تُنبئها أن مصيرها الليلة سيكون أسوأ من مصير «عبد البَر».

***

أسكره شعور الفوز، والزهو بنفسه لا يفارقه، يطلق ضحكات صاخبة، بينما الحصان ينطلق صوب الجبل الأسود، ومن خلفه عروسه التي اختارها.

يعرف «كسار» أن في بنات الواحة من هي أجمل جسدًا، وأشرف نسبًا، وأكثر مالًا ورِفعة؛ إلا أن كل أولئك الفتيات لا يمثلن له تحديًا مثل الزواج بـ «صدف».

ابنة ساحرة الجبل التي تحظى بحماية الممسوس، وتتمتع بالكثير من الرفاهيات داخل مدينة الجبل الأسود.

لم تكن «صدف» بفتاة تجرؤ على النظر إلى وجهه، أو محاسبته، أو تكدير صفو معيشته. فتاة طيعة كالرمل المخلوط بالماء الذي كان يحلو له صغيرًا أن يُشكِّله.

لا ترغب في الزواج به، تبغضه، رغم ذلك لم تجرؤ على أن تعترض.

فتاة لينة، سهلة، خاضعة. سيدفعها إلى تعلم فنون السحر، لتتغلبَ على سطوة أمها، سيصنع منها ساحرة جديدة للواحة، تتفوق على كل سابقاتها، تملك أقدار الناس بين كفيها، ويحظى معها بالقوة التي يريدها.

إنها ابنة ساحرة لا تُهزَم، لا بُد أن تلك القوة تسري في دمائها، تحتاج فقط إلى من يكتشفها، ويُعزز من قدراتها، وسيكون هو هذا الرجل.

كانت قفزته بالحصان فوق الهاوية تكاد تبلغ عظَمة قفزات الممسوس واندفاعتها، أرضاه هذا وأسعده.

بلغ التجويف العظيم في الجبل الأسود الذي يُعد كبوابة كبيرة سامقة، بلغه أن الممسوس عاد إلى الجبل مع غنيمته.

ابتسم متشفيًا في الفتاة التي حسبت أنها قادرة على تغيير مصائر أهل الواحة التي يُقررها أسيادها.

تهادى بحصانه وسط الممرات يحاول جذب أطراف الحديث مع «صدف»، تجلس خلفه متشبثة به، واجمة، ساكنة.

- انسي سنوات عمركِ العشرين.. من الآن سيكون لكِ حياة جديدة مختلفة برفقتي.

طوال الطريق لم ينجح في انتزاع كلمة واحدة من فمها المطبق، فقط يسمع أنفاسها اللاهثة.

توقف عند غرفته الفسيحة التي يقيم فيها ببطن الجبل، والمحفورة في جسده الصلب المتين، كان قد أمر بتزيين الباب الخشبي بمشاعل على الجانبين، ونثر باقات من الزهرات النادرة، التي لا تنمو إلا في أرضهم السوداء.

نزل من فوق حصانه وعاونها على النزول بدورها، نزعت نفسها من يديه ووقفت على مبعدة، فتح الباب وانتظر دخولها. تسبقه بخطوات متباطئة وقد شعر أنه حاز بين كفيه أحلامه كلها.

لم تفارقه ابتسامة الفائز، ونظرة من لا تهزمه العوائق، دنا منها يرفع عن وجهها الوشاح، كمن يُقشر ثمرة اشتهاها واستطال به الوقت حتى امتلكها، وهنا كانت الصدمة والمفاجأة!

رجع خطوتين إلى الخلف، يتأمل بعينين جاحظتين الوجه الذي يقابله، الذي لم يكن وجه «صدف» على الإطلاق!

***

استلقت «صدف» فوق فراشها وهي في أوج سعادتها، لا تصدق الطريقة التي انتهت بها ليلتها.

كانت في طريق العودة من دار قارئة الصخور، تبتهل إلى القدير أن تكون العروس التي لا يكتمل زفافها، عندما استوقفتها إحدى النساء قائلة: «يريدك أبوكِ على وجه السرعة».

ركضت «صدف» وقد انتفض قلبها في وجل، تحسَب أن مكروهًا أصابه، بينما لا تحتمل فراقه وبينهما هاوية، كيف إن حال بينهما الموت الجسيم؟

- أبي هل أنتَ بخير؟

جلست فوق فراشه تتفحصه، تبحث فيه عن علة متفاقمة. هدأ روعها، وربَّت فوق كفها، يقول بروية: «بخير لا تقلقي.. ثمة زوَّار سيأتون من الباب الخلفي.. أدخليهم خلسة إلى غرفتي».

- زوَّار!.. من يكونون يا أبي؟.. الجميع في ساحة المرح ينتظرون شيخ الواحة لعقد الزواج.

- افعلي ما أقول ولا تسألي.

عند الباب الخلفي للدار، انتظرت «صدف» زوار أبيها في فضول نهم، هل أرسل يستدعي المطبب، هل يخفي عنها توجعه؟

رفعت أناملها إلى شفتيها تقرض أظفارها واحدًا تلو الآخر في توتر ملموس، ما إن وصلت إلى خنصرها حتى رأت أربعة من الرجال مقبلين عليها.

شلتها المفاجأة، حتى إنها لم تحسن استقبالهم، أو تدعُهم للدخول، تجمدت في مكانها تتطلع إليهم في ذهول. اثنان من جيرانها ممن لهم علاقة طيبة بأبيها، يرافقون شيخ الواحة الذي ينتظره الجميع في الساحة!

لم يكُن الزائر هو المطبب، هذا أكثر من كانت تخشى رؤيته، وضعت كفها فوق صدرها هامسة: «أحمد الله أن الأمر لم يكُن سيئًا كما ظننتُ».

أتى الزائر الأخير الذي كان يتأخر عنهم قليلًا، أربكها رابعهم، وأيقظ حيرتها. لماذا طلب أبوها في هذا التوقيت بالذات استدعاء «قوس» إلى دارهم؟

إلى غرفة أبيها ساقَت الجميع، ثم دارت على عقبيها عازمة على المغادرة، عندئذ أمرها أبوها: «ابقي يـ «صدف».. أغلقي الباب وتأكدي أن أحدًا بالخارج لا يسترق السمع».

لم تكن «صدف» على علم بما حاكه أبوها لأيام، وخطة اللحظات الأخيرة التي أعدها لإنقاذها من زواج مشؤوم.

قبل ليلتين أرسل في استدعاء «قوس»، ذلك الشاب الذي أحب أمانته، سلَّمه دكانه وتجارته، دون خوف أو سؤال.

«قوس» الأمين، هكذا عرفته الواحة منذ أن تعلم الكلام، لا يقول إلا صدقًا، ولا يخون من استودعه أمانته؛ لم يجد خيرًا منه كي يستودع عنده أغلى ما يملك في الحياة، ابنته الوحيدة «صدف».

عرف خلال الأيام السابقة أن المرض أصبح أكثر شراسة، وأن رحلة العمر آن لها أن تنتهي، وآخر ما يود أن يفعله هو أن يترك «صدف» بين يدي رجل كـ «كسار»، يخون العهد، ويُبدد الأمانة. يتلذذ بإخافة الناس في السوق، ملوحًا بخنجره وهراوته، يمد يده في الأدراج ويستولي على ما بها خلسة، في غفلة من أصحابها، أو يقظة لا فارق، عنده كل شيء مستباح.

كره أن يغادر الحياة دون أن يحاول إنقاذ ابنته، هكذا يفعل الأب المسؤول عن رعيته، لن يتنصل من دوره وإن كان فريسة فوق مأدبة المرض.

قبل ليلتين، وفي هذه الغرفة الصغيرة، أفضى ما بداخله إلى «قوس» الذي جلس فوق مقعد خشبي بجواره: «أعرف أنني أحمِّلك أمانة ثقيلة.. لو وجدتُ غيرك يصلح لحملها لعفيتُك منها.. ابنتي لا حظ لها في الحياة.. ربما أخطأتُ إذ علمتها أن تتجنب المواجهات، وأن تركض بعيدًا عن أي مشكلة.. لن تستطيع ابنتي الصمود أمام رجل مثل «كسار»، أخشى أن ينتهي بها الحال إما بالجنون وإما الانتحار».

انتابته نوبة سعال شديدة، سقاه «قوس» الماء، وصبر عليه إلى أن استجمع قوته، وأكمل حديثه: «كل ما أطلبه منكَ هو صون الأمانة إلى أن يستردها الله عنده.. لن أقول لكَ أحِبَّها.. أو أنجب منها ما شئت من الأولاد.. اتركها عندك وتزوج معها من تشاء».

طوال الحديث كان «قوس» ينظر إلى أنامله المتشابكة في ارتباك، دون كلمة أو إشارة، تفكر طويلًا ثم قال: «ألن تصبح ردة فعل «كسار» عنيفة عندما يسمع بالخبر؟.. ألن يحاول جمع أصدقائه الأوباش وأخذها بالقوة؟.. ألن يقف أهل الواحة متفرجين كما شاهدوا ما حدث لـ «عبد البَر» دون اعتراض؟».

استند والد «صدف» إلى مرفقه، ثم قال مؤكدًا في قوة: «هذه مسألة أعراض.. إن سمح الرجال بهذا.. ستكون وصمة عار في جبين الواحة».

استلقى مرة أخرى مريحًا ظهره إلى الوسادة وقد أجهدته هذه الحركة البسيطة، يرنو إلى «قوس» مردفًا: «عليَّ أن أعرف ردك الآن.. هل تقبل يا «قوس» بحمل الأمانة؟».

انتظر بلهفة أن يسمع ردًّا بالإجابة، كي يموت هانئ البال، مطمئن الفؤاد، تضرع كثيرًا كي يُمنح تلك الراحة قبل نومته الأخيرة.

- أقبل بها.

قالها «قوس» أخيرًا، فأطلق الرجل تنهيدة كبيرة، وحمد الله وشكره كثيرًا.

***

لم تكن «صدف» على علم بما حاكه أبوها، لكنها عرفت في تلك الغرفة الصغيرة.

وبينما يُتمم شيخ الواحة الزواج، ويشهد الرجلان، ويضع أبوها يده في يد «قوس»، وقفت هي ذاهلة مما يدور حولها.

والآن بينما هي مستلقية فوق فراشها وقد حل المساء، أخذت تسترجع التفاصيل التي حدثت قبل ساعات، تعيدها في ذهنها مرات ومرات.

وبينما يظن الجميع أنها امتطت الحصان خلف «كسار» وسار بها إلى الطرف الآخر من الهاوية، كانت هي تختبئ في غرفتها، كما أمرها أبوها أن تفعل.

لأول مرة منذ زمن طويل، نامت هانئة البال، لم تكُن العروس التي تنبأت قارئة الصخور بعدم زواجها.

ها هي تتزوج، لا بالرجل الذي تبغض، بل بالرجل الذي تحب.

***

جحظت عينا «كسار» حتى لتكادا تخرجان من محجريهما، قال بدهشة كبيرة أطاحت بزهوه وثباته: «كيف حدث ذلك؟.. أين زوجتي؟».

بحركة سريعة خلع «قوس» عن جسده فستان الزفاف وألقاه أرضًا، ثم جابهه بقوة قائلًا: ««صدف» صارت زوجتي أنا».

- ماذا تقول؟.. ما هذا الهذيان؟

لم يترك لـ «كسار» فرصة استيعاب ما حدث، أخرج من ملابسه عصا خشبية صغيرة، نزل بها فوق رأس «كسار» بحركة مفاجئة، ثم فتح الباب

وركض في الممر متجهًا صوب الهدف الذي أتى من أجله إلى الجارة السوداء، منفذًا الخطة التي أعدها.

سقط «كسار» أرضًا نازفًا ومتألمًا، الجرح الذي أصاب كرامته كان أكثر إيلامًا من ذلك الشج الذي أحدثه «قوس» في رأسه.

أدرك الخدعة التي وقع في فخها، أبوها اللئيم زوَّجها برجل غيره، وتركه يعقد زواجًا باطلًا وسط ساحة المرح على امرأة لا تجوز له، امرأة متزوجة!

جعله محط سخرية الناس، وحكاية سيتضاحك عليها الأطفال قبل الكبار، أصبح مثار استهزاء أهل الواحة وتندرهم كلما أراد أحدهم أن يقص حكاية مضحكة.

لن يعفو عمن شارك في تلك الخدعة، سيدمرهم جميعًا، وسيستعيد زوجته.

وقف محاولًا استعادة توازنه، بعدما دارت به الأرض إثر الضربة المفاجئة، تأخر قليلًا في المطاردة، تسبب ذلك في فقدان أثر غريمه في ممرات الجبل. شرع ينادي الرجال ويطرق بعنف أبواب غرفهم، يصرخ فيهم آمرًا بينما يده تكتم الدماء النازفة: «تسلل أحد رجال الواحة إلى الجبل.. ابحثوا عنه في الحال».

ثم يضيف في قسوة بالغة: «لا أحد يلمسه.. أنا بنفسي سأؤدبه».

شعر الرجال بخطورة ما حدث، أخذوا يفتشون عن المتسلل بهمة في الممرات والغرف، مستعينين بكلاب حراسة قوية مدرَّبة.

***

(3)

قبيل الفجر بساعة، عندما كان الليل لا يزال باسطًا عباءته فوق الأبنية، استيقظ «مطر» من غفوته.

انتفض يتلفت حوله متوجسًا، للوهلة الأولى غاب عن إدراكه ما يفعله في هذه الدار الغريبة، ثم انقشع الضباب عن أحداث اليوم السابق شيئًا فشيئًا.

اعتدل في جلسته إذ كان نائمًا فوق الأرض العارية، أسند ظهره المحدودب إلى الجدار وكل ذرة في جسده تصرخ متألمة.

تذكر كيف جاب السوق بحثًا عن «سراب»، كانت قد أخبرته في لقائهما الأخير داخل كوخه أنها لن تزعجه من جديد، إذ تنوي مغادرة الواحة الفجر التالي للزفاف.

أخافته جرأتها، وسطوة عنادها، وكسرها للقوانين السارية، منذ لقائهما الأخير لم ينم في الكوخ لثلاث ليالٍ متتالية، مخافة أن تعود إليه من جديد، فترصدها إحدى عيون الممسوس، ويطالها الأذى.

يكره رحيلها، لكن في بقائها خطرًا كبيرًا، إن التقاها الممسوس، إن وقع نظره على وجهها، لن تكون العواقب حميدة، ممزق هو بين تركها ترحل، والتمسك ببقائها.

إن جاءت «سراب» إلى كوخه ستجده فارغًا، لن يخطر ببالها أنه يقيم في الدار المحترقة، التي كان يعيش فيها سابقًا، الدار التي شهدت أقسى ليلة عاشها، وجرَّدته من كل شيء بعدها.

أخذ معه بضعة أغراضٍ بسيطة تكفيه، إلى أن يعود إلى كوخه، بعد أن تغادر «سراب» الواحة في الموعد الذي ذكرته.

لكنه لم يطق رحيلها، ضاق صدره بما يحمله من أسرار دفينة، أراد أن يبوح لها بما خفي عليها، كان يحسَب أنه يحميه بعدم المعرفة، لكن الجهل أكثر خطورة وأشد تنكيلًا.

عليه أن يخبرها، يجب أن تعرف.

بينما الناس مجتمعون في ساحة المرح لأجل الزفاف، لم يترك دكانًا إلا ودخله، ولا زقاقًا إلا وعبره، يفتش عنها في كل مكان، إلى أن انتهى به المطاف عند دار «سلَّام».

أمل أن يراها وحدها، أو رفقة إحدى أولئك النساء، الزحام كان شديدًا، لا تكف الدار ذات الطابقين عن فتح أذرعها لاستقبال المهنئين. لم يتمكن «مطر» من رؤيتها بينهن، فتفتَّق ذهنه عن حل أخير، يُمكِّنه من الإمساك بها قبل الرحيل.

ذهب إلى دار «عبد البَر» وعسكر في المخزن الفارغ أمامها، الذي يستخدمه أهل الواحة في مواسم الحصاد؛ لا بُد أن يعود «مشتاق» إلى هذه الدار فيسأله عن مكانها.

لكن «مشتاق» لم يعُد من ساحة المرح.

ظل يراقب دار «عبد البر» من موضعه، ينتظر عودة «مشتاق» إلى أن غلبه النعاس.

وها هو يستفيق قبيل الفجر، وكل عضلة في جسده تؤلمه، كأنه بذل مجهودًا مضنيًا خلال ساعات غفوته. يرنو ببصره صوب السماء ينتظر شعاعها الأبيض الذي سيقطع الظلمة بسيفه البتار.

توجه مباشرة إلى دار «عبد البر»، يطرق الباب، ويسترق النظر من النافذة، كانت الدار فارغة، لم يعد إليها «مشتاق».

توجه من فوره إلى دار «سلَّام»، بدأ الناس يسيحون في الطرقات، عندئذ سمع منهم ما أفزعه!

هجوم الممسوس على كوخه، المسمار الذي دُقَّ في بابه، واختطاف «سراب»!

فعل كل شيء كي يؤجل هذا اللقاء المحتوم، أبقاها جاهلة بما يدور حولها، وظن أنه بهذه الطريقة يحميها، لام نفسه كثيرًا، كان عليه أن يخبرها بكل ما يجب عليها أن تعرفه، لكن فات الأوان الآن!

***

«مشتاق» الذي أمضى ليلته مرغمًا في دار يجهل أصحابها، وقد توعده رجال الواحة بما يسوؤه إن كرر طلبه الفج أو اقترب من «فلك»، خرج إلى الطرقات ما إن تثاءَب الصباح، غير عابئ بالجروح التي أصابته من تكالب

الرجال عليه بالأمس في ساحة المرح. كالمجنون أخذ يبحث عن «سراب»، بعدما أبلغه الرجال قبل قليل بما حدث في غفلة من الجميع.

في دار «سلَّام» التقى «أبو الأحناش» الذي أكد له الخبر المشؤوم: «أخذها الممسوس».

ثارت ثائرته وصاح بالجميع يقول: «ولماذا لم يمنعه أحد؟.. لماذا تركتوها فريسة له؟.. ألا نخوة فيكم ولا ضمير؟».

لم تفلح صرخاته في استنطاقهم، هرع الجميع إلى أشغالهم، كأن ما حدث بالأمس يجب أن يظل بالأمس، لن يحملوه معهم لا إلى اليوم، ولا إلى الغد.

كان صباحًا عصيبًا كذلك على «سلَّام» التي فقدت فتاة كانت لها أختًا ورفيقة، بكتها كثيرًا كأنها في عزاء، تعرف أن أهل الواحة مغلوبون على أمرهم، مكبلون بالخوف لا يملكون الفكاك، لم تُلقِ بالملامة على أي منهم، وحده الممسوس من صبت عليه حنقها، تبتهل ألا يكون قد ألحق بـ «سراب» الأذى.

- ما كان عليها نزع المسمار.

هذا ما فتئ الناس يتهامسون به، موقنين أن الفتاة بعنادها قد ألحقت الأذى بنفسها.

في دار العروسين كان المشهد مختلفًا، إذ حضرت النساء للمباركة، وتقديم صواني الطعام، تجامل كل امرأة العروس بما تجود به نفسها من الحمام المعد بطرق مختلفة.

تزينت «فلَك» واستقبلت زوارها في ابتهاج، تترقب الحديث الذي سيدور عنها ومُشتاقها، الذي فُتِن بها وهامَ، وحُرِمَ المنام.

لكن الحديث دار في اتجاه مختلف، عن الممسوس واختطافه للفتاة الغريبة التائهة، وجرأتها في نزع المسمار من كوخ الأحدب. لم يعتد أهل الواحة رؤية تلك الشجاعة، ولا الثقة المفرطة، صارت «سراب» محور حديثهم ونقاشهم، القليل معجب بفعلها، وأكثرهم يلومونها.

انزعجت «فلَك» كثيرًا، شعرت أن الضوء ينحصر عنها ويتركز فوق فتاة غريبة لا تحبها، فتاة أخذها الممسوس فوق صهوة حصانه، وقفز بها فوق الهاوية. تهامست لنفسها: «كيف يتركني ويختارها؟».

فارَت القهوة فوق الموقد، فأسرعت بإعداد غيرها، تحرقها نيران الغيظ، كتلك القهوة التي لم تحتمل الحرارة أسفلها.

جاورتها أمها تمنحها حجرًا أسود صغيرًا، وتطلب منها وضعه في فمها قليلًا ثم تلقي به فوق الرمال. تقلبه قارئة الصخور بين إصبعيها وتقرأ مسارات الرمال فوقه وتقول: «احذري يا بنتي، ثمة امرأة خبيثة تدور حولكِ تريد أن تفسد عليكِ حياتكِ مع «هلال»».

خرجت أمها إلى المهنئات، وتركتها فريسة للمخاوف والظنون. من نافذة المطبخ تمكنت من رؤية «هلال» يتحدث إلى أمه بمعزل عن الأعين، اقتربت أكثر، حاولت استراق السمع، أصوات النساء بدارها تمنعها من التقاط فحوى الحديث.

دخل «هلال» المطبخ قاطب الجبين، فتظاهرت بالانهماك في إعداد القهوة.

- سأكون في دار عمي.. إن احتجتِ إلى شيء أرسلي في طلبي.

قالها ولم يضف المزيد، رحل دون أن يخبرها بتفاصيل حديثه مع أمه الذي بدل مزاجه الرائق الذي كان عليه في الصباح.

لم يخبرها عن الخطب الجلل الذي لأجله أراد الذهاب إلى دار «أبو الأحناش»، حتى إنه نسي أن يحضر لها هدية الزفاف؛ أغاظها ذلك ودفعها لأن تريق القهوة في الحوض، وتلقي بالكنكة في جمود.

هناك على مشارف الدار التقى «سلَّام»، أقلقته الحالة التي كانت عليها.

- هل حدث ما يسوؤك يا «سلَّام»؟

أومأت برأسها إيجابًا بقوة وقد أعجزها الكلام، أوقفت عبراتها بصعوبة تقول: «ساءَني ما حدث لـ «سراب»».

أطلق «هلال» تنهيدة حارة، وقد شاركها بدوره الحزن على الفتاة وما حدث لها، سألته بحيرة: «ما الذي أتى بكَ؟.. ألا ينبغي أن تكون في دارك تستقبل المهنئين؟».

قال ولم يستطع ضبط انفعالاته: «أمي كانت عندي للتو».

- ماذا حدث؟

- عمي «طوفان» ألقى يمين الطلاق على خالتي «مندورة».. عجزتُ عن فهم هذا الرجل، إنها زيجته الثالثة يا «سلَّام».. خالتي لا تستحق هذه المعاملة.

- إياكَ والشجار معه.

- أتيتُ لأتحدث إلى أبيكِ أولًا.. أحاول ضبط نفسي لهذا أؤخر اللقاء مع عمكِ.

قالت «سلَّام» مستشعرة الحرج: «لم أرافق النساء لتهنئة «نلَك».. لا بُد أنها منزعجة مني.. أنا.. أنا لا أحب أن ألتقي أحدًا الآن.. تعرف.. سيسألونني بفضول.. وأنا.. ليس لدي ما أقول».

لا يستطيع أن ينكر أنه استراح كثيرًا عندما ألقى «أبو الأحناش» بالخبر وسط الرجال بالساحة، صحيح أن «جمعان» كان ثائرًا هو ووالده وأهله، لكنه و«طوفان» وقفا أمام تلك الغضبة المتوقعة، وبخاصة بعدما تبين لهما أن زواجها به سيكون ضربًا من ضروب التعاسة.

قال مزيلًا عنها الحرج: «تتكدس كل نساء الواحة في دارنا الصغيرة.. لا تقلقي.. لا أظنها ستلاحظ غيابكِ.. يمكنكِ تهنئتها لاحقًا».

ثم مضى كلٌّ منهما سابحًا في همه، وأفكاره المُقلقة.

***

أيقظتها مطارق الألم تشج رأسها نصفين.

بينما لا تزال مستلقية، تفتحت عيناها على الحجارة السوداء في سقف الجبل، المشهد الذي تتصبح به للمرة الأولى في حياتها.

انتفضت جالسة، وقد انتبهت لكونها لم تعد بواحة زرزورة، عبرت مرغمة إلى جانبها الآخر.

تطلعت للموجودات من حولها بريبة، لم تكن داخل الزنزانة التي دخلتها الليلة الماضية وفقدت فيها الوعي، بدا لها المكان الجديد أشبه بغرفة صغيرة محفورة في بطن الجبل، بها كوة عالية تسمح لأشعة الشمس بزيارتها والمكوث عندها. ضيقة لا تحوي الكثير؛ فراش أرضي، رداء أزرق له طابع ما ترتديه نساء الواحة، وقلة من الفخار حولها قطرات متناثرة من الماء.

أمسكت بالقلة تديرها بين يديها وقد شعرت بالفزع، انتفضت ما إن سمعت خطوات تقترب، وصوت نقرات فوق الباب الخشبي متتابعة. ظهر أمامها حارس له مظهر «كسار»، بدرع فوق صدره، وهراوة وخنجر في ملابسه.

وضع فوق الأرض طبقًا من الخوص به طعام تجهله، لن تفكر حتى في تناوله، رغم الإرهاق والجوع الشديدين.

رفعت القلة إلى مستوى وجهه، ثم سألته معنفة: «هل سقيتني من البئر المسحورة؟».

لم يجبها الحارس الذي لا تعرفه، أغلق الباب من خلفه، وناداه حارس آخر يستوقفه. التصقَت بالباب تسترق السمع، كان الذي أعطاها الطعام يقول: «هل عثر الرجال على المتسلل؟».

تنهد الآخر قائلًا: «لم نعثر له على أثر».

- كيف ذلك، أين سيكون؟

- السؤال الأهم كيف عبر الهاوية بمفرده؟.. وأين حصانه الذي استخدمه؟.. القصة التي يحكيها «كسار» لم تقنعني.. كيف عثر على المتسلل داخل غرفته دون أن يعرف كيف دخلها؟

- ولماذا سيكذب «كسار».. أنتَ تعرفه.. ليس لديه ما يخافه.

- بل لديه.. الممسوس.

توقفا عن الحديث للحظات، ثم عاد الآخر يسأله: «من هذه المرأة التي أحضرها الممسوس إلى الجبل؟».

- لا أعرف، لكن تدور شائعات منذ الأمس بشأنها.

ازدادت نبراته جدية بينما يفصح لصاحبه: «يُقال إنها امرأة البئر بشحمها ولحمها».

- كيف ذلك يا رجل؟.. امرأة البئر ميتة.. رأينا ملابسها ورأينا قلادتها.

- يُقال إنها بخدعة سحرية باهرة انقسمت إلى اثنتين.. نصف مات داخل البئر.. ونصف حي يتجول في الصحراء منذ الحريق!

استوقفتها كلمة «الحريق»، هل هو الحريق ذاته الذي تأذّى فيه «مطر»؟ أملَت أن تجد في حديث الحارسين جواب سؤالها.

- ممممم لا أستبعد ما يُقال.. إنها امرأة كانت تعيش في دار ساحرة الواحة القديمة.. لا بُد أنها تعلمت منها ما مكنها من خداعنا.

- ستتمنى الفتاة لو كانت ماتت في البئر.. لا أتخيل ما سيفعله الممسوس بها.

ألصقت «سراب» أذنها بالباب أكثر، لم تتمكن من سماع المزيد، ابتعد الحارسان فخبت صوتهما في الحال. أثار حديثهما الكثير من مخاوفها وخيالاتها، لماذا تلتف الأحداث وتعود لتربطها بامرأة البئر؟ هل انقسمت القلادة وصاحبتها اثنتين كما يقول الحارس لصاحبه؟ كيف وأين ولماذا؟

دارت داخل الغرفة تتحسس الجدران الصخرية، تبحث عن فسحة للهرب، لم يكن من منفذ سوى الكوة العالية، والباب المغلق بجنزير حديدي من الخارج.

لم تشرب الماء، قوتها الخائرة دفعتها لتقبل على الطعام بنهم، وتنقض عليه كاملًا.

منحها الطعام الطاقة الكافية لاستعادة صفاء الذهن، وسداد التفكير، وإن كاد حلقها يتشقق من الجفاف، يتصاعد بجانبها الأيسر ألم شديد، في موضع كُليتها بالتحديد. كانت تبحث في رأسها عن طريقة تفلت بها من الأسر، وتقيم الخيارات المطروحة أمامها، عندما انفتح الباب الخشبي بغتة.

رأته مرة أخرى أمامها، يرتدي الملابس نفسها، لا يظهر منه سوى عينين تشتعلان بالغضب، ساعات الليل ونصف نهار لم يكونوا كافين لتهدئة فورة النيران.

اقترب الممسوس منها فتقهقرت، كلما تقدم ابتعدت، إلى أن ضاقت عليها الغرفة بما رحبت. احمرار عينيه أنبأها بأنه لم يذُق غمضًا منذ المساء. بدا لها أن أرق الليلة منحه الوقت اللازم للتفكير، وبات مستعدًّا لمواجهتها، حان وقت الحساب. سألها مباشرة من غير مراوغة: «لماذا؟».

السؤال الذي تكوَّن من أداة استفهام فحسب، فهمته كفقرة بليغة في كتاب، قالت موضحة: «أنا لم أفعل شيئًا.. يبدو أنك تظنني امرأة أخرى.. أنا لا أعرفك».

- لا تكذبي!

صدق حدسها، يحسبها امرأة البئر بنفسها، الطعم الذي أعدته بعناية لصيده، لا تعرف الآن كيف تقنعه أنه كان زائفًا.

- اسمي «سراب».. أنا لستُ من تظنني.

نزع هراوته بحركة مفاجئة، ظننته سيؤذيها فرفعت كفيها بحركة عفوية تتقي الضربة القادمة. نزلت الضربة فوق الجدار بقوة حتى ظنت أن حجارة الجبل ستنهمر فوق رأسها. كرر هادرًا: «لا تكذبي».

لا تعرف كيف تشرح لهذا البدائي عمليات التجميل المعقدة التي تُجرى في عالمها المتحضر، وما بلغته العلوم الطبية من آفاق. لن يفهم أبدًا كيف يمكن تغيير صورة المرء وهيأته، بذلت جهدها كي يفهم ويقتنع، دون أن تمر بحديثها عبر الحريق واللعنة وأسبابها. ثم ختمت حديثها الطويل قائلة: «... وها أنا أملك الآن وجهًا يشبه امرأة تعرفها.. لكنني لستُ هي.. أنا أخرى غيرها».

ظنت أنها زلزلت ولو قليلًا من جبل قناعاته بشأنها، إذ دار حول نفسه متباطئًا دورة كاملة. قبل أن يواجهها من جديد، أخرج من جيبه قلادتها التي لم تنتبه لفقدانها، قائلًا بقسوة بالغة: «إذن لماذا ترتدين هذه القلادة حول عنقكِ؟».

تحسست عنقها الخالي وقد احتدم غيظها، اندفعت تصيح به: «كيف تجرؤ على خلع قلادتي.. أعطني إياها».

القلادة هدية مميزة من جدتها، وليست على استعداد لفقدانها. رفع يده عاليًا فلم تستطع استرجاعها، حافظت بينهما على مسافة آمنة تمكنها من الدفاع إذا فكر في الهجوم عليها.

تشنجت قبضتها تحاول السيطرة على أعصابها، تقول: «لا أعرف السبب الذي يجعلني وهذه المرأة التي تعرفها نرتدي قلادتين متشابهتين.. لكن أقول لكَ للمرة العاشرة.. أنا لستُ من تظنني».

- حتى إنكِ ترتدين رداءها!

نظرت إلى ملابسها بريبة، أوشكت أن تقول مندفعة إنها هدية من «مطر»، لولا أنها لم ترغب في إلحاق الأذى بالرجل الوحيد الذي قدم إليها يد المساعدة.

بدا لها بديهيًّا أن ترتدي رداءً مشابهًا لامرأة البئر، بل ولعشرات النساء في الواحة، فتصميم الملابس في مجتمعهم المغلق ثابت تقريبًا، يتشابه كثيرًا ويتطابق في أحايين عديدة، لكن كيف لهذا الهمجي أن يفهم ذلك؟

- افتح القلادة.. ستجد صورة لوجهي الحقيقي قبل عملية التجميل التي أخبرتك عنها.. هيا افتحها.

أمرته محتدة، أمال رأسه متبرمًا، اعتاد إلقاء الأوامر لا تلقيها، أدار القلادة بين يديه بهدوء استفزها، حتى ظنت أنه لن يستجيب لها. فتحها أخيرًا، تطلع إلى صورتها القديمة للحظات طالت أكثر مما يجب، كأنه يدرس كل تفصيل في الصورة، ويحفظ كل ملمح من وجهها. أغلق القلادة بهدوء، أعادها إلى جيبه لا لصاحبتها، تجاهلت ذلك وقالت مستبشرة: «ها أنتَ قد رأيتَ أن وجهي الحقيقي يختلف عما تراه الآن.. أعدني إلى الواحة مرة أخرى».

اتسمت نبراته ببرود قاتل، شعرت بلسعته فوق جلدها، وأحدث قشعريرة بطول ظهرها: «أنتِ ماهرة جدًّا في اختلاق القصص».

رنَت إليه بدهشة بالغة، وحيرة لا تقوى على تبديدها، تقدم خطوة، وأردف بالقسوة ذاتها: «ستبقين هنا إلى أن تدفعي ثمن النيران التي أشعلتِها».

***

ها قد صدق حدسه، ما إن رآها الممسوس حتى انتزعها منه، لن يقف مكتوف اليدين كرجال الواحة الذين يدفنون رؤوسهم في الرمال كالنعام، لن يكون نعامة مثلهم.

ما كان عليه أن يتركها تغيب عن ناظريه، بينما هي محاطة بكل هذه الأخطار من حولها، ضرب جانب رأسه بقبضته، لم يكن هذا كافيًا لتهدئة ضميره الذي يصرخ فيه مؤنبًا.

- غبي «مطر».. غبي «مطر».

ما فتئ يرددها موجهًا سهام الذنب إلى صدره، يفكر في الممسوس الذي لا بُد وأنه وجه سهام غضبه إلى «سراب»، هذا الغضب الذي نما بداخله يومًا بعد يوم إلى أن صار شعلة متوهجة، تحرق كل من يقترب.

بعجالة بالغة جمع «مطر» أغراضه المهمة من الكوخ، لفها في ملاءة كبيرة، صنع منها جوالًا لفحه فوق ظهره.

لا يجيد فنون القتال، ولا مهارات الفرسان، لم يركب حصانًا قط، لا يملك مظهر الأبطال، ولا كمال أجسادهم، ولا يعرف كيف يتغلب على غريمه في ساحات القتال، كل ما يملكه من عدة وعتاد، هو حبه الذي يحمله.

خرج من الكوخ عازمًا على عدم العودة إليه ثانية، إلا و«سراب» برفقته، إما أن يعود بها، وإما لا يعود أبدًا.

رأى «مشتاق» مقبلًا صوبه بشعر أشعث وملابس مغبرة، حاول كل شيء من أجل إقناع رجال الواحة بمساعدته في الذهاب إلى الطرف الآخر من الهاوية، وإنقاذ «سراب» من آسِرها الملعون.

لم يستجِب له أحد، نكَّس الجميع وجوههم صوب الرمال، ومنهم من أدار له ظهره عائدًا إلى شاغله، يفرون من المواجهة فرارهم من الموت ذاته.

عندئذ زار الموت الواحة، وحطَّ رحاله فوقها، سمع شيخهم يُنادي في الناس: «غدًا صلاة الجنازة».

أفزعه النداء، هجم «مشتاق» على الشيخ ممسكًا بتلابيبه، يسأله في اهتياج: «من الذي مات؟.. هل «سراب» بخير؟.. هل قتلها هذا الملعون؟».

أفلت الشيخ جلبابه قائلًا: «مات رجل مريض من خيرة رجالنا.. تاجر توابل له بنت واحدة اسمها «صدف»».

عندئذ تنهد «مشتاق» بارتياح. بعد طول محاولة وتفكير أدرك أنه لن يساعده أحد أولئك الجبناء، عندئذ ركض صوب كوخ الرجل الوحيد الذي يهمه أمر «سراب»، وسيبذل الكثير لأجلها، حتى وإن كانت حياته مقابل حياتها!

وقف «مشتاق» قبالة «مطر» وعلى وجهه آثار عَبرات فضحت مشاعره، يرسم القلق بريشته فوق قسماته لوحة غائرة، يرنو إلى ما يحمله «مطر» فوق ظهره، يقول بنبرة محطَّمة: «أنقذَتكَ بالأمس حتى وهي لا تعرفكَ».

ثم أضاف متأملًا: «ستُنقذها، أليس كذلك؟».

وقف الرجلان قبالة بعضهما، كل منهما يتطلع إلى الآخر بأمل مشوب بالحذر، أومأ «مطر» برأسه إيجابًا بقوة، دون أن يتفوه بكلمة. همَّ بالرحيل، استوقفه «مشتاق» ممسكًا بذراعه يسأله بحيرة لم يخفِها: «منذ اللحظة الأولى التي رأيتُك فيها عرفتُك على الفور.. تعمدتُ السؤال عن «أبو العيون» كي يصل إليك الخبر وتعرف من أكون.. سبعة أيام انتظرتُك خلالها أن تقول شيئًا..

لكنكَ التزمتَ الصمت.. كنت ستتركها ترحل بهذه البساطة.. لماذا لم تخبرها بالحقيقة؟».

تطلع إليه «مطر» بحزن دفين، يجلد نفسه بسياط الذنب، ما كان عليه أن يتركها فريسة بين براثن الجهل، كان عليه أن يصارحها بكل شيء منذ البداية. اعترف «مطر» هامسًا: «كنتُ مخطئًا».

تنهد «مشتاق» قائلًا بمرارة لا يكفي مخزون الواحة من العسل كي يمحيها: «كلانا أخطأ بإخفاء الحقيقة.. وآن أوان كشفها!».

***

دُنيازاد

لم أكُن قَطُّ حاسمة
وفوق اليقين جاثمة
مذبذبةٌ أنا ومُشوَّشة
وطوال حياتي مُهمَّشة
أتيتُ لأعرف ما خفى
وأُسمِع القمر الذي اكتفى
بما شهدنَه إخوتي
وبسردهن قد احتفى
لم أرَ الكثير لكنني
أعرف أن الحكاية ستنحني
فقد قاربنا ثلثها
وعنده المفترَق
أمامنا عدة طُرق
خيرٌ وشرٌ ونِصفه
خليطٌ أحرَق واحترَق!

الليلة التاسعة والعشرون

إذا تعارض معيارك الأخلاقي مع معايير مجتمعك؛ هل تفعل ما تؤمن به رغم العواقب، أم تسبح مع التيار؟

(1)

تغيرت تفاصيل الحلم هذه المرة.

لم تكن في الواحة عند البئر المهجورة، تسلقت المرأة ذات الرداء الأبيض الصخور الزلقة للجبل الأسود. هربًا من عدو خلفها، لم تلتفت لتعرف من يكون، ربما لأنها بالفعل تعرف من يكون.

يتسلق العدو صخور الجبل وقد أوشك على الإمساك بها، تطلق صيحة عالية تُفزع الطيور في أعشاشها.

تصل إلى القمة، تتعلق بأطراف الصخرة الأخيرة ثم تدفع بجسدها بعيدًا عن الحافة.

يصاحبها أمان لم يدُم عمره سوى لحظات، إذ انهار الجبل الأسود تحتها كأنه بيت من ورق، بينما «سراب» تشاهدها من بعيد، دون أن تتدخل في الحدث.

لكن هذه المرة تشعر أنها تشارك تلك المرأة الفكر والشعور، كأنهما روح واحدة توزعت على جسدين!

استيقظت «سراب» فزعة تُنادي باسم لا تعرفه، لم تمر ثانية إلا وكانت قد نسيت الاسم الذي تفوهت به، بذلت جهدًا لتتذكر فضرب الصداع رأسها.

لا تزال داخل الغرفة الصغيرة ذات الفراش الأرضي، تنام جالسة، تضم ساقيها إلى صدرها، مخافة أن يدخل أحد الحراس فجأة، رغم أنها لم ترَ الحارس الذي أحضر لها الطعام سوى مرة واحدة.

تتحامل لتقف، تطرق الباب الخشبي بعصبية، ظنت أن أحدًا لن يجيبها، إلا أن الباب انفتح، فتراجعت خطوات متوجسة.

وقع بصرها على امرأة خمسينية، لا ترتدي مثل نساء الواحة، رداؤها رمادي غير مزخرف بالأحجار الصغيرة أو الخيوط الملونة.

فوقه مريولة بيضاء متسخة ببقع الطعام، تفوح منها رائحة الثوم والبصل، لم تشك «سراب» في كونها طباخة.

تحمل صينية من الخوص، بها طبقان أحدهما ممتلئ بالبلح.

لم تتواصل معها بعينيها، أشاحت عنها النظر، وضعت الصينية فوق الأرض، ثم استدارت متلهفة على الخروج. استوقفتها «سراب» سريعًا: «انتظري.. أرجوكِ ساعديني.. أخرجيني من هنا».

استدارت المرأة عابسة، ترميها بنظرات حانقة، تزدرد ريقها ثم تقول: «لستُ أنا من يقرر ذلك».

أوشكت على الرحيل فناشدتها ثانية: «أنا لا أنتمي إلى هذا المكان.. هذا الرجل البدائي يظنني امرأة أخرى.. حاولتُ أن أشرح له من أكون.. لكنه لا يصدقني.. أرجوكِ ساعديني.. أريده أن يفهم أنه أخطأ بشأني».

لم يعد للحنق مكان في نظرات المرأة، باتت حادة كحافة صخرية متعرجة. تقول بثقة: «الممسوس لا يخطئ».

ثم أضافت بنبرات مرتجفة، تسترجع ذكرى مؤلمة: «أنتِ التي أخطأتِ.. وعلى المخطئ أن ينال عقاب ما فعل».

- أقسم لكِ إنني لستُ من تظنونني.. اسمعي حكايتي ثم احكمي.

لم تدع لها المرأة فرصة للاسترسال في حكايتها، غادرت الغرفة التي تشبه الزنازين، ثم أغلقت الباب بالجنزير.

جلست «سراب» مستندة إلى الجدار متحاملة على نفسها، الألم يكوي جانبها الأيسر، لا تقوى على الوقوف باستقامة. تستند إلى الجدار بظهرها، تسحب الصينية وتأكل ما يسد جوعها.

بعناد فولاذي لا تقرَب الماء في القلة الفخارية، لا تزال تأمَل الرحيل، لا ترغب في إلحاق الأذى بنفسها، أتت إلى الواحة تبحث عن علاج لما أصابها، لن ترحل منها بلعنتين بدل واحدة.

تمر بها الدقائق والساعات بطيئة جدًّا، وقاسية جدًّا، لو تعثر على جدها المفقود، ستتمكن من إثبات هويتها، للممسوس الذي يُكذِّبها.

لكن كيف تعثر عليه وهي لا تعرف هويته الجديدة التي عاش بها بين أهل الواحة؟

على أحدهم أن يساعدها، ولم تجد حتى الآن مرشحًا لذلك سوى المرأة التي تحضر لها الطعام، رغم البرود والحدة في المعاملة.

يبدو أن الممسوس ألقى بمسؤولية إطعامها وقضاء حاجاتها على كتف المرأة الطباخة، إذ إنها لم ترَ أحدًا غيرها.

انتظرت بصبر أن تعود ثانية، هذه المرة ستنجح في إقناعها، لن تتوقف عن المحاولة.

تُرى ماذا يفعل «مطر» الآن؟ هل طاله أذى الممسوس وبطشه، هل تضاعفت عقوبته، أم تمكن من النجاة بنفسه؟

لو كان لها مهارة زرقاء اليمامة التي تستطيع الرؤية على بعد مسافات وأزمنة، لرأت «مطر» يقف أمام النفق الذي يشق الهاوية، الذي استخدمه ذات مرة للعبور إلى الجارة السوداء.

الحزن يجعد جبينه، والخيبة تقرض فيه الأمل، إذ كان النفق مسدودًا بالحجارة، من أوله إلى آخرة. لفظ اليأس أنفاسه سريعًا، أمام المخاطر التي قد تتعرض لها «سراب» وهي بين يدي الممسوس.

نفض الخيبة عن صدره، ثم أمسك بصخرة تلو الصخرة يحاول حملها أو زحزحتها.

كان قُطر النفق صغيرًا، يُمكِّنه من العبور زاحفًا، لذا كان حجم الحجارة التي تسده قابلة للحمل أو الإزاحة.

غير أن النفق طويل جدًّا، يستلزم إفراغه من جميع الحجارة سبعة أيامٍ كاملة!

لم يدع هذا يثبط من عزيمته، بكفين عاريتين أمسك بصخرة وحملها، كاد أن يسقط فوقها، تحامل رغم الألم الذي شق ظهره المحدودب نصفين، استمر في العمل، مغالبًا الألم الحارق، والشمس الملتهبة، استمر لأجلها.

يرعبه فقدانها، ليس في هذا التوقيت، وليس بهذه الطريقة المُجحفة.

***

استرسلَت في حلم يقظة جميل، يجتمع فيه شمل عائلتها؛ جدها، جدتها، «مشتاق»، وخالها.

حول مائدتهم البيضاوية، في شرفتهم الواسعة، يتلذذون بطعام أعدته يداها الماهرتان، يتشاركون الضحكات، والذكريات، واللحظات الدافئة.

أصدر الباب صريرًا بدد حلمها، ظهرت الطباخة تُلقي عليها نظرة خاطفة، تستبدل الصينية الممتلئة بالفارغة، تتجنب التواصل بالنظر. عندئذ بادرتها «سراب» بوهنٍ متسائلة: «هل لديكِ أبناء؟».

تجمدت الطباخة لوهلة، أحجمَت عن منحها الجواب، فاستطردت «سراب» كأنها تتحدث إلى نفسها: «أنا أودُّ كثيرًا أن يكون لي أبناء.. لكن بسبب لعنة قديمة لم أنجح في بناء عائلة».

اتسمت نظرات المرأة بشيء من اللين، تبدد سريعًا خلف قناع من الصرامة والحدة. سرى صوت «سراب» بشجن في الغرفة الضيقة: «في المكتبة التي أعمل بها الكثير من الكتب القديمة، قرأت ذات مرة إحدى القصص العجيبة، كانت مطبوعة داخل كتاب بلا غلاف، صفحاته صفراء مهترئة، لم يرغب أحد في شرائه، ولا حتى بنصف الثمن.. لا أعرف لماذا اجتذبني هذا الكتاب بالتحديد، أكثر من الأغلفة البراقة المغرية».

سعلت مرتين، ثم ضغطت جانبها متوجعة، تتابعها نظرات الطباخة، بشيء من الشفقة أحسَّت به تجاهها، بينما الريبة لا تزال تتسور عينها. استطردت «سراب» ساهمة: «تروي القصة حكاية النار التي كانت تشعر بالوحدة منذ بدء الخليقة، نظرت فإذا بالجميع يفرون منها، لا أحد يرغب في صداقتها، لا أحد يجرؤ على الاقتراب أو المصافحة. كانت النار تحلم كل ليلة بعناق دافئ، تحظى به لمرة واحدة، قبل أن تقتلها ريح عاصف، أو تخط فوقها قدم كبيرة لحيوان عملاق. سافرت النار من بلد لآخر، جابت الأرض من شرقها إلى غربها، كل ما أرادته عناق واحد، عناق لم يمنحها إياه أحد. ذات مساء يركض سريعًا صوب الأبدية، تعرفت النار إلى صديق جديد اسمه ماء، تريثت في علاقتهما، مخافة أن تنتهي سريعًا فينفطر قلبها، عندما يهجرها الماء أو يخافها. كل ليلة، وتحت أعين القمر، كانت النار تجلس جوار الماء فوق الرمال الصفراء الممتدة صوب الأفق، دون أن يتلامسا. يتسامران، يتضاحكان، ويتقاسمان الساعات الساحرة. إلى أن أفضَت النار بأمنيتها الوحيدة إلى الماء، في لحظة دافئة جميلة، ولأن الماء أحب النار من مجامع قلبه، لم يتمكن من رد طلبها. حقق لها أمنيتها الأثيرة، عانقها بقوة، وبحب، وبرغبة أنسَتها ذكريات اللحظات القاسية. عندما فتحت النار عينيها لم ترَ بين ذراعيها سوى بخار كثيف، يهرب منها ويطوف حولها، تمد السماء أكفَّها، تجمعه، ثم تأخذه عندها. حزنت النار كثيرًا على ما ألحقته بالماء من ضرر،

وأقسمت أن تأكل الأرض كلها من شرقها إلى غربها، إن لم تعِد لها السماء الماء ثانية. فعقدت السماء مع النار اتفاقًا، مدة سريانه أبدية كاملة. وهكذا مع كل غيمة تمر، ترسل السماء بعض الماء إلى النار، كي تهدأ ثورتها، وتسكن غضبتها، ولا تأكل الأرض كلها».

اجتذبت الحكاية انتباه الطباخة فوقفت بلا حراك، تحمل الصينية الفارغة، تحدوها دهشة عظيمة، وحيرة بالغة.

رفعت «سراب» بصرها وسددته في عين المرأة التي تتحاشاها، تردف بابتسامة هازئة: «أشعر أنني تلك النار الجامحة.. التي تؤذي كل من يدنو منها.. إلا أنني خسرتُ حصتي من الماء.. ولم أعقد مع السماء اتفاقًا أبديًّا ساريًا.. لا شيء قادر على إطفائي.. لا شيء قادر على تهدئتي».

تفكرت في «مطر»، إنه أكثر شخص تأذى بالاقتراب منها، رغم ما منحها إياه من اهتمام ورعاية. أطرقت الطباخة قليلًا، أطلقت تنهيدة صغيرة، كانت كافية لتدرك «سراب» أنها أصابت منها وترًا بليغًا. دنَت منها، ليس كثيرًا، أبقت على مسافة فاصلة بينهما، تحفظ للطباخة حدودها، وهي تستطرد: «إن لم تُساعديني لن تُكتَب لي النجاة أبدًا».

أخيرًا تحدثت المرأة تقول بحدة، وقد استجمعت الكثير من ثباتها: «أنتِ من فعلتِ هذا بنفسكِ.. ألحقتِ بالجميع الأذى».

قالت «سراب» بسرعة مؤكدة: «لستُ من تظنونني.. تلك امرأة غيري لا أعرفها ولم ألتقِها».

ضيقت الطباخة عينيها تتساءل متشككة: «كيف ذلك؟.. قال الممسوس إنكِ هي».

- أي أنكِ لم تريني بنفسك.. لا تعرفين هذا الوجه الذي أحمله؟

- لا، لكن الممسوس يعرفه.

- إنه مخطئ.. أقسم لكِ.

- الممسوس لا يخطئ.

قالتها المرأة باعتداد كبير، فناشدتها «سراب»: «صورتي في القلادة.. لكنه أخذ القلادة».

بدت الحيرة على وجه المرأة، لم تجد «سراب» جدوى من إعادة قص تفاصيل العملية التي خضعت لها، ثم توجهت مباشرة صوب هدفها: «أستطيع أن أثبت لكِ أنني لستُ هي».

- كيف ذلك؟

- جدي.. إنه هنا في هذا الجبل.. أحتاج إلى الذهاب عنده.. هو الوحيد الذي سيؤكد للجميع أنني حفيدته.. لا تلك المرأة التي تكرهونها.

- جدك!.. تلك المرأة كانت غريبة عن واحتنا لم يكن لها أقرباء هنا.

- ها قد رأيتِ صدق كلامي.. تلك المرأة ليس لها أحد.. أما أنا فلي جد يعيش هنا.

- من يكون جدك؟

- لا أعرف اسمه الجديد.. اعتاد الناس أن يدعوه بـ «أبو العيون».

اتسعت عينا الطباخة في ذهول، تسأل والشك يفسح في أفكارها مكانًا واسعًا: «هل القاضي هو جدك؟!».

حمدت «سراب» ربها وكادت أن تخر ساجدة، توصلت أخيرًا إلى هوية جدها بزلة من لسان الطباخة غير محسوبة.

لا تدرك المرأة أنها أهدتها معلومة ثمينة قيمة.

جدها هو القاضي، وهذا يعني أن له مكانة رفيعة مميزة، تجعله قادرًا على الوقوف في وجه الممسوس وإنقاذها من لعنة الساحرة.

- أرجوكِ.. فقط خذيني إلى جدي.. هكذا ستُنقذين حياتين لا حياة واحدة.

تفكرت قليلًا، ثم هزت رأسها بخوف قائلة: «لا أستطيع أن أسمح لكِ بالخروج».

- فقط لمرة واحدة.

- مستحيل.. لا أستطيع مخالفة أوامر الممسوس.

صمتت «سراب» قليلًا، ثم اقتربت من المرأة تحط أناملها برفق فوق ذراعها. تقول بودٍّ تستميل به قلبها: «حسنًا، لدي فكرة أخرى تمكنني من التحدث إلى جدي دون أن تخالفي أوامر الممسوس.. اسمعيني جيدًا».

خلال دقائق كانت «سراب» قد أخبرتها بخطتها المُحكمة، لم تبدِ الطباخة استعدادًا لمساعدتها، لكنها كذلك لم تُظهر إشارات الممانعة.

- ماذا يحدث هنا؟

انتفضتا ما إن سمعتا صوت الممسوس خلفهما، يسد بجسده مدخل الغرفة، والشرر يتطاير في الأرجاء.

ترتجف الصينية في يد الطباخة، تُنقل نظرها من «سراب» إلى الممسوس باضطراب، يتقدم منها خطوة ثم ينهرها بقسوة: «ألم أقل إن الحديث معها غير مسموح؟».

- أعتذر.. أعتذر كثيرًا.. كانت فقط تسألني عن...

قاطعها بإشارة حازمة من يده، يُردف آمرًا: «إن رأيتكِ تتحدثين إليها مرة أخرى، سأحبسكِ مكانها».

أومأت برأسها إيجابًا وقد استشعرت ذنبها، ألقى على «سراب» نظرة خاطفة، حادة، ومتسلِّطة. ثم خرج إلى الممر يُنادي في رجاله ويصيح قائلًا: «ممنوع التحدث معها.. ممنوع النظر إليها.. من يكسر أوامري سينال عقابًا رادعًا».

نقل الفراغ أصداء كلماته الملتهبة إلى الآذان المنصتة، ران الصمت بقوة بعدها، دخل الزنزانة وبإشارة من رأسه دفع الطباخة إلى المغادرة. شعرت «سراب» بوجوده ثقيلًا غير محتمل، تمسك بجانبها الأيسر تتحامل على الألم.

ظنته سيصرخ بها كما صرخ بالجميع، اكتفى بنظرات رادعة، ثم دار على عاقبيه ناويًا الرحيل. استوقفته بحدة، وبنبرة مستفزة: «تمنع أتباعك من رؤيتي أو الاستماع إلى كلامي.. ألهذه الدرجة تخشاني؟».

يلتفت لها بروية، وقد نجحت في إصابة هدفها، تشنجت أنامله، يضمها في قبضتين مُحكمتين. لم تكن مجرد عبارة ألقتها، كان لها وقع زلزلة، قال بعنفٍ مديرًا السهم إلى صدرها: «بل لهذه الدرجة لا أثق بكِ».

أطلقت ضحكة صغيرة مشحونة بالتوتر ثم قالت: «الشعور متبادل.. لكن على الأقل لدي أسبابي المنطقية.. أما أنت فتعيش في وهم صنعه خيالك.. أنا لستُ مَن تظنني».

- تريدين اللعب؟.. حسنًا استمري في كذبتك.. وسأستمر في حبسكِ هنا.. إن أردتِ النجاة.. ليس لكِ إلا طوق واحد للتمسك به.. الاعتراف.

- بماذا؟

قال منفعلًا ومغلظًا: «بأنكِ مجرمة!».

عند هذه النقطة كانت كل خلية بداخله تغلي من الغضب، يقف كجمرة مشتعلة لا سبيل لإطفائها، حتى وإن أسقطَت ألف غيمة ما تحمله من مطر.

تهزها الكلمة، تشتت أفكارها، تصورت كل شيء، إلا أن تكون امرأة البئر قد أقدمَت على جُرم خطير، ما جُرمها؟ وبحق مَن أخطأت؟ تكاثرت في رأسها الأسئلة.

قال بازدراء كبير، محتدًّا عليها، ونافرًا منها في آنٍ: «لن أسمح لكِ مرة أخرى بممارسة ألاعيبك المخادعة».

تطلعت إليه في صمت بينما تفكر، إن كان يظنها تلك المجرمة، لماذا لا يقتلها أو يعاقبها، لماذا يلقي بها داخل الزنزانة وكأنه لا يدري ماذا يفعل بها؟

يخرج ساحبًا الهواء من زنزانتها، تسمع صوت الجنزير يسد عليها أي منفذ للهرب، لا أمل لها سوى الخطة التي أعدتها، فقط لو تستجيب الطباخة وتقبل بمساعدتها.

***

(2)

لا يمكن لشيء أن ينكسر مرتين، فالمكسور ما هو إلا شظايا، والشظايا لا تُكسَر.

هذا يعني أن قلبها الذي بلغ آخر درجات التحطيم، لا يمكن لشيء أن يؤذيه أكثر، وهذا أمر جيد إذا أرادت النظر إلى نصف الكوب الممتلئ.

هكذا فكرت «سلَّام» وهي جالسة في الحقل، تدس البذور في الطين، بعد سنوات من السقيا والرعاية، ستنمو البذور إلى أشجار مثمرة.

ربما عندما تتذوق أولى ثمراتها، ستتذكر تلك اللحظة التي شعرت فيها أنها بلغت الحضيض، وربما عندئذ لن يكون الأمر سيئًا كما هو الآن. لم يزعجها اتساخ يديها وردائها، أحبت الانغماس في الوحل، لو أمكن لها، لغاصت فيه بكامل جسدها.

مسحت العرق المتفصد فوق جبينها بطرف أكمامها، فركت يديها، بينما تعبر الحقل وتتجه صوب الحظيرة لغسل يديها وحلب الأبقار.

فوجئت بـ «طوفان» داخل الحظيرة، يجلس فوق بسطة بجوار كوة تطل على السماء الباهتة. كأنه يختبئ من أحد، أو من الجميع، بدا مهمومًا، مغمومًا، شارد الذهن، مثقل الفؤاد.

دنَت منه، لم يشعر بوجودها إلا عندما باغتته: «عمي «طوفان»! ماذا تفعل هنا؟».

رفع رأسه يرنو إليها في انزعاج، هل لأنها اقتحمَت خلوته، أم لأنه خاف أن تفشي مكان مخبئه؟ تساءلت في نفسها بينما تستطرد: «سألني أبي عنكَ في الصباح».

بدا جليًّا أنه اختلى بنفسه داخل الحظيرة، لأنه المكان الوحيد الذي لا يدخله «أبو الأحناش»، وبدا لها كذلك أنه لا يتجنب أباها فحسب.

شهدت في الصباح لمحة صغيرة من حديث عاصف دار بينه وبين «هلال» في عزاء والد «صدف»، عندما كانت عندها في البيت تواسيها وتشد من عضدها.

بلغت حدة أصواتهما الأسماع، اختفى «طوفان» بعدها، وها هي تكتشف مخبأه الذي انعزل فيه عن الجميع.

- هل أزعجكَ حديث «هلال»؟ لا يمكنكَ أن تلومه يا عمي.. «هلال» يحب خالته «مندورة».. ويحبك كذلك.

- لا شأن لكِ بأمور الكبار.

أغاظتها كلماته، والحجة التي يرميها بها في كل مرة تحاول التحدث إليه.

- لستُ صغيرة.. تعرف ذلك.

عابس الوجه، قاطب الجبين أطلق تنهيدة عميقة، وفرك كفيه في عصبية. تعرف جيدًا ما يشعر به، هي نفسها لا تطيق أسئلة الآخرين عن سبب انفصالها عن «جمعان»، لا تعرف كيف تشرح لهم ما يدور بخلدها.

لا تستطيع أن تسكب نفسها في أسماع الجميع، قريبًا كان أم غريبًا.

ثمة أمور لا يستطيع الإنسان التحدث عنها، ولا حتى مع نفسه، فكيف بشرحها للآخرين، وتحمل فضولهم الذي لا يهدأ؟

كانت أكثر من يفهمه الآن، لذلك لم تلح عليه في السؤال، ولم تتطرق بكلمة إلى طلاقه من «مندورة».

غسلت يديها وشرعت في حلب الأبقار، تتحدث عن الحقل والبذور التي زرعتها، والأشجار التي ستنمو بعد سنوات، وإلى أي الثمار تحتاج الواحة أكثر من غيرها.

تحدثت عن الدار وزحامها في النهار، وخلوها في المساء، عن أعباء المطبخ، والطعام الذي تعده النساء اليوم، وطرائف الأطفال.

تحدثت عن الموت، والحياة بعده، وأن الميت يرحل أما الموت فيظل فوق صدور أهله جاثمًا، يذيقهم تبعاته القاسية.

هذا ما كانت تحب أن يفعله معها الجميع، يتحدثون في أي شيء إلا عنها، حتى وإن كان حديثًا عابرًا عن توافه الأمور التي لا يهتم بها أحد.

أطرق «طوفان» يستمع إلى حديثها غير المترابط، عن أمور كثيرة لا يجمعها عامل مشترك، شعرت أن التوتر بدأ يتسرب من مسامه شيئًا فشيئًا، وإن لم يتبدد عبوسه بالكامل.

بينما تتحدث كانت أفكارها تروح وتغدو، تفتش عن السبب الذي هدم له ثلاث زيجات، لم تدُم أطولها أكثر من عام. وكلما تعمقت في التفكير، وأجهدت نفسها في حل المعضلة، شعرت بقلبها أكثر خفة، وأقل حزنًا. يبدو أن الحل الناجع لقلبها المكسور، أن تُشغل نفسها بشيء يهمها، تزاحِم الألم بمشاعر أخرى متباينة.

يدفعها الفراغ لأن تجتر كل المشاعر المؤلمة، والمواقف القاسمة، يجعلها تتأسف طوال الوقت على حالها.

الفراغ وحش فتكاك يتغذى على آمال المرء وأحلامه، يُذكره بكل ما يبغض، ولا يمنحه الفرصة لأن ينسى. عليها أن تتعامل مع الفراغ كعدو، تحاربه بشتى أنواع الأسلحة.

إن كان مصيرها الوحدة، عليها أن تألفها كصديق صدوق.

ستضع فكرة الزواج خلف ظهرها، وتبحث عما يشغل وقتها، إلى أن يأذَن الله ويأمر للشيء أن يكون. قررت أن تكون مشكلة «طوفان» هي شاغلها الأوحد خلال الأيام القادمة. ستُعيده إلى «مبرورة»، وتعالج علته التي لا يبوح بها.

***

في بيت «مندورة» اجتمعت النساء، يقدمن لها واجب المواساة، يمطرنها بأسئلة دقيقة عن حياتها، والسبب الذي دفعهما للانفصال.

امرأة طويلة، سمراء، كثيفة الرموش، سوداء العينين. لم تتفوه «مندورة» بكلمة منذ طلاقها، لم تبُح بما تكتمه في صدرها، رغم المحاولات الحثيثة لأختها.

وعندما قدمت «أم الرمال» إلى دارها، انتعشت وأحسنت استقبالها، انفردت بها في غرفة مغلقة، بعيدة عن أعين النساء وأسماعهن المنصتة.

لم يعرف أحد ما دار بالداخل، وعندما انفتح الباب بعد ساعات، كان كلا الوجهين محتقنًا؛ أحدهما بالغضب، والآخر بالبكاء.

خرجت «أم الرمال» من الدار دون أن تلقي السلام، تستند إلى عصاها، رافضة الرفقة أو المساعدة. طافت في الواحة تبحث عن «طوفان» لم تعثر له على أثر، فجلست على عتبة داره القديمة، التي كانت له قبل زواجه بـ «مندورة».

أشفقت الشمس على الجدة التي لا تبارح مكانها، فمسحت فوق رأسها بكف مخففة الحرارة. أقبل «طوفان» أخيرًا على داره، تتباطأ خطواته بعدما أبصر الجدة من مبعدة، ما إن وقف أمامها حتى أمالت رأسها كما تفعل كلما أرادت تدقيق النظر.

ضربت عصاها بالأرض ولا تزال جالسة، تقول بغضب عظيم مكبوت: «لماذا طلقت «مندورة»؟».

يزفر «طوفان» بقوة، معلنًا عن انزعاج كبير، وضيق شديد من دس أنفها في أموره، تدق الأرض ثانية، منتظرة جواب سؤالها.

- كان الطلاق طلبها.

لم يعجب الجدة الجواب، مدت شفتيها متبرمة، تقول: «وهل كل ما تطلبه المرأة ينفذه زوجها؟».

يقول ببرود كبرد الصحراء الذي ينخر العظم في المساء: «لن أعيش مع امرأة رغمًا عنها».

- ولماذا أرادت «مندورة» الطلاق؟

- لا أعرف، اسأليها.

- ألم تسألها؟

- كلا، لم أسألها.

نهضت الجدة مستندة إلى عصاها، تسير مترنحة إلى أن وقفت أمامه، تقول بحدة: «لأنكَ تعرف الإجابة».

تدنو منه، يزداد لهيب كلماتها، تدفعه في كتفه، ثم تستطرد بشراسة: «ستعيد «مندورة» إلى عصمتكَ».

يواجهها «طوفان» بقوة: «لن أفعل».

- إن لم تفعل سأفشي سرك الخبيث للجميع.. لن أدعهم يبقون عليكَ في واحتي ثانية واحدة.

- لن أعود إلى امرأة لا تريدني.

- إذن سأبحث لكَ عن عروس جديدة.

يثور «طوفان» هادرًا بصوت حازم غير قابل للنقاش: «افعلي ما شئتِ.. لن أستجيب لابتزازك ثانية».

ما إن يتفوه بذلك حتى ينخره الندم، يعرف أنه في الغد سيبحث عن الجدة في الواحة بأسرها. وما إن يمثل أمامها حتى يكتم غيظه، وينحر غضبه، ويعتذر لها راجيًا ألا تبوح بالسر الذي يُخفي.

لكنه الآن في فورة الانفعال، تركها ودخل داره، يغلق بابه بقوة في وجهها.

تستدير «أم الرمال» تتطلع إلى الباب المغلق بنظرات حانقة، ومتوعدة.

***

يمسك «هلال» بمزهرية فخار مكسورة، يحاول جمعها وإصلاحها، أسقطها من غير قصد عندما مر بجوارها.

يجلس أمام النافذة المشرعة، سامحًا للشمس بمسح داره وتنفيض غبار الظلام عنها.

يمنحه الاندماج في إصلاح المزهرية الفرصة في تصفية ذهنه مما علق به من شوائب الأفكار، ويعمل على تهدئته من الحنق الذي لازمه منذ تشاجر مع عمه «طوفان».

تراقبه «فلك» مقطبة الجبين، عاقدة ذراعيها أمام صدرها، ألهذه الدرجة يملها؟

لم يمر سوى يوم واحد على زفافهما، ها هو ينشغل عنها بمزهرية لا قيمة لها، يستطيع شراء ألف واحدة غيرها.

رمقت المزهرية بنفور شديد، كأنه يحمل بين ذراعيه غريمة لها. منحها قبل قليل هدية الزفاف، شال من الحرير مصنوع خصيصى لأجلها، تعرف أنه لم يختَره بنفسه، وأن أمه من أعدت المفاجأة.

وأهدته هي جلبابًا رماديًّا، لم تختره بدورها، كانت أمها من جابت السوق بحثًا عن هدية لائقة.

تكثر فجوات الصمت بينهما منذ أن عاد من العزاء، لا يُسمِعها ما تود سماعه، ولا تعرف مداخله. كأنهما غريبان تحت سقفٍ واحد.

يمسك «هلال» بشظية، وبحرص شديد يعيد تثبيتها، يستغرقه الوقت فلا يشعر بميل الشمس صوب المغيب إلا عندما تخف حرارتها داخل الدار.

ينظر حوله كمن يستيقظ من غفوة، يترك المزهرية بعدما أتم مهمته، وخف سخطه الذي تكالب عليه، يمسح الدار بنظراته بحثًا عن «فلك»، يعثر عليها أمام مرآتها، تجمع شعرها في ضفيرة طويلة، يُمرر عليها نظراته إعجابًا ويبتسم.

تسترق إليه النظر عابسة، دون أن تفصح عن السبب، يجتهد في إضحاكها، ويتفنن في ملاطفتها، فتتسرب من شفتيها بسمة صغيرة وقورة، بينما تقول له في فتور: «أزعجني ما قلته أمام أخواتي اليوم».

يحك «هلال» رأسه في محاولة للتذكر، يرنو إليها بحيرة، فتقول بصبر نافد: «قلتَ إنني قصيرة».

- لكنكِ كذلك!

- لا أحب أن تقول ما يسيئني أمامهن.

- كنتُ أمدحكِ لا أذمكِ.. تعجبني المرأة القصيرة.

تراجعت عن هجومها وقد أعجبتها مقالته، أومأت برأسها إشارة لاستحسانها.

رغم ذلك شعرت بشيء يوخز صدرها، عدم ارتياح رافقها منذ ليلة الزفاف، فالواقع لم يكن بمقاس خيالاتها، الواقع أكثر عادية، وأقل سحرًا.

لاح بخاطرها ما حدث اليوم بعد الظهيرة، عندما خرجت من الدار رفقة أمها قارئة الصخور للذهاب إلى دار «صدف»، رغم أنها عروس جديدة، فإنها تعرف أن العزاء واجب لا يتخلف عنه أحد.

وبينما تستعد للخروج من الدار، باغتها مشتاقها يقف في زاوية قريبة، يستظل بشجرة سامقة، لم يكن هذا ما أثارها، بل الشيء الذي يحمله.

أمسك بيده الدلو الذي يخرِجون به الماء من البئر المسحورة، وقد قطع الحبل أسفل عقدته، ينتظر خروجها، يعرف أنها كسائر النساء ستتوجه إلى بيت العزاء.

وما إن تلاقت نظراتهما حتى رفع الدلو إلى فمه، يعب الماء بداخله، ويسمح بانتشار السحر في جسده، غير عابئ بأي عاقبة.

شعرت بإثارة بالغة، جعلتها تفكر مدهوشة، هل فعل هذا لأجلها؟ يا له من متهور!

مرت به فلملمت عنه نظراتها، لم تلتفت إلى الخلف مخافة أن تنتبه أمها، لكنها ابتسمت أسفل الوشاح الذي كانت تمسك طرفه وتخفي به ثغرها.

***

لا شيء أكثر مرارة من فقد الأب.

يمكن لها أن تتصور عشرات العوامل التي تقسم الظهور، وتدُك الأبدان، وتسحق النفوس، ولا واحد منها يعادل ما يُحدثه رحيل الأب من تأثير.

لا يكون الفقد بالموت فحسب، بل كذلك بالغياب، أو الانشغال، أو الإهمال، جميعها طرق ممهدة للتدمير.

لا تصدق الفارق الزمني القصير بين حالتيها؛ السعادة والشقاء، كأنها عاشت كلًّا منهما عمرًا كاملًا، لا ساعات معدودات.

بدت فرحتها بالنجاة من «كسار»، وبالزواج بـ «قوس» بعيدة جدًّا، كأنها حدثت منذ ألف سنة من عُمر الكون، كأن عصرًا كاملًا قد اندحر.

لم تسمع أيًّا من كلمات المواساة، لم تشعر بأي من لمسات العزاء، تعطلت حواسها، وتوقفت عن استجلاب الشعور إليها. فكانت كالدمية بين أيديهم، يحركونها من غرفة لأخرى، ومن الدار إلى المدافن، ثم يدسونها آخر اليوم في الفراش.

يتساءل من حولها عن «كسار» ظنًّا منهم أنه الزوج الذي عقد عليها أمام أعين أهل الواحة.

كان من المفترض كما اتفقت مع «قوس»، أن تخبر الجميع بزواجها به، لئلا يسمحوا لـ «كسار» بإزعاجها، وكي تبقى في أمان إلى أن يعود «قوس» من الجارة السوداء.

لكن كما اعتادت دائمًا، هربت من المواجهة مع أهل الواحة، رغم أنها لم تجرم في حق أحد، تزوجت بموافقة أبيها ومباركته.

تكتمت «صدف» على الخبر، لم تجرؤ على الخروج من الدار، حتى حدث ما حدث، وجدت أباها في فراشه وقد لفظ أنفاسه الأخيرة.

بدا وجهه مسترخيًا، كأنه مات راضيًا، مقبلًا على الموت لا مستدبرًا.

الجميع يسأل عن غياب «كسار» ويتهامسون بشأنها، بينما هي في عالم آخر، تجتر مرارة الفقد وحدها. ترفع رأسها عن الوسادة، تفتح النافذة وتتأمل الطريق، ثم تعود لتريحه، تنتظر عودة «قوس»، الغصن الوحيد المتبقي لها.

حل المساء متباطئًا، عندئذ أسلمَت عقلها المجهد لسلطان النوم.

أما «كسار» على الجانب الآخر فقد تلقفه الأرق، يتلاعب به السخط والذل والمهانة، يهمسون في أذنه بما يجب أن يفعل كي يسترد اعتباره، وينكل بخصومه.

مات الرجل الذي غشه وزوَّج ابنته لغيره، وجعله أضحوكة بين الرجال، مات قبل أن يفترسه «كسار» وينتقم لنفسه.

ما زال «قوس» مختفيًا عن الأعين، لا يعرف أين يكون؟ كل ما يعرفه أنه لن يتمكن من العودة إلى الواحة إلا بحصان عفي يعرف فارسه كيف يقفز فوق الهاوية دون أن يسقط بداخلها.

و «قوس» ليس هذا الفارس، ولا يملك حصانًا.

لن يستطيع «قوس» العودة أبدًا، لكن هذا لم يكن كافيًا لتهدئته، كان ناقمًا، وراغبًا في استرداد ما فقد. لن يشفي غليله إلا استعادة «صدف»، وإتمام زواجه بها، وتحقيق أحلامه بشأنها.

انطلق «كسار» صوب قاعة ساحرة الجبل، التي تقع في الطرف الغربي للجبل، وتطل مباشرة على قلب الهاوية.

للقاعة بابان خشبيان متينان، وأربع من النوافذ الطويلة، تصل أرض القاعة بسقفها.

أما السقف فكان عبارة عن صخور سوداء متدلية، حادة الطرف، كأنها خناجر معلقة.

تستوي الساحرة فوق مقعد مهيب من الذهب، محفور فوق بدنه جماجم بشرية صغيرة مطلية بالأسود، وفوق مسند الظهر تتبدى جمجمة كبيرة لحيوان لا يعرف نوعه إلا الساحرة.

تقول الأقاويل إنها لحيوان خرافي أخرجته من بطون الأساطير، تلاقيا معًا في حرب طاحنة، قطعت فيها عنقه وسلخت رأسه، وعلقته فوق عرشها.

أما الساحرة نفسها فكانت امرأة لا تزيد على الأربعين، تزوجت مبكرًا وأنجبت سريعًا، حتى لكأنها و«صدف» أختان لا أم وابنتها.

تهتم بنفسها كما يليق بساحرة؛ بشرتها، ملبسها، وزينتها، تجلس فوق عرشها برفعة وإباء، ومن حولها بعض حراسها وخدمها.

وقف «كسار» أمام عرشها يُلقي التحية التي تليق بقوتها وسحرها، ثم يمرر كفيه فوق وجهه يمسح قليلًا مما علق به من سخط، يقول محتدًّا دون أن يتعمد ذلك: «يجب أن نتحدث بمفردنا».

بإشارة من كفها لبى الجميع أمرها غير المنطوق، خلت القاعة الفسيحة إلا منها و«كسار»، يرتجف حقدًا ويقول ناقمًا: «مات زوجك.. مات قبل أن أعاقبه».

لم تظهر فوق قسمات الساحرة أي بادرة حزن، أو لوعة فراق، كأنه يخبرها أن غريبًا لا تعرفه قد واراه الثرى.

لوح بسبابته في عصبية، والرغبة في الانتقام تأكله: «لن أتركه يفلت حتى وإن كان داخل قبره».

ثم يستطرد: «وعدتِني بـ «صدف».. عليكِ أن تفي بوعدكِ.. يجب أن آخذ من زوجكِ ما سلبني إياه.. وأتركه يتذوق الحسرة والندم.. سأمر بقبره برفقة «صدف» وأريه من الذي فاز أخيرًا، ومن الذي خسر إلى الأبد».

كانت الساحرة تسمع «كسار» وتراقبه، بعينين مكحلتين بخطوط سميكة تضاعف حجم عينها، وترسم لنظراتها طابعًا مخيفًا، يُلقي بالرهبة في القلوب.

شبكت أنامل كفيها، أراحت مرفقيها فوق مسندي عرشها، ثم قالت بنبرة هادئة متأنية: «إذا انتهيتَ من هذيانك.. فلربما بإمكاننا أن نتحدث الآن».

أحجم عن قول المزيد، وكتم رغبة عارمة في الصياح بوجهها، سيتحملها إلى أن يفوز بـ «صدف»، ويجعل منها ساحرة تتفوق على براعة أمها، عندئذ سيكون له الكلمة العُليا. قالت مترفعة: «دواؤك عندي».

ثم استطردت متسائلة: «لكن أولًا أخبرني.. هل عثرتَ على «قوس»؟».

أومأ نفيًا بمرارة وقد وخزه الفشل، بحث عنه في كل مكان ولم يعثر له على أثر. أرسلت نظراتها بعيدًا صوب النافذة المفتوحة على السماء، كأنها تحيك أفكارها رفقة الشمس المتيقظة، ثم تعود بنظرها صوب «كسار» قائلة: «سترسل أحد الحراس ليأتي بـ«صدف».. دعوة خاصة لزيارة أمها».

- سأذهب أنا.

رفعت كفها تقول بحسم: «لن تذهب بنفسكَ.. سيعاملها الحارس برفق أمام أهل الواحة.. لن تُعامَل كأسيرة بل كضيفة».

- ثم؟

أراحت ظهرها تقول بغموض لم يفهمه: «ثم ما يلي ذلك سيكون أمورًا خاصة بين الأم وابنتها.. وسيكون لكَ ما وعدتُكَ».

لم تعجب الخطة «كسار»؛ أراد عنفًا، ودمًا، وغلظة يداوي بها الجرح النازف لكرامته.

- اعثر على «قوس».. هذه هي مهمتك.

رفع «كسار» قبضته أمام وجهه، يفصح بشراسة عن نيته: «سأقتله بيدي العارية.. سأعلق رأسه على مدخل الجبل».

- لن تمَس منه شعرة واحدة.

رنا إليها «كسار» دهشًا وساخطًا، عارضته بقوة ثم نهضت عن عرشها. سارت إلى أن وقفت أمامه تواجهه، تضيف بالقوة ذاتها: «ستلتزم بأوامري».

- لستُ بحاجة إلى أوامركِ.

أطرقت بسبابتها فوق جانب رأسه تقول بازدراء: «بل بحاجة إليها.. لأنك غبي متهور.. لا تُفكر بعقلك هذا بل عضلاتك.. أنتَ لا تعرف من يكون «قوس».. إذا مسسته بسوء ستفتح علينا باب جحيم لا ينغلق».

- من يكون هذا الـ «قوس»؟.. ليس أكثر من يتيم لا يهتم لأمره أحد.

- إذن أنتَ حقًّا غبي.. إن أصررتَ على التصرف دون تفكير سأرفع يدي عن مساعدتكَ.

داس «كسار» فوق مكابحه، يجز فوق أسنانه ويهز رأسه قائلًا: «سأنفذ أوامركِ».

ثم رفع سبابته محذرًا ومتوعدًا: «لكن إن لم تنجحي في منحي ما أريد.. سآخذه بنفسي ولن أحيد».

***

«أبو الأحناش» شهبندر القماش الذي كان يُفسَح له في المجالس، ويقف لأجله الكبار قبل الصغار، وتؤخذ منه المشورة والرأي السديد، مُنع تمامًا من حضور العزاء.

منذ أن أنهى زواج ابنته بـ «جمعان»، لم يُصافحه رجل، ولم ينظر إلى وجهه إنسان، كان لهذا النبذ وقع مدوٍّ على نفسه الأبية، التي لم تعتد إلا المكانة الرفيعة وسط القوم.

حاول أن يشرح لهم، أن زواجًا بلا توافق محكوم عليه بالفشل، وأن إنهاءه قبل تمامه، خير من إنهائه بعد أن يتسبب كلاهما للآخر بجرح في وجدانه.

بدا لهم ما قاله عاطفيًّا أكثر مما يليق برجل في سنه ومكانته، ما كان عليه أن يرجع في كلمته، فكلمة الرجل تعادل شرفه، وقد تخلى عنه بإرادته.

عاد إلى بيته مهمومًا، وانعزل في غرفته.

لم يتحدث إلى «سلَّام» فيما وقع، مخافة أن يضيف عبئًا جديدًا فوق كاهلها، وقد كانت تستشعر بالفعل ثِقل ما أقدم عليه لأجلها. طرقت الباب تدعوه لتناول الطعام، فتظاهر بالنوم، طبعت قبلة حانية فوق جبينه، ثم خرجت من الغرفة على رؤوس أصابعها كيلا توقظه.

لم تشعر برغبة في البقاء بالدار، وبخاصة وقد أوشكت الشمس أن ترحل مودعة، وستقضي ساعات الليل الطويلة حبيسة الجدران الأربعة.

جلست أسفل السقيفة القريبة من دارها، تُنقي مقدارًا كبيرًا من الغلة، متأسفة على حال «صدف»، وما جرى لـ «سراب».

يرافقها الشرود بعيدًا، فلا تنتبه للظل الذي التصق بالجدار المجاور للسقيفة، يقف ثابتًا كأن على رأسه عشًّا لطير نائم، يخشى أن يأتي بحركة تثير ريبتها.

يرسل لها بألف رسالة صامتة مع النسمات الهادئة، كل منها تحكي حال قلبه، والشوق الذي مزَّقه.

يكتب النسيم رسالته بحبرٍ صافٍ لا لون له، ثم يطوي الرسالة ويحملها عبر قطار المسافات الذي يبتعد، تحط الرسالة عندها، تسقط الأحرف الشفافة فوق كفها، وبين عينيها، وفي موضع قلبها؛ تسري في جسدها قشعريرة تتعجب من أين أتت، تضم ذراعيها كي تتقي رجفة خفية ألمَّت بها.

يسترسل الظل في حديث فؤاده، ولا يتوقف النسيم عن الكتابة، تميل الشمس الفضولية ميلة شديدة تُمكِّنها من رؤية صاحب الظل على حقيقته!

تعود «سلَّام» إلى دارها، ويمضي الظل في طريقه متهدل الكتفين. يتكسر الظل فوق الأبنية، ويزحف فوق الرمال الحامية، يتهادى ببطء من لا يملك

مكانًا للمبيت، أو كمن يترك داره وراءه، ويمضي إلى أخرى غريبة، لا يوجد فيها إلا الصمت والوحدة.

يدخل صاحب الظل داره، ويترك الظل على عتبته، يتألم الظل لانفصاله عن صاحبه، ليته يملك في داره شمسًا صغيرة.

لا يملك شمسًا لكنه يوقد النار في مشعل حجرته، فيدخل الظل ليلتصق بالجدار إلى جوار صاحبه، يفتح صندوقًا من الخشب، يخفيه أسفل وسادته.

يضع الظل السوار في الصندوق، بعد أن يلامسه، ويداعبه، كأنه يملك بين يديه صاحبة السوار بنفسها، امتلأ الظل شغفًا وحنينًا لمعانقة ظلها، تُرى ماذا يكون مذاق العناق لظلين فوق جدار دار صامتة؟

أغلق الظل الصندوق، وأعاده إلى موضعه، اقترب صاحب الظل من النافذة، ينوي فتحها، بينما الظل يصرخ بجوار أذنه ألا يفعل، فالشمس الخبيثة ستفضحه.

لا يصل تحذير الظل إلى سمعه، ولا يفهم الخطر الذي يحيق به، وتحيكه الشمس العابثة.

تُفتَح النافذة، فيتضاعف الظل إلى اثنين، كل منهما على جدار منفصل، وبينهما الرجل المختبئ في ظله يمسح وجهه الذي انكشف، يستند إلى إطار النافذة ويهمس لنفسه بلوعة: «تعقَّل يا «طوفان».. تعقَّل ولا تزل!».

***

جلس في ظلام غرفته الفسيحة، لا يزعجه الظلام السابح حوله، استقبله محتفيًا به، لطالما شعر أنه والظلام جسد واحد.

كأن يدًا خفية تُمسك بإبرة طويلة مدببة، وبخيط أسود رفيع، تشرع في خياطة جسده بجسد الظلام، فيمسي كلاهما كيانًا واحدًا، تمامًا كما هو الحال مع حصانه البري الأسود.

ليس من السهل ترويض حصان بري، وإثقال حريته بالسرج واللجام، لكنه فعل، لا شيء يستعصي عليه، الواحة كلها بين كفيه، لا يخرج عن المسار الذي رسمه سوى تلك المرأة المحبوسة في زنزانته.

لم يغلق باب غرفته كعادته، جلس في مقعد بجوار الفراش، ظهره إلى الباب، متخففًا من الدرع والسلاح، مسترخيًا على سجيته.

انفتح الباب من خلفه دون طرقات، وانغلق بعدها بثانية واحدة، لم يلتفت ليستطلع هوية القادم، والمقتحِم لعزلته، لا لأنه لم يهتم بأن يعرف، بل لأنه بالفعل يعرف.

وقف المقتحِم خلف المقعد، لا يبعد عنه سوى خطوات، وبينما الممسوس يستند براحتيه فوق جانبي المقعد، ترك مهمة بدء الحديث على عاتق المقتحم.

طال الصمت بينهما، كل منهما ينتظر الآخر ليبادر بسحب أطراف الحديث.

ولأن الممسوس لا يملك الصبر الطويل، قام وتوجه صوب المشعل المعلق جوار الفراش، وأضاءه بجذوة صغيرة من النار، كانت كافية لتلوك رأس الظلام في جوفها.

استدار الممسوس يواجه المقتحم، دون أن ينزع لثامه، أو رداءه الأسود المعقود حول رقبته. تحدث أخيرًا قائلًا: «أهلًا يا «قوس».. تأخرتَ في العثور على غرفتي».

- لم تتفاجأ برؤيتي!

- لماذا أتفاجأ بما كنتُ أنتظره؟

- إذن تعلم أن لقاءكَ هو الذي دفعني للعبور إلى الجارة السوداء.

بدا الممسوس مسترخيًا، غير مستعجل لانتهاء الحوار بينهما: «صحيح كيف حدث ذلك؟.. يقول «كسار» إنه عثر عليكَ في غرفته».

- «كسار» رجل أفَّاق.

لم يظهر على الممسوس بادرة احتجاج، استمع إلى «قوس» بحياد، كأن الأمر لا يعنيه. تأمل قوس المكان، والأثاث الذي يشغله، توقف عند رمح طويل معلق فوق الجدار، أخذه وقلبه بين يديه، مستدعيًا ذكرى بعيدة. قال «قوس»: «ما زلتَ تجيد صناعة الرماح».

كان لهذه الكلمات وقع مؤثر، سافر على إثرها الرجلان إلى الماضي قليلًا، حين كان تشكيل الرماح هوايتهما المشتركة!

- أما أنتَ فاستبدلت التوابل بالرماح.. هذا ما بلغني.

أعاد «قوس» الرمح إلى الجدار سريعًا، ثم التفت صوبه قائلًا بجمود: «لأنها تجارة غير مؤذية.. أما أنتَ فذهبتَ إلى الاتجاه المعاكس.. يستهويكَ الأذى والألم والدماء».

تشنجت رقبة الممسوس، فأمالها يُمنة ويسرة، يغالب غضبًا متصاعدًا، نارًا تسري في أوردته وشرايينه مسرى الدماء. يقول محتدًّا: «هل جئتَ لتخبرني بما أعرفه؟».

- بل جئتُ لأحذرك مما لا تعرفه.

بينما برزَت عروق «قوس»، ورجف جسده النحيل، قال مغلظًا: «كيف طاوعتكَ نفسكَ أن تفعل هذا بـ «عبد البر».. تعرف كم يعني لي هذا الرجل، وماذا فعل لأجلي.. كيف تؤذي رجلًا كنت أعده أبًا لي؟».

ثم استطرد بانفعال: «هذا الرجل كان يفتح لنا بيته بينما كنا صغارًا.. ويقتسم معنا طعامه.. هو الذي علمنا كيف نعد الرماح ونصطاد بها.. هل نسيتَ كل ذلك؟».

- استحَق ما حدث له.

قالها بقسوة، فانفعل «قوس» صائحًا: «لستَ أنتَ من يُقرر.. حتى إنكَ لم تترك جثته لأدفنها كما يليق بالميت أن يُكرم».

- ألقيتها لذئاب الجبل.. تمامًا كما يليق به.

فتحت كلماته صمام الأمان، فاندفع «قوس» نحوه وهو يُدرك تمام الإدراك أن جسده النحيل لا يوازي الممسوس قوة.

إلا أن الألم كان عاملًا مساعدًا، تدفقت على إثره قوة لا يُستهان بها، جعلته يقفز إلى حيث الممسوس ويسدد له لكمة قهقرته قليلًا إلى الخلف.

مسَّ الممسوس موضع اللكمة، وقد كان أكثر من قادر على تسديد أضعافها، بل والإطاحة بـ «قوس» أرضًا بهجمة واحدة.

وقف يتطلع إليه بعينين يتقافز منهما الشرر، وقبل أن ينطق بكلمة، بادره «قوس» بنبرة حاسمة: «فقدتُ احترامي لكَ منذ زمن طويل.. لم يعد يدهشني أي شيء تفعله».

ثم رفع سبابته مستطردًا بالقوة ذاتها: «أتيتُ لأحذركَ من أن يمس كلابك أمانتي بسوء».

- أمانتك؟

- زوجتي.. إن اقترب منها أحد لن ترى عندها «قوس» الذي تعرفه.

انفعل الممسوس مزمجرًا: «انتبه لكلامكَ.. ما شأن رجالي بزوجتكَ؟.. مَن تحسبني؟ رجلًا خسيسًا يستقوي على امرأة؟».

- ألم تختطف الغريبة التائهة أمام الجميع والله وحده يعلم ماذا فعلتَ بها؟ هذا ما بلغني.

اتسمت كلماته ببرود قاتل وهو يقول: «تلك مسألة أخرى».

- لا شأن لي بمسائلكَ.. ما عندي قلته.. والآن مُر أحد كلابك أن يُعيدني.

تطلع الرجلان كل منهما إلى الآخر بنظرات متباينة، لا تكشف إلا القليل مما يعتمل في صدريهما.

بينهما درب طويل من الكلام غير المنطوق، لا رغبة لأي منهما في السير فيه، على الأقل في اللحظة الراهنة.

نادى الممسوس الحارس الذي غفل عن مهمته، تعهده بعقوبة قاسية جزاء إهماله وتشتته، ثم أمر بإعادة «قوس» إلى الواحة آمنًا.

قبل أن يخرج «قوس» من الباب، التفتَ إليه يقول: «لن أحذركَ مرة أخرى.. أبعد كلابك عن أهل بيتي يا «رعد»!».

***

هجم الليل على الزنزانة، فجلست في الظلام خائفة، لم تأتِ الطباخة لتوقد المشعل، تأخرت أكثر من المرات السابقة، لم ترها منذ أن وبخها الممسوس ومنعها من الحديث معها.

عاقبها بالنبذ كما فعل مع «مطر»، كان هذا قاسيًا أكثر مما تخيلت.

انفتح باب الزنزانة أخيرًا، رأت الطباخة تحمل المشعل وتثبته فوق الجدار، ثم تقف أمامها صامتة، لم تحمل صينية طعام، ولم تكن «سراب» جائعة من الأساس، بينما الظمأ يلهب جوفها.

رنَت لها المرأة تود أن تقول شيئًا، إلا أن خوفها من الممسوس حبس الكلمات في صدرها. بادرتها «سراب» بالسؤال: «هل فعلتِ ما اتفقنا عليه؟».

أومأت المرأة برأسها، فابتهجت «سراب» قائلة: «هل حقًّا أتيتِ بجدي؟.. أريد أن أراه.. أين هو؟».

اضطربت المرأة، وأخذت تفكر في صحة قرارها، لم تخالف أوامر الممسوس، لم تخرجها من الحبس، ولم تتحدث إليها بكلمة واحدة.

لكنها نفذت لها رغبتها الوحيدة، أتت بالقاضي إلى الفتاة ولم تخبره إلا بأن الغريبة تطلب رؤيته، أفسحت الطباخة الطريق أمام القاضي الذي عبر الممر بثبات.

كشفت نيران المشاعل عن وجهه البيضاوي النحيل، وشعره الذي غطاه المشيب، وقفته مستقيمة، ومشيته وقور رصينة.

وقف أمام باب الزنزانة يتطلع إلى الطباخة متسائلًا، وجهت رأسها صوب الفتاة ففعل مثلها.

ابتهجت «سراب» وتراقص قلبها، كادت أن تقسم إنها سمعت صوت دقاته عاليًا، وهي ترنو إلى جدها بعين دامعة، وعاطفة انسلت منها لتغمر الزنزانة بالكامل.

- جدي.. أخيرًا التقينا.

لم يكن بعيدًا عما تخيلت، يشبه إلى حد بعيد صورته القديمة والوحيدة التي تحتفظ بها الجدة لليلة زفافهما، بدا وقتها رجلًا وسيمًا لا يخلو وجهه من أمارات الطيبة والسماحة، ولا يزال في نظرها كذلك.

لولا الشيب في رأسه، والتجاعيد في وجهه، والبقع البنية في رقبته وكفيه، لقالت إن الزمن توقف به، لم يتغير كثيرًا، لم يتغير قط. رأت فيه «سراب» القديمة، «سراب» التي تسكن القلادة لا «سراب» التي تحمل الوجه المعدل، ولشد ما أسعدها أن ترى فيه نفسها.

- جدي.

همست بها في شجن، تمد كفها تدعوه ليقترب، ويأخذها بين ذراعيه، يزيل عنها كل ما علق بها من ظلم، وقسوة، وألم.

اندفع القاضي صوبها، بعد أن تجمد في مكانه دقيقة كاملة، اندفع لا ليعانقها، بل ليطبق بكفيه فوق عنقها، يعتصره بين أنامله، يحرم رئتيها الهواء، يمنع عنها كل نفَس تحاول أن تأخذه!

تمسك بكفيه تحاول نزعهما، يطبق بأنامله فوق عنقها أكثر، وأكثر فأكثر، ويغرز فيه أظفاره. لا يكفيه حرمانها من الهواء، يصيح بشراسة دافعًا برأسها صوب الجدار، بضربات متتالية، يحاول أن يهشمه.

- قاتلة.. قاتلة!

دُنيازاد

لم أكُن قَطُّ صارمة

ولا مع ذاتي حازمة

أقول وأضحك مكركرة

وأقضي الليل في الثرثرة

أكره الجِد وأهله

وأحب اللعب ودربه

أتيتُ أختي رجوتها

أن تنثر هي ضوءها

على الحكاية وترتجل

وتدعني في لهوي أستمر

وكزتني بقوة قائلة

أفيقي فأنتِ العاشرة

إن لم تقصي ما وقع

مات الحديث وانقطع!

الليلة الثلاثون

هل تُفضِّل محو الذكرى الأليمة من رأسك كأنها لم تحدث، أم التعايش معها لكونها جزءًا أصيلًا من تجربتك الإنسانية؟

(1)

- لن أحذركَ مرة أخرى.. أبعد كلابك عن أهل بيتي يا «رعد»!

كان وقع الاسم عليه غريبًا، لم يناده به أحد منذ أن صار ممسوس الجبل، كان قد أوشك على نسيانه إلى أن نطق به «قوس».

رحل «قوس» مع أحد الحراس ليعود إلى «صدف» التي غاب عنها، ولم يعرف بعد أن الموت قد اختطف أباها، الرجل الذي أحبه كما لو كان أبًا له.

سكب «رعد» قطرات الماء فوق نيران المشعل، فانتشر الظلام ثانية، الظلام الذي يحبه ويألفه، يرنو بعين الخيال إلى الذكريات التي تبدو بعيدة، بعيدة جدًّا.

كان و«قوس» صديقين منذ نعومة أظفارهما، يتشاركان الطعام واللعب، ويغزلان الأحلام معًا.

طاب لـ «قوس» المقام في أغلب بيوت الواحة، بحُكم كونه يتيمًا لا أهل له، ومثلما كان يحب البقاء في دار «هلال»، أحب المبيت في دار «رعد».

لـ «قوس» صفات عذبة كثيرة، منها أنه شخص يوحي بالثقة، كان يُلملم نظراته عن خصوصيات أهل كل دار يدخلها، لا يسأل عن شؤونهم. يأكل ما يوضع أمامه دون تذمر، لا ينتقل بين غرف الدار إلا بإذن أهلها، والأهم أنه لا يفشي قط سرًّا لأحد.

كلما خرج من دار تناسى ما سمعه فيها، يدفنه في بئر سحيقة ويردم فوقه تراب النسيان، كان موضع ثقة منذ أن كان صبيًّا صغيرًا.

ربما لهذا السبب بالتحديد أحبه «رعد» وقرَّبه، لطالما عبرا إلى الجارة السوداء عن طريق النفق، قبل أن يسده بالحجارة، كان بالجبل الأسود كهف عظيم قبل أن تُحفر به ممرات وحجرات، اتخذا منه مخبأ سريًّا لكنزهما الصغير المشترك؛ بضع حجارة غريبة الشكل والتكوين، بذور لنباتات نادرة، مجسمات فخارية شكلاها بأيديهما الصغيرة، وكمية من التوابل التي يحبها كلاهما.

كانت الرحلة عبر النفق هي مغامرتهما المشتركة، والمكوث في الكهف لأيام واصطياد الحيوانات الصغيرة للأكل هي أجمل الذكريات التي تقاسماها.

أتى «قوس» إلى الجارة السوداء وهو يثق أن صديق طفولته مهما بلغ به من جموح وبطش، لن يُقدم على أذيته، وقد كان محقًّا في ظنونه. أمر «رعد» باستدعاء «كسار» إلى غرفته، وعلى ضوء المشعل القادم من الممر، سدد نظراته في وجهه متسائلًا بحزم: «ما الذي يدور بينك وبين «قوس»؟».

وقبل أن يجيب «كسار» رفع سبابته محذرًا بخشونة: «إياك والكذب».

تنحنح «كسار» يُجلي صوته، ثم يقص عليه الظلم الذي وقع، والضرر الذي ألحقه به والد عروسه المرتقبة. استمع إليه «رعد» بجمود، وما إن انتهى حتى بادره: «أي أن ابنة صاحب دكان التوابل صارت زوجة لرجل غيرك».

- لكنني لن أقبل بذلك.. هذا الـ «قوس» سوف...

- لن تقترب منه يا «كسار».. لن تمَس أيًّا منهما.

- وحقي؟.. وما فعله أبوها اللعين بي؟.. كان المفترض أن تكون زوجتي أنا.

- زوَّجها أبوها.. ووافقت بإرادتها.. لا يعنيني أي شيء آخر.. ستبتعد عن كليهما.

- لكن يا سيدي يجب أن...

- لن أكرر كلامي، والآن انصرف.

أشار برأسه إلى خارج غرفته؛ ابتلع «كسار» عبارته، ووراءها ألف كلمة ساخطة، أومأ برأسه دون الدخول في نقاش يعرف كيف سينتهي.

أخبرته ساحرة الجبل بالصداقة التي كانت تجمع الرجلين سابقًا، التي انقطعت أوصالها بعدما تحول «رعد» إلى الممسوس وسكن الجبل، التحف عباءته السوداء، وأخفى وجهه بلثامه، وسار ينثر الرعب في الواحة، ويزرع القهر في قلوب أهلها.

- أمرُك سيدي.

ما إن خرج «كسار» من الغرفة حتى تحولت قسماته من الهدوء الزائف إلى الشراسة، لا أحد قادر على إيقاف الحقد الزاحف في صدره، لا شيء قادر على منعه من رد الكيل لمن أضاعوا هيبته، ولا حتى الممسوس نفسه.

قطع حبل أفكاره صراخ الطباخة في ممر الزنازين، والاضطراب الذي حل على الحراس، قبل أن يفهم «كسار» ما يدور، اندفع «رعد» من خلفه منطلقًا صوب الزنزانة التي يأتي منها الصراخ.

ألصقت الطباخة ظهرها إلى الجدار تنادي الممسوس أن يساعد الفتاة التي يوشك القاضي على خنقها.

الصدمة التي أحست بها «سراب»، والألم الذي اجتاح رأسها، والهواء الذي جاهدت لأخذه، حجبوا عنها ما دار داخل الزنزانة في تلك اللحظات العصيبة.

لم تسمع كلمة، لم ترَ وجهًا، كل ما أدركته أن يد جدها نُزعت أخيرًا من فوق عنقها.

وأنها قبل أن تسقط أرضًا تلقفتها ذراع قوية، تمسكت بها «سراب» بشدة، وتشبثت بصدر صاحبها كدرع تحتمي به، إلى أن لفها الظلام من كل مكان.

***

قبل سنوات طوال، بعدما تزوج والد «أبو الأحناش» بأمه وأنجَب منها خمسة من الصبيان، ماتت أخت زوجته في حادثة أليمة شنعاء.

كان زوج الأخت قد اصطاد للتو ثورًا بريًّا ضخمًا، وسلسله في حظيرة الدار، انتظارًا لبيعه في سوق الواحة ما إن يلوح الصباح، لمن يدفع فيه خمس عملات ذهبية كاملة.

قضى نصف الليل يتخيل كيف سينفقها على زوجته ويسعد بها أطفاله؟

كانت زوجته خائفة من صوت الخوار الذي يقتحم عليها غرفتها ويروِّع الصغار، إذ كانت الحظيرة لا يفصلها عن الدار سوى باب واحد من الخشب المعطوب، يُفتح بركلة واحدة.

وقبل أن تنقضي الليلة بالكامل تحقق أسوأ مخاوفها؛ تحرر الثور من القيد، وحطم أغلاله، هجم على زوجها أولًا يحمله بقرن واحد، ويدفعه بعيدًا صوب الجدار، ثم هجم عليها يبقر بطنها، ويدهس طفليها الصغيرين.

ليلتها فُجعت الواحة بصوت الصراخ، وبمرأى الدماء والأشلاء التي تملأ الدار.

قتلوا الثور الهائج، وبكوا الجثث المتناثرة، ظنوا أن الأسرة كاملة قد هلكت، إلى أن سمعوا صوت الرضيع.

كان «طوفان» الرضيع نائمًا في مهده عندما عاث الثور فسادًا في الدار، لم يتمكن الثور من الوصول إلى المهد الأرضي، إذ كان مدسوسًا في مساحة صغيرة بين الفراش والجدار.

أخرجوا الرضيع حامدين الله على نجاته، وسلموه إلى خالته، التي ربته في دارها، وأعدته أخًا لأولادها الخمسة.

كبر «طوفان» يكن الكثير من الحب لأمه وأبيه وإخوته، وما إن بلغ الخامسة، قص عليه أحد العجائز ما حدث في الماضي، فعرف كما يعرف الجميع أن التي يحسبها أمه هي في الحقيقة خالته، ومن يحسبه أباه هو في الحقيقة زوج خالته.

يومها، جرى على خالته باكيًا وشاكيًا، فأجلسته في حجرها، وأخبرته أن روابط الدم ليست الوحيدة التي تجمع الناس ببعضهم، ثمة روابط أخرى قوية، كالصداقة، والقرابة، والعِشرة، والحب.

عندئذ جفت عبراته، وهدأت رجفته، لم يتغير شيء في الدار بعد تلك الليلة، ظل يدعو خالته بـ «أمي»، وزوجها بـ «أبي»، وأبناءهما بـ «إخوتي»، رغم أن الواحة بأسرها تعرف أنه ليس ابنًا لهذا البيت.

لكن شيئًا ما تغير في داخله، كأن الحقيقة التي عرفها لم يعد من سبيل لنُكرانها.

ظلت ماثلة أمام عينيه، تُبدل مكانها بين الظل والنور، أحيانًا ينساها، أو يتناساها، وفي أحايين أخرى يشعر بحضورها قويًّا أمامه، لم يخبر أحدًا بشعوره الذي ظل يتأرجح بين اليُتم والعِزوة.

كان أكثر من تعلق به هو «أبو الأحناش»، الذي كان أكبر إخوته، رغم فارق السن الكبير بينهما كانا ينسجمان معًا كأخوين من رحمٍ واحد.

لم يكن «أبو الأحناش» أخًا كبيرًا فحسب، صار له ولإخوته أبًا وظهيرًا صلبًا بعد وفاة أبيه وأمه.

تعاقبت السنوات سريعًا، وكبرت «سلَّام» الصغيرة، صارت فتاة بالغة، تشكو من علة في قلبها، ظن أن مشاعره نحوها ما هي إلا عاطفة شفقة، أو أُبوة، أو أُخوة، أو أي شيء إلا ما هي عليه في الحقيقة.

لم يستطع أن يخدع نفسه طويلًا، كانت صورتها تقتحم أفكاره حين يكون منغمسًا في العمل داخل معصرة الزيتون التي يملكها، يرن صوت ضحكاتها

المشرقة في أذنيه عندما يكون برفقة الرجال في ساحة المرح، بصوتها الهادئ وحديثها الشجي كانت تستطيع أن تُخرجه من عزلته، وتنتشله من كهف الوحدة عندما يعتكف بداخله.

كان في أشد لحظاته انطفاءً يراها تزدهر في مجلسه، تقاسمه صمتًا طويلًا دون ملل.

يراقب حبها لـ «أبو الأحناش»، وحنانها عليه، وحاجتها إليه، فيطيب له أن يتخيلها وليفة لزوج أو حبيب.

كانت نجمة لامعة في سماء الواحة، يشعر بها قريبة جدًّا حتى إنه إن مد يده سيلمسها، لكنها في الحقيقة بعيدة بُعد السحاب عن التراب.

أحيانًا يتمادى به الشوق فتزوره في المنام، تشاركه تفاصيل حلم عابث من غير قوانين تردعه، يستفيق على إثره شاعرًا بالفزع.

يراها كحجر كريم أصيل، وهو المدنس بالذنب، المخالِف لأعراف الواحة وما كان عليها آباؤهم، هو عمها في نظر الجميع، من صغيرهم إلى كبيرهم.

تمزَّق طويلًا بين ما يشعر به، وما يجب أن يشعر به، عدَّ شعوره سمًّا لا بُد أن يبحث له عن ترياق.

راقب نظراته، ولمساته، وفلتات لسانه، تحكم فيهم بخوف مَن يسير على الصراط، لا جنة عن يمينه، أسفله لا يوجد إلا نار مستعرة، تحصد بمنجلها الرؤوس وتذيب بلهيبها الأبدان.

أقدم على الزواج كحل أخير ينتشلها به من رأسه، أو هكذا كان يأمل، لم تمضِ عدة أشهر على زواجه الأول حتى تصاعد دخان يشير إلى قلبه الذي يحترق.

أصابته حمى ذات ليلة عاصفة، مرَّضته فيها زوجته، جلست تستمع إلى هذيانه حتى تثاءب ديك الصباح، وما إن فتح عينيه وتطلع إلى وجهها المحتقن حتى أدرك أن سره قد انكشف. كانت الصدمة تعلو ملامحها، والعبرات تنهمر من غير توقف، ترمقه بنظرات ازدراء لن ينساها أبدًا.

لم تتفوه بكلمة، وكذلك لم يفعل هو، غادرت الدار ولم تعُد ثانية.

لم تخبر أحدًا عن السر الذي عرفته، سوى «أم الرمال» التي التمسَت عندها دواء لجرحها، ثارت ثائرة «أم الرمال»، كتمت فمها بكفها كي تمنعها من الاسترسال، كيف يعشق «سلَّام»؟

عاملت «طوفان» كورم خبيث يجب أن يُنتزَع من جسد الواحة الطاهر، أو يعالَج بالكَي الذي تعرفه امرأة خبيرة مثلها، كوته بزيجة جديدة لم يكن مستعدًّا لها.

وكيلا ينكشف السر كالمرة الماضية، كان كلما شعر بالمرض وخاف أن يهذي في أثناء نومه، ذهب إلى دار أهله القديمة يقيم فيها لأيام. يتشاءم أهل الواحة من المبيت في الدار، لكن «طوفان» لم يستطع التفريط فيها، الذكرى الوحيدة المتبقية من أسرته، حتى وإن كانت ذكرى مؤلمة مغموسة في دمائهم.

كان الجميع يقول إن للدار رائحة معدنية تشبه رائحة الدماء، لم يفلح الزمن في محوها. أما «طوفان» فكان كلما دخلها وتجول في أركانها شعر برائحة مسك زكية تفوح من الجدران وتسكن الأثاث، احتفظ بحصيرة تشربت الكثير من دماء تلك الليلة، ولم يحاول غسلها.

يُبقيها مطوية ومستندة إلى جدار غرفة نوم والديه، التي اتخذ منها غرفة له، يزيح عنها التراب دون أن يمسها بالماء، مخافة أن يزيل آثارهما العالقة بها.

كل هذه التدابير لم تنقذه، زاره الفشل مرة أخرى، وهذه المرة دون أن ينكشف السر لزوجته الثانية.

شعرت به بعيدًا عنها كبُعد قاع الهاوية، صامت كأنه خُلق من غير فم، كتوم كأنه لم يتدرب يومًا على الكلام، فآثَرت الطلاق على البقاء مع زوج لا وجود ملموس له.

لم تسمح «أم الرمال» بتركه على سجيته، مخافة أن ينزلق وراء الشعور الخبيث الذي يحمله، زوَّجته بـ «مندورة»، وحذرته أن يفسد فرصته الثالثة.

شعر «طوفان» أنه يدور في حلقة مفرغة، لا سبيل لكسرها، ولا أمل في الخروج منها إلى براح العالم الذي يريد، العالم الذي يكون فيه مع المرأة التي يحب، دون أن يتعرض للنبذ أو التنكيل.

إن انكشف سره؛ سيخسر هيبته، وسمعته، وكرامته، والأهم، سيخسر عائلته التي يحبها.

لن يبقي عليه الرجال في الواحة ليلة واحدة، بعد أن انتهك أعرافهم، وطمع في ابنة أخيه الذي تربى معه في بيت أبيه.

ولهذه الأسباب مجتمعة ها هو يتوجه إلى دار «أم الرمال»، يقف على عتبتها قاطب الجبين، عابس النظرات، منكس الرأس، يغالب قهرًا كالجبل يجثم فوق صدره، ويعتذر عما بدر منه في حقها، مبديًا الندم والخزي على الشعور الذي يتغلغل في خلاياه، ولا سلطان له عليه.

تخبره «أم الرمال» ولا تزال تتطلع إليه بالنظرات نفسها الممتلئة بالاحتقار، كأنه أرض مدنسة: «سأحاول مع «مندورة» مرة أخرى.. إن لم ترغب في النظر إلى وجهك بعد ما عرفَته.. سأبحث لكَ عن العروس الرابعة».

ستزرع في هذه الأرض الخبيثة بذرة طيبة، لعلها تنجح هذه المرة وتطرح الثمر. هكذا فكرَت.

***

لم تنَم «سلَّام» إلا بضع ساعات متفرقة، كانت ليلة طويلة رافقها فيها الأرق، وما إن لاح الصباح وساح الناس في الأزقة والطرقات، حتى ارتدت وشاحها وخرجت من الدار، قبل حتى تناول الفطور. توجهت من فورها إلى دار «مندورة»، وقد عزمت على حل المشكلة.

طرقت الباب مرات ثلاث، وما إن أوشكت على المغادرة حتى فتحت «مندورة» الباب، تسد المدخل بجسدها الفارع، ولا تُبدي لها بادرة ترحيب.

ابتسمت لها «سلَّام»، وأبدت سعادة بلقائها، ما لبثت الابتسامة أن تبددت سريعًا عندما لم تجد لها انعكاسًا على وجه «مندورة». تتعجب «سلَّام» كيف تحولت مشاعرها اتجاهها؟ كانت قبل زواجها بـ «طوفان» تتقرب من «سلَّام»، وتسعى لتكون واحدة من رفيقاتها، وبعد زواجهما بوقت قصير كانت لا تزال تكن لها الحب، مع شيء من الشفقة بسبب مرضها، الشعور الذي أزعج «سلَّام» كثيرًا.

لكن قبل أشهر معدودات تبدل حال «مندورة»، باتت تتجاهل وجودها، وتنزعج إن جمع بينهما مكان واحد، تتحاشى النظر إليها، أو الحديث معها، ولم تقف «سلَّام» قط على السبب.

للنساء مستقبلات حساسة تستشعر الخطر، كأن ثمة حاسة سادسة تُنبِئهن أن شيئًا ما لا يسير كما ينبغي، وكأي امرأة مرهفة الشعور، شعرت «مندورة» بما يُحاك في صدر زوجها، راكمت الريبة والشك والحيرة حتى تكوَّن جبل شاهق، تسلقته خطوة بخطوة، مراقبة إيماءاته، وسكناته، ونظراته

حيث تحط، تستمع إلى كل الأحاديث التي لا يقولها، التي تتخفى وراء صمته الطويل.

شعرت أن داخل زوجها رجلًا آخر لا تعرف، فصممت أن تكشف عنه القناع، وتسير في الدرب إلى آخره.

لاحظت أن ثمة علاقة طردية بين زفاف «سلَّام» وحالته المزاجية، كلما اقترب موعد زفافها زاد اضطرابه وشروده وتوتره. يسأل عن «جمعان»، يتتبعه، يراقبه، يتصيد له الأخطاء، ولا يغفر له الزلل كأنه غريمه الذي ينافسه!

ما إن أدركت «مندورة» مشاعر زوجها حتى شعرت تجاهه بنفور رهيب غير محتمل، تشاجرت معه شجارًا عنيفًا كاد أن يبلغ أسماع الجيران، لولا أن «طوفان» قد أقام الدار في مساحة فارغة، كأنه يعزلها عن الحقيقة، من غير وعي منه.

لم تتحمل الاستمرار، وقد خاب ظنها في نزاهة زوجها، وخلقه، ورجولته.

أما الآن وقد وقفت «سلَّام» أمامها، اعتمل في صدرها الشعور نفسه، الذي قذفته في وجه زوجها.

- «مندورة» جئتُ أتحدث معكِ عن طلاقكِ.

عقدت ذراعيها أمام صدرها، ترفع حاجبًا قائلة: «ما شأنكِ بطلاقي؟».

- أستطيع أن أصلح بينكما إن أردتِ.

- وماذا تستطيع فتاة مثلك أن تفعل؟

- فتاة مثلي؟

- نعم، فتاة مثلك يا «سلَّام».. يحذرنا أبوكِ دائمًا ألا نثقل عليكِ بما يحزنكِ.. لأنكِ كما تعلمين تملكين قلبًا مريضًا لن يعيش طويلًا.

غالبت «سلَّام» ألمًا تصاعد من أحشائها، ونزل فوق قلبها كحمل ثقيل، قالت وقد تسارعت أنفاسها: «أنا بخير يا «مندورة».. آخذ مسحوق الدواء وأتبع تعليمات المطبب.. أنا فقط فكرتُ أن أصلح بينكما.. لأنني...».

- لأنكِ ماذا؟

- لأنني أحب لعمي «طوفان» أن يكون سعيدًا.

ثم استدركت بسرعة: «وأنتِ أيضًا يا «مندورة» أحب أن تكوني سعيدة».

أمالت «مندورة» برأسها، سددت للفتاة نظرات ملتهبة تقول الكثير، ثم جزت فوق أسنانها تنهي الحوار الثقيل: «تريديننا سعداء؟ إذن اتركينا وشأننا».

ثم أغلقت الباب في وجهها، وقفت «سلَّام» للحظات لا تقوى على الحراك، تغالب حرارة تتصاعد من صدرها إلى عينها، وما إن تحركت حتى شعرت بوخزة قوية، كأن يدًا خفية أفسحت ما بين الضلوع، ثم قبضت على قلبها تعتصره.

استندت «مندورة» إلى الباب تمسح عبراتها التي تنهمر في صمت، لا تملك قلبًا قاسيًا، إلا أن مرأى «سلام» أشعرها بالتقزز، والحسرة، والمهانة، كيف لزوجها أن يرى ابنة أخيه كما يرى الرجل امرأته؟ كادت الحقيقة أن تمزق عقلها.

لولا أن «أم الرمال» قد جعلتها تقسم على الكتمان، لجابت الواحة تفضح سر زوجها.

لم تكن وحدها من ركضت خلف سر «طوفان» لتكشفه، كانت «سلام» كذلك قد عزمت على المضي في هذا الطريق، لم تسمح لحديث «مندورة» أن يثبط عزيمتها، لطالما سمعت أسوأ منه.

ما زادتها كلمات «مندورة» إلا تصميمًا، قلبها ليس عاجزًا عن تحمل الحياة وأعبائها، قلبها أكثر صحة من تلك القلوب التي ترميها بما يؤذيها، لن تسمح لأحد أن يقنعها بغير ذلك.

وبينما هي في طريقها إلى معصرة «طوفان»، تمتمت لنفسها قائلة: «الأسرار لا تختبئ طويلًا يا عمي».

***

(2)

لساعات متتالية، تأرجحت بين نوم ويقظة؛ في النوم تتجاذبها الأحلام، وتُلقي بها فوق مشاهد عجيبة، لا تكتمل أبدًا، لا تعرف فيها الوجوه ولا الأسماء ولا الأزمنة.

وفي لحظات اليقظة البسيطة تتشوش الصور أمام عينيها، كأنها تسبح في الضباب، وفوق رأسها تنزل ألف مطرقة للألم.

تسقط «سراب» في نوم عميق، تستفيق منه لحظات، ولا تزال الرؤية عصية، والإدراك بعيد المنال. وبين نوم ويقظة، تشعر أنها مستلقية فوق فراش وثير، يستوعب جسدها براحة لم تشعر بها داخل الزنزانة.

ومن حولها خيالات تتحرك، بل في الحقيقة خيال واحد، يجوب المكان، من اليمين إلى اليسار، ثم يتوقف عندها، تجاهد لتفتح عينها كي ترى الوجه الذي يقترب، فتباغتها مطارق الألم، وتنهشها أنياب الإرهاق، يسحبها النوم على بساط سحري، يطوف بها فوق أرض الأحلام العجيبة.

في الحلم، تعرف أنها تحلم، ولشد ما أدهشها هذا الشعور، كانت لحظة إدراك نادرة، لم تختبرها سابقًا.

في الحلم الذي تعرف أنه حلم، رأت أهل الواحة يحملون المشاعل كتفًا بكتف، يتحركون ببطء صوبها، بينما هي مقيدة في شجرة مُعمِّرة، بحبال متينة لم تنجح في تمزيقها، تجاهد لإفلات نفسها. يقترب أهل الواحة بالمشاعل عازمين على حرقها؛ تصرخ، تستغيث، فتحمل الرياح صوتها، تجوب الواحة ركنًا ركنًا، وحارة حارة، فلا تعثر على من يغيثها.

تعود الرياح بخفي حنين، فيرتد إليها صوتها بأصداء متتالية، يلقي أهل الواحة مشاعلهم فوق القش الذي يطوق الشجرة، تزحف النيران في اتجاهها ومن فمها يخرج هسيس مخيف.

في اللحظة التي ظنت أن كل شيء قد انتهى، وأن الموت مصيرها، تساقط المطر.

ابتلع المطر النيران في جوفه دون خوف، أكلها كاملة.

استيقظت من الحلم وقد تساقطت عبرة من جانب عينها، زحفت فوق وجنتها ببطء، رجف جسدها بردًا في نقيض صارخ للحرارة التي كانت تشعر بها داخل الحلم. شعرت بخيال يقترب، وبالدفء يتسلل إلى جوارها، وغطاء من الصوف يحتك ببشرتها، وبينما يجتذبها النوم مرة أخرى، امتدت يد خشنة تمسح العبرة المنفلتة فوق وجنتها.

تشعر ببلل فوق لسانها الجاف، وبمذاق رطب للماء في جوفها، يسقط بين شفتيها قطرة تلو قطرة من قماشة مبللة، كأن سقف الجبل يُمطر لأجلها.

تنزلق في غياهب النوم فلا ترى الرجل الذي يذرع غرفتها مجيئًا وذهابًا في قلق، كأنه يمشي حافيًا فوق جمر مشتعل.

***

تزاحِم الشمس الغرفة، وتتسلل إلى فراشها، ترقد جوارها، ثم تمسح فوق عينيها بأنامل حانية خافتة الحرارة، فتستيقظ متمطعة.

تظل «سراب» مستلقية ثلاث دقائق كاملة، تحاول خلالها استيعاب المكان والزمان والحدث. تتوجع ما إن تمد يدها إلى مؤخرة رأسها، مستطلعة الضمادة التي تغطي جرحًا نازفًا، تحاول أن تنهض من الفراش فيُعجزها الألم، كل خلية في جسدها تصرخ وجعًا.

ينفتح الباب فتجفل، ثم تهدأ ما إن ترى الطباخة تحمل صينية الخوص وتدنو منها، ولا تزال تفوح منها رائحة الثوم والبصل. وجهها أكثر حدة من كل المرات السابقة، تلومها على ذنب لم تقترفه.

مر لقاؤها الأول مع جدها أسوأ مما تخيلت، فكرت أنه سيرفض العودة، أو يتنكر لها، لكن ما خطر لها أن يرغب في إيذائها.

لو أمكن لها أن ترى نفسها في مرآة، لرأت آثار أصابعه لا تزال مطبوعة فوق عنقها، تمامًا فوق آثار الحريق التي لا تنمحي. أصبح عنقها يحمل ذكريين أليمتين لا واحدة.

شعرت بالألم الذي يشق قلبها أكثر حدة مما اختبرت يومًا.

سألتها «سراب» بصوت مشروخ: «أكنتِ هنا في الليل؟».

قالت الطباخة دون استعجال: «لم أدخل إلا الآن.. طلب مني الممسوس أن أتفقَّدك».

- هل دخل أيٌّ من الحراس؟
- الحراس لا يدخلون هنا.

نظرت حولها كي تتأمل تفاصيل «هنا»، كانت الغرفة صغيرة لكن نظيفة، بخلاف الفراش الوثير رأت عن شمالها خزانة من الخوص، ومقعدين من الخشب مفرغين من الظهر مثل الأرابيسك، وطاولة صغيرة. وعن يسارها شرفة عريضة، تأكل ثلث مساحة الغرفة تقريبًا، معلق فوق بابها ستائر بيضاء شفافة، تسمح للضوء أن يغمر الغرفة.

أما الجدار فككل غرف مدينة الجبل، مكون من حجارة سوداء غير منتظمة، بعضها مدبب الأطراف، وأخرى ملساء.

كانت الطباخة قد انتهت للتو من وضع الصينية فوق ساقيها، وأحضرت الماء فوق طاولة صغيرة بجوار الفراش، انتبهت عندئذ أنها لم تعد تشعر بالعطش، وصارت شفتاها رطبتين، وخف التشقق كثيرًا عما كان عليه الحال بالأمس!

انتفضت «سراب» تقول بفزع: «هل مسَّ الماء فمي؟».

بوغتت الطباخة بالحدة في سؤالها، وقسمات وجهها التي تصرخ هلعًا. هزت كتفيها قائلة: «لا أعرف.. لم أكن هنا».

كانت تعرف أن تلك اللحظة قادمة، طال مكوثها في الواحة المسحورة أكثر مما خططت، لم تشعر من قبل بقلة حيلة كما تشعر الآن.

أصابها الدوار، وكاد رأسها أن يسقط إلى الوراء لولا إحكام قبضتي المرأة فوق كتفيها، أمرتها من غير لطف: «تناولي طعامك.. وإلا ستمرضين ثانية.. عرفتُ أن حرارتكِ كانت مرتفعة طوال الليل».

ممن عرفَت؟ أوشكت «سراب» أن تسأل، لولا الجوع الذي قرص معدتها. أكلت كل ما قُدِّم لها، رغبة في استعادة قدرتها وصفاء ذهنها، يجب أن تكون قوية بينما هي في عرين عدوها. سألت «سراب» بوهن، تغالب صداعًا فتاكًا: «تلك المرأة التي تحسبون أنني هي.. ما اسمها؟».

ألقت عليها الطباخة نظرة فاحصة، ثم سألتها بجمود: «أتجهلين اسمكِ؟».

جعلها الصداع عصبية على غير عادتها، أردفَت: «أعرف اسمي جيدًا.. إنه «سراب».. لكنني أسأل عن الاسم الذي تظنون أنني أحمله».

تنهدت المرأة تجاريها مستخدمة ضمير الغائب، قائلة كمن يحادث طفلًا صغيرًا: «كانت غريبة عن الواحة.. تائهة في الصحراء.. لم تخبرنا عن اسمها.. كنا ندعوها بـ «ذات البُرقع» لأنها كانت ترتدي طوال الوقت بُرقعًا تخفي به وجهها، الكثير من أهل الصحراء اعتادوا ذلك.. أهل الواحة يدعونها بـ «المرأة التي لا نحب ذِكرها»».

استوقفت «سراب» تلك المعلومة المهمة، التي تفسر لها الكثير، لم يشبِّهها أحد في الواحة بامرأة البئر سوى «مطر» و«أم الرمال». وعندما جابت الأسواق صانعة من نفسها طعمًا لرجال الممسوس لم يتعرف عليها أحد، ولطالما تساءلت عن السبب. تركت الملعقة تسقط في الطبق، وسألت متلهفة: «أي أن أحدًا منكم لم يرَ وجهها؟».

جارتها الطباخة ثانية، وتحدثت بضمير الغائب موضحة: «رآها قلة منا فحسب.. الممسوس والقاضي يعرفونها جيدًا.. هم من عثروا عليها أولًا.. كانت فاقدة الوعي بالقرب من البوابة الحجرية».

فكرت «سراب»، هذا تمامًا ما حدث معها عندما استفاقت في كوخ الأحدب، لكن هذه المرة «مطر» هو الذي عثر عليها. هل يعيد التاريخ نفسه؟

سألتها «سراب» بحماس وقد بدأت الصورة تتضح: «وأنتِ هل رأيتِها؟».

هزت الطباخة رأسها نفيًا، ثم عادت ترمي الحقيقة في منتصف جبهتها، مستخدمة ضمير المخاطَب: «كلا لم أرَ وجهكِ.. لكنني سمعتكِ مرة بينما تتحدثين إلى الناس في السوق، كنتُ حاضرة منذ بداية دخولك الواحة، وأعرف الصوت الذي سمعته جيدًا.. لم تحبي الاختلاط بنا.. ولا الحديث معنا.. كنتِ منعزلة عنا إلى أن فعلتِ فعلتكِ».

- ماذا فعلتُ؟

- يكفي استهزاء بي.. تعرفين جيدًا.

اعتدلت «سراب» في جلستها، لوحت بيديها بانفعال قائلة: «أليس في وجوهكم أعين؟.. المرأة التي تكرهونها التي لا تحبون ذِكرها بسبب النار التي أشعَلَتها في الواحة.. ترقد عظامها الآن داخل البئر المهجورة.. كيف أكون حية وميتة في الوقت نفسه؟.. كيف أكون هنا وهناك في اللحظة ذاتها؟».

ظنت أنها أفحمت الطباخة، إلى أن بددت منطقها قائلة: «هذا ما يظنه أهل الواحة.. لكن القاضي والممسوس يعرفان جيدًا أن التي سقطت في البئر لم تكن أنتِ.. بل كانت ضحيتك التي قتلتِها».

- ولماذا خدع الممسوس والقاضي أهل الواحة وأوهماهم أنني من سقطتُ في البئر؟

- لأن أهل الواحة كانوا على شفا الجنون.. يبحثون عنكِ في كل مكان وما كان أحد أو شيء قادرًا على إيقافهم.. عندما عثر أهل الواحة على المرأة الميتة في البئر رأوا القلادة فظنوا أنها أنتِ.. فاستراحوا وهمدت ثورتهم.

حركت «سراب» رأسها تسأل حائرة: «إذن مَن التي سقطت في البئر؟».

- تعرفين جيدًا هوية المرأة التي قتلتِها.. يكفي استخفاف بعقلي.. والآن توقفي عن الحديث واستريحي إلى أن يبت الممسوس في أمركِ.

رفضت الطباخة إجابة أي من أسئلتها التالية، تركتها تسقط في بئر حيرة ليس لها قاع.

- تنظرين إليَّ.. تتحدثين معي.. تخالفين بذلك أوامر سيدكِ.

قالتها «سراب» بنبرة مهينة متعمدة، ردت الطباخة ببرود قبل أن تستعيد الصينية والأطباق الفارغة: «لم أخالف أوامره».

لم تستفهم منها «سراب» عن معنى عبارتها، قالت لها بعجالة، وبنبرة متسلطة: «أين جدي الآن؟».

- يا لكِ من عنيدة، ليس جدكِ ألم يكفِكِ ما حدث بالأمس؟

لم تعد «سراب» ترى جدوى التبرير، لن تصدق المرأة إلا ما يخبرها به الممسوس، لن يصدقها أحد في هذه الواحة المنغلقة على نفسها.

لكنها لن تُنهي الحكاية عند هذه الفقرة، ستكتشف ما حدث لجدها وجعله يفعل بها ما فعل، لن تتوقف عن التنقيب عن الحقيقة، لن تستسلم أبدًا.

***

في «قاعة القرار»، كان ثمة حارسان كلٌّ في جهة، يقفان باعتداد، وعلى أهبة الاستعداد، وفي المنتصف وقف القاضي ثائرًا أمام الطاولة المستديرة،

يتكئ عليها بكفيه، ويطرق سطحها بقوة من آن لآخر، ساعيًا إلى التنفيس عن المشاعر المحتقنة بداخله.

انفتح الباب بغتة ودخل «رعد» بعجالة، ترك القاضي الطاولة، اعتدل في وقفته، وتطلع إليه بنظرات غاضبة.

صاح به من فوره: «لماذا خلَّصتها من بين يدي؟».

وقف «رعد» باستقامة يُطلق زفرة محتدمة، تشي بالصراع الذي يدور بداخله. بينما استطرد القاضي، اقترب منه رويدًا: «ألم ننتظر هذا اليوم معًا؟.. ألم نقسم على أن ننتقم إن جرُأَت على دخول الواحة ثانية؟».

أومأ «رعد» برأسه، وقال بقوة، وبصوت رخيم: «بلى، هذا صحيح».

حرك القاضي ذراعه بعصبية، فاصطدم بوعاء فخاري كان موضوعًا في منتصف الطاولة، ممتلئًا بالحجارة الصغيرة متباينة الألوان، فتناثرت الحجارة، وتشظَّى الوعاء.

- إذن لماذا خلَّصتها؟.. أصلِح خطأك وكلِّف الحراس بقتلها.

نزع «رعد» درعه، في حركة سريعة عصبية، إذ شعر بمعدنه ثقيلًا أكثر مما ينبغي، يطبق على صدره حتى ليكاد يختنق، تركه فوق الطاولة، ألقى نظرة خاطفة على الحارسين، ثم دنا من القاضي قائلًا: «ليس قبل أن تعترف بذنبها».

- لماذا تريدها أن تعترف؟

سأله القاضي بحيرة ممزوجة بالسخط، غير مقتنع بجدوى الاعتراف المُنتظَر. ترك «رعد» سؤاله معلقًا، رفع كتفيه واستطرد بجمود مكررًا: «عليها أن تعترف أولًا».

دنا منه القاضي، يختزل المسافة بينهما في خطوة واحدة، قال منفعلًا ومحتدًّا: «أرى أنكَ تماطل يا ممسوس الجبل.. هل نسيتَ ما فعلته بنا؟».

احتشد الغضب في عينيه، وغرقت فيه كلماته. قال بصرامة: «لم أنسَ.. ولن أنسى».

- إذن ماذا تنتظر؟.. لماذا أخفيتها في غرفة لا أعرف مكانها؟.. لماذا لا تأخذ خنجرك وتذهب لتنحر عنقها؟

- سأفعل بعد أن أحصل على جواب سؤالي لها.

- أي سؤال؟

أمال «رعد» رأسه قائلًا بقوة أحدثت أثرها: «يجب أن يحترم كلانا رغبة الآخر أيها القاضي.. ستنال عقابها هذا وعد.. لكن عليكَ أن تترك لي الوقت الكافي لذلك».

لم يبدُ على القاضي أنه اقتنع، كان مغموسًا بالكامل في رغبة واحدة فحسب، ولم يكن ليقتنع بالتأجيل أو المراوغة.

أطال النظر إلى عيني «رعد» ثم زفر معلنًا: «حسنًا، أعطيكَ كلمتي».

تهدلت كتفاه، واضطرب تنفسه، أمسك به «رعد» وساعده على الخروج من قاعة القرار، وعلى بعد ثلاثة ممرات كانت غرفة القاضي، ما كان يحب «رعد» أن يرى الحراس القاضي في لحظات هشاشته. قاده صوب فراشه وأراحه فوقه، عدل من وضع وسادته.

- استرح الآن.. لم تنَم منذ الأمس.

في غياب أعين الحراس الراصدة، خلع القاضي قوته، وأسبل على نفسه رداء «أبو العيون» الرجل البسيط.

ترك عبراته تنهمر فوق وجنتيه دون أن يجاهد لإخفائها، تجعد جبينه ألمًا، كأن ثمة من يقف أمامه ويغرز في قلبه خنجرًا مُسنن الحافة، مزق قلبه وفتته.

جلس «رعد» إلى جواره، يمسك بيده المرتعشة، ويمسح فوق جبهته المتعبة، يقول مؤكدًا: «لن يكون إلا ما تريد».

قال القاضي بنبرة مرتجفة كأنها راية مرفوعة وسط عاصفة: «مَن قتَل يُقتَل.. القصاص هو ما أريده».

ربت «رعد» فوق كفه ومسح فوق البقع البنية المنتشرة بها، ثم استطرد: «سيحدث.. لكن اترك لي تحديد الوقت المناسب».

أومأ القاضي متعبًا، تاركًا رأسه يستريح فوق الوسادة، يغط في نوم حُرم منه ليلة كاملة.

أثارت رؤية الفتاة زوابع وأعاصير كادت أن تهلكه، لم يشعر بنفسه إلا وهو يعتصر عنقها، يخنق الأنفاس التي تُحييها تمامًا كما خنقته بنفْسها.

سلبَته الهواء، والسَّكينة، والسعادة، والرضا، والبيت الذي أحبه. لم تكتفِ بذلك، فقتلت بيديها الآثمتين حفيدته الوحيدة، ألقت بها في بئر مهجورة،

وتركتها هناك تصارع الموت وحيدة، تتقلب بين الظلام والبرد، يبحث عنها في كل مكان، دون أن يدري أنها ترقد في قاع البئر الجافة بالقرب من المدافن.

عندما عثر عليها أخيرًا أقسَم بينه وبين نفسه ألا يدفنها ولا يأخذ عزاءها إلا بعد أن يحقق لها القصاص من قاتلتها.

وما إن رأى القاتلة التي يُبقيها «رعد» في زنزانته، حتى أراد الانتقام لحفيدته «سراب» الحبيبة!

- أعطِني القلادة التي أخذتها من تلك المجرمة.

يُخرج «رعد» القلادة الفضية من جيبه، يفتحها ويتأمل الصورة لبرهة، ثم يعطيها للشيخ الذي خارت قوته، يرنو القاضي إلى صورة حفيدته «سراب» بعينين رؤوفتين، يمسح فوقها بإبهامه، يقبلها، ثم يضمها بقوة إلى صدره!

***

خرجت «سراب» من الفراش، وقد استلزم ذلك جهدًا كبيرًا، تتجول مطارق الألم فوق جسدها دون رادع يمنعها، أو قوة تخففها، تفكر أن هؤلاء البدائيين لا يعرفون كيف يصنعون دواءً مُسكنًا للألم.

انفتح الباب بغتة، كأن القادم استخدم قدمه لفتحه بدلًا من يده، أمسكت بالوشاح ولفته فوق رأسها كيفما اتفق.

قابلَت نظرات «رعد» المزعجة بأخرى محتدة، ولشد ما أغاظها عدم احترامه لخصوصيتها، فيقتحم الغرفة التي تقيم فيها متى شاء وكيفما شاء. تقول بسخط: «عندما ندخل غرف الغرباء نطرق الباب أولًا.. إن سمحوا دخلنا.. وإن لم يسمحوا مضينا في سبيلنا».

لم تتحرك فيه إلا عينان تتجولان فوقها، كأنهما تملكان الإذن سابقًا. قال وما زالت نظراته مزعجة: «هل سأتعلم منكِ أنتِ آداب الاستئذان؟».

- كانت تلك مهمة أمك، لكن يبدو أنها لم تؤدِّها كما ينبغي.

لم تدرك تأثير ما قالت إلا عندما أخرج هراوته، وبحركة مفاجئة ضرب كل ما فوق الطاولة، فتناثرت الأغراض في الغرفة وأسفل قدمها.

رغم حدة المفاجأة، لم تند عنها حركة واحدة، لم تظهِر له الخوف أو الوجل، وقفت بثبات تنظر إليه ندًّا بند، لا يستقوي القوي إلا على من يظن فيهم ضعفًا، ويجب ألا تبدو ضعيفة في حضرته.

اقترب خطوة واحدة ثم توقف، كأن ثمة حاجزًا يمنعه من اختزال مسافة أكبر، خطًّا أحمر وهميًّا مرسومًا بريشة الخيال، يجب على كلٍّ منهما عدم تخطيه. قال هادرًا، رافعًا سبابته محذرًا: «إياكِ وذِكر أمي».

كانت تملك ألف جواب يزعجه، إلا أنها شعرت بقدميها ترتجفان بهشاشة، لم تكن في كامل قوتها لتُحاربه، صمتت وراحت تتأمله. لا يزال يخفي كل شيء إلا عينيه وحاجبيه، مِن ردة فعله العنيفة أدركت أن أمه تعني له الكثير، غالبًا ما كانت تظن أن مثل هؤلاء المجرمين منزوعي الضمير يعانون طفولة مفككة، يعيشون في كنف أمٍّ لم تؤدِّ دورها كما ينبغي، يبدو أن الرجل الواقف أمامها هو الشذوذ الذي لا يسير خلف القاعدة. هكذا راحت تفكر بينما الوقت يمضي دون أن تنتبه.

لم تكن وحدها من تحاول القراءة، والفهم، والاستكشاف، راح هو الآخر يتأمل ردود أفعالها، وكمن ينقب عن معدن ثمين شرع يفتش عن جواب السؤال الوحيد الذي انتظر إجابته: «لماذا؟»

ذهبت كل دقائق التأمل هباءً، إذ لم يعثر في وجهها وبين نظراتها على جواب سؤاله.

نظرت إليه كغريبة لا تعرفه، ولشد ما أغاظه هذا وأزعجه. قالت بسخط ولا تزال غاضبة: «جعلتهم يسقونني الماء المسحور، أليس كذلك؟».

أمال برأسه ينظر إليها دون جواب، عضت شفتها ثم لوحت بيدها قائلة: «لن يمنعني هذا من الرحيل حتى لو أُصبتُ بألف لعنة ولعنة.. لا شيء يقف في طريقي.. عليكَ أن تعرف ذلك».

- أعرف جيدًا أنكِ تديرين ظهركِ بسهولة.. وتستمتعين بتدمير كل شيء قبل الرحيل.. لكن هذا لن يحدث هذه المرة.

- وهل تستمتع أنتَ بما تفعله بأهل الواحة؟

لم يتوقع سؤالها، قسماتها هادئة، لكن متألمة، فكر أن يجيبها بالصمت، ثم غير قراره في اللحظة الأخيرة: «كثيرًا».

- ألا يوخزك ضميركَ أبدًا؟

- أنا محصن ضد الشعور بالندم.

- هذا لأنه كي تمتلك ضميرًا عليكَ أولًا أن تكون إنسانًا.

ألقت عليه نظرة تُشبه البصقة إلى حد كبير، ممتلئة بالنفور والازدراء والغضب. تُمسك بعمود الفراش، تتكئ عليه كي تخفي توجعها، وهشاشة بدنها. تقول بعصبية تسللت إلى كل خلية بجسدها: «وهل جئتَ بي هنا كي تستمر في استمتاعك؟.. لن أكون أبدًا أداة لتسليتك يا هذا».

أطلق ضحكة قصيرة هازئة، أثارت استياءها. نما إلى أسماعهما صوت بوق مرتفع، كانت قد سمعته مرة أو مرتين منذ أن جاء بها إلى الجبل، شعرت أنه نداء لإعلام سكان الجبل بأمر ما، أو ربما لاستدعائهم.

التفت «رعد» صوب الباب الذي تركه مواربًا، فتحه أمامها للمرة الأولى منذ أن حبسها، ثم قال بغموضٍ مرحبًا: «تعالي وانظري كيف أتسلى».

رحل وترك الباب دون أن يغلقه، ظننته يخادعها، فلما خرجت من الغرفة لم تجد حراسًا في الممر.

عدلت وشاحها ثم سارت رويدًا تستند إلى الحجارة البارزة من الجدار. كانت المدينة المحفورة في الجبل مكونة من ممرات كشبكة العنكبوت، من لا يحفظ خريطتها يتوه بسهولة. هل هذه نيته، أن يجعلها تتوه في الممرات، وتموت وحيدة مستغيثة بمُنقذ لن يتمكن من سماعها؟

رأت حركة في الممر التالي فتبعت الحراس، لم ترتفع في وجهها عين واحدة، حادت عنها الأعين كلها، ولما ألقت على أحدهم سؤالًا: «إلى أين تتوجهون؟».

لم يجبها؛ ألهذا الحد يخشون الممسوس ويمتثلون لأوامره؟ أثار هذا استياءها، لن تحصل من أي منهم على المساعدة إذن، عندما تفكر في خطة للهرب لن تضُم أيًّا من الحراس كعامل مساعد.

سارت مع تيار البشر الذي يتدفق بعدد أكبر مما تخيلت، ولشد ما فاجأها أن كان من بينهم نساء شابات وعجائز، ماذا يفعلن في هذا المكان البشع؟ هكذا فكرت متسائلة.

لم تحسب أن ثمة غرفة بالجبل تتحمل كل هذه الأعداد المتدفقة، أدركت أنها مخطئة عندما أفضَت الممرات إلى ساحة كبيرة عند مدخل الجبل، عندئذ أدركت أن هذه المدينة لم تُحفر بالكامل بفعل الإنسان، جزء كبير منها صُنع بأيادي الطبيعة، إذ كان قبل ذلك كهفًا عميقًا منذ بدء الخليقة.

المسافة العالية بين السقف والأرض، واتساع المساحة هو ما جعلها تدرك ذلك.

تشكل الناس في دائرة حول الأرض وفوق الصخور المتناثرة، تركوا منتصفها فارغًا منهم، رأت «سراب» في المنتصف أداة خشبية تُشبه مقصلة الإعدام، كتلك التي تعود إلى العصور الوسطى، رأتها ذات مرة في كتاب بالمكتبة حيث كانت تعمل.

رجف قلبها ما إن رأت اثنين من الحراس يسحلون رجلًا باكيًا، عاري الجذع، وقد انتشرت الكدمات في مناطق متفرقة من ظهره وذراعيه، ثبتاه في الأداة الخشبية، وقيدا ذراعيه ثم اتخذا خطوتين إلى الوراء.

ومن خلفهما ظهر الممسوس حاملًا سوطًا مخيفًا أسود، يهتف الجميع باسمه في حماس، وقبل أن تُدرك ما يحدث، نزل فوق ظهر الرجل بالسوط مباغتًا. رفعت كفها تكتم شهقة عالية، نظرت حولها تأمل أن يخرج منهم رجل رشيد يوقفه عما يفعله، ولشد ما أثار نفورها أن جميع من بالساحة وقف مهللًا!

أفزعها صوت اللسعة التالية للسوط فوق ظهر الرجل الذي أخذ يصرخ متألمًا، عشرون ضربة ثم توقفت عن العد، بدا على الممسوس عزيمة وإصرار كأنه بالفعل يستمتع بما يفعله بالرجل الأعزل.

امتلأت عيناها بالعبرات، تثور معدتها قرفًا، مرأى تلك القسوة تجاه إنسان آخر جعلها تشعر أن إنسانيتها تنزف ببطء، استندت بكفها إلى صخرة مخافة السقوط.

نظرت حولها فإذ بوجوه جامدة، وأخرى متشفية، شعرت أنها وسط مجموعة من المخلوقات نزعوا عنهم أردية الإنسانية.

الحرائق التي تعرضت لها، واللعنة الخبيثة، ومرض جدتها، ودخولها الواحة، وفشلها في تحقيق أي من أهدافها، وحتى محاولة جدها لأن يؤذيها بالأمس.. كل هذا آلمها وأحزنها وأشقاها لكنه لم يُحدث بداخلها شرخًا لا يلتئم.

أما الآن وهي تشهد القسوة، والاستمتاع بالقسوة، شعرت أنها شُرخَت من الداخل، ولن تغفر أبدًا للرجل الذي تعمَّد إحداث هذا الشرخ بداخلها.

انتهت فقرة التعذيب، ومضى كل منهم في سبيله، بينما ترصد هي موضع الممسوس وتتوجه عنده، كان رصدًا من اتجاهين، إذ شعرت طوال الوقت أن عينيه تتجولان في الحشد، يراها، ويحدد مكانها، وكلما نزل فوق ظهر الرجل بالسوط، حرص على أن تلتقي عيناه عينيها ليرى عليها تأثير ما يفعله.

انتظرها كي تقترب، منحها كل ما تحتاج إليه من وقت كي تتخطى الحشود التي تبتعد، تسير عكس التيار إلى أن بلغت مكانه.

بينما كانت ترتجف سددت نظراتها إلى عينيه، وقالت: «أنتَ رجل ظالم، مجرم، يستحق الذبح.. أقول لكَ هذا في حال لم يخبرك أحد بذلك».

كلامها لن يُحدث فرقًا يُذكَر، تعرف، إلا أنه يُشعرها أنها لا تزال إنسانة.

للحظة لم يبدُ أنه سمعها، بغتة أمسك بذراعها يسحبها خارج الجبل، لم يفلتها إلا عندما ظللت السماء رأسيهما، الرائحة خارج الجبل لا تشبه الرائحة بداخله، كانت منعشة ومسكرة، لولا الموقف العصيب الذي تتعرض له لاستمتعت بنسمات الهواء التي تداعب وجنتيها.

- إياكِ أن تجرئي على معارضتي أمام رجالي ثانية.

صاحت بغضب وبصوت مرتفع دون أن تأبه لمن يسمعه: «إياك أن تجرؤ على جذب ذراعي ثانية».

ثم استطردت وهي ترفع سبابتها محذرة بقسوة: «إن وجدتُ يدكَ في غير موضعها مرة أخرى سأقطعها لكَ.. أقسم إنني قادرة على ذلك».

- ما كان عليكِ أن تستفزيني إذن.
- أنتَ الذي بدأت الاستفزاز باستعراضك المقرف.
- حسب ما رأيتُ.. الجميع بدا مبتهجًا.
- على أحدهم أن يقف بوجهك.. ولأن لا أحد من أتباعك يجرؤ على عصيانكَ هذا لا يعني أنكَ على حق.. بل ببساطة يعني هذا أنهم يخشونكَ.. لأنهم جبناء.. مثلك.. هم يختبئون في قوتك.. وتختبئ أنتَ في ضعفهم.
- تعترفين أنني قوي إذن؟.. هذا جيد.. عليكِ أن تخشيني.. لأنني أكون مخيفًا حين أغضب.
- كم مرة عليَّ أن أقول ذلك؟.. أنتَ لا تخيفني.. الشعور الوحيد الذي تثيره بداخلي هو التقزز.

شعرت بكل خلية تستصرخها مستغيثة، لكنها تحاملت كي لا تظهِر الضعف الذي ألمَّ بها، كانت مستعدة لخوض هذا الحوار حامي الوطيس إلى آخره، إلا أن ما قاله تاليًا زلزل ثباتها، وفجر ينابيع الحيرة في صدرها.

قال بصوت هادئ حازم لا يقبل التأويل: «تدَّعين أنكِ لستِ مَن أظن.. لكن هذا بالضبط ما كانت ستقوله هي».

ثم استطرد: «أستطيع أن أعطيكِ ألف دليل على كذب قصتك.. كلماتك هذه واحدة منها».

كلما حاولت أن تؤكد هويتها، بدد جهودها بأدلته.

رفع جسدها راية الاستسلام وخارت قوتها، سمعته يقول بنبرات مفخخة بالشعور قبل أن يظلم المشهد وينطفئ وعيها: «لا أحد قادر على مواجهتي سوى امرأة واحدة».

***

غادرت قارئة الصخور دار «صدف» قبل قليل، بعد أن جاءتها من غير موعد تُقدم لها خدماتها.

امتنت «صدف» لحضورها، قلَّبت الصخرة السوداء الصغيرة فوق لسانها ثم ألقت بها في طست الرمل.

أخذت القارئة وقتها في تتبع الرمال الملتصقة بالصخرة. ثم قالت مؤكدة: «ثمة عاصفة قادمة».

جفلت «صدف» وسألت بتوتر: «وماذا عليَّ أن أفعل؟».

رنَت القارئة إلى الصخرة من جديد، استغرقت وقتًا أقصر هذه المرة قبل أن تلتفت إليها قائلة: «الغصن الذي لا ينحني أمام الريح ينكسر».

ظلت كلماتها تلف داخل دوامات لا تنتهي، غرقت «صدف» في التفكير بعد انصرافها، إلى أن سمعت طرقات متتالية على الباب.

- ساحرة الجبل تدعوكِ لزيارتها.

وقف الحارس على عتبة دارها، يقدم لها الدعوة التي كُلِّف بتوصيلها. ارتبكت «صدف» وبان اضطرابها، تأخر «قوس» كثيرًا عن الموعد الذي حدده، أخبرها قبل أن يرحل أنه لن يغيب إلا ليلة واحدة.

إلى الآن لم يعُد، تُرى هل ألحق به الممسوس الأذى؟ هل اختفى إلى الأبد، ألن تراه ثانية؟

مضت الليلة منتحبة تتطلع بلوعة صوب النافذة، تضم قدميها إلى صدرها، تهزهما في عصبية، تنام متخذة وضعية الجنين، وحيدة في دار لا تسمع فيها إلا صوت أنفاسها.

كانت كلمات الحارس محددة: «زيارة» و«دعوة»، لكنها استطاعت بسهولة أن تسمع نبرة الاستدعاء الذي لا يقبل الجدل.

ولم تكن بفتاة قادرة على المجادلة. قدمت اعتراضًا واهنًا، حسبت أنه سيكون المنقذ الوحيد لها: «لن أركب حصانًا خلف رجل غريب.. أنا امرأة متزوجة».

أشار الحارس برأسه صوب امرأة ترافقه، ترتدي ما يشبه لباس الحراس وتحمل في حزامها أسلحتهم، تُمسك بلجام حصان آخر وتدعوها لتركبه. قال الحارس: «هذه زوجتي.. لا تقلقي فهي فارسة ماهرة».

حرصت أمها على أن تقدم لها دعوة مميزة. وكان لهذا الامتياز صدى كبير عند أهل الواحة الذين تجمعوا، حول الفرسَين يتهامسون بشأن ما يحدث، يتساءلون عن غياب «كسار» منذ ليلة الزفاف، ولا يزالون يحسبونه زوج «صدف».

كاد قلبها أن يُنتزع من موضعه عندما انطلقت الفارسة صوب الهاوية بقوة تشق الريح أمامها، حط الحصان بهما سالمين فوق أرض الجارة السوداء، وانطلقت فارسته بها صوب الجبل المهيب الذي أثار رهبتها ودهشتها وقذف بالخوف في قلبها.

لا تعلم أن «قوس» لم يخلف الميعاد بإرادته، كان عازمًا على العودة في الموعد المتفق عليه، لكن «كسار» قطع طريق الحارس الذي كُلِّف بإعادته إلى الواحة، وأخبره أن الممسوس بدل رأيه وكلَّف «كسار» نفسه بالمهمة.

صدقه الحارس وترك له «قوس» وعاد إلى الجبل، غافله «كسار» بضربة فوق رأسه أفقدته الوعي.

وتحت ستار الليل أخذه إلى غرفة منعزلة في أحد الممرات غير المطروقة، التي لا يعرف مخبأها إلا قلة، و«كسار» واحد من تلك القلة.

يضرب بعرض الحائط أوامر الممسوس، ويترك نفسه فريسة لحقده المتقد.

وقف «كسار» فوق ربوة عالية يراقب «صدف» القادمة من بعيد، متلذذًا بشعور الظفر.

هذه المرة لن يسمح لأحد أن يخدعه.

***

بينما كان «رعد» جالسًا بهدوء ظاهري فوق المقعد الخشبي بقاعة القرار، مستندًا إلى طاولتها المستديرة، كانت الأفكار محتدمة في رأسه.

طرقت الطباخة الباب، فأشار برأسه إلى الحارسين للانصراف، وأذن لها آمرًا: «ادخلي يا «فضة»».

أقبلت الطباخة الخمسينية، وقد كانت تميل إلى البدانة، وجهها مستدير كاستدارة القمر، وعيناها تلمعان بعفوية.

فركت كفيها ببعضهما قائلة: «سيدي فعلتُ ما أمرتني به.. أعطيتها شراب الأعشاب بعد عناء طويل.. بُح صوتي وأنا أقنع تلك العنيدة أنه ليس سُمًّا بل قاتل للألم.. هي الآن نائمة».

وقف «رعد» يشبك يديه خلف ظهره، يفكر قليلًا ثم ينظر إليها متسائلًا: «هل أخبرتكِ بشيء جديد؟».

مسحت «فضة» يديها المتعرقتين في المريولة البيضاء حول خصرها، وقد كانت امرأة تتعرق كفاها بشدة صيفًا وشتاءً. هزت رأسها نفيًا قائلة: «القصة نفسها التي تحكيها منذ أن أَسَرتها يا سيدي.. تدَّعي أنها «سراب» حفيدة «أبو العيون» الذي صار قاضيًا بالجبل.. وأن وجهها تبدل بعد حريق شوهه».

- أي حريق؟

- سألتها فلم تجِبني.. تطلب رؤية القاضي وترجوني لأساعدها.

رفع سبابته محذرًا، فسارعت تقول على الفور: «اطمئن لن أقدم مرة أخرى على هذا الخطأ».

قلب «رعد» الأفكار في رأسه، وطبخها فوق فحم مشتعل، فلما نضجت وفاحت رائحتها اندفع قائلًا بحيرة: «لماذا تصر على هذه القصة السخيفة؟.. أعجزَت عن ابتكار كذبة أفضل؟».

مالت «فضة» برأسها، تقول في ثقة: «هذا ما فكرتُ فيه يا سيدي.. لذلك جعلتها تعيد القصة على سمعي مرات ومرات أملًا في أن ينزلق لسانها بكلمة تفضحها.. لكنها ظلت ثابتة».

شرع «رعد» يذرع الغرفة مجيئًا وذهابًا في حدة، فبادرته «فضة» على استحياء: «لو يسمح لي سيدي».

تطلع إليها فاقتربت قليلًا، تستطرد: «ألم تفكر أنه ربما.. تكون الفتاة صادقة».

اندفع بعصبية قائلًا: «كيف صادقة يا «فضة»؟.. تدعي أنها «سراب» حفيدة القاضي.. ونعرف جيدًا ماذا حدث لـ «سراب» حفيدة القاضي.. قُتلت في البئر المهجورة.. وكانت هويتها واضحة إلى أن أخفى الزمن معالم وجهها».

- سيدي الفتاة لا تعرف ذلك.. إنها تظن ما يظنه أهل الواحة.. أن التي سقطت في البئر هي «ذات البرقع» التائهة.. ولأن أحدهم لم يرَ وجهها من قبل صدقوا ما قلناه لهم.. لا أحد يعرف الحقيقة إلا أنا وأنتَ والقاضي الذي فقد حفيدته.

صمتت قليلًا مخافة أن تزعجه بثرثرتها، تعرقت كفاها، فشرعت تمسحهما في المريولة بينما تقول: «سيدي، قد تتشابه الأصوات واللهجات، لكن الوجوه نادرًا ما تتشابه، هل أنت واثق أنها «ذات البرقع»؟.. ربما اختلط عليك الأمر و...».

النظرة التي سددها «رعد» كانت كافية لتبتلع ما تبقى من عبارتها المجهضَة، كان سؤالًا سخيفًا رغم ذلك لم تمنع نفسها من أن تسأله، قال ولم يكن بحاجة إلى تأكيد بعد النظرة الواثقة: «لا يمكن أن أخطِئها».

وكان هذا بمنزلة قول فصل لا شك فيه ولا تأويل، دفعها لأن تفكر في سبيل آخر يجمع كل هذه المتناقضات في حكاية واحدة، بغتة رفعت كفها تقول: «سيدي.. تقول الفتاة إنها «سراب» حفيدة القاضي ونعرف جيدًا أنها

ليست هي.. وفي الوقت نفسه تحمل وجه «ذات البرقع» وتقول إنها ليست هي.. أعتقد أنني عرفتُ مَربط الفرَس».

التفت إليها بجسده كله يسمعها بشغف، قالت بحماس كبير: «هذه الفتاة لا تكذب».

ثم استطردت بحنكة مؤكدة، وهي ترفع من أصابعها السبابة والوسطى: «إما أن شخصًا ما أوقع هذه الفتاة في مكيدة ومنحها وجه «ذات البرقع» القاتلة عامدًا.. وإما أنها لا تتذكر هويتها الحقيقية، أي فاقدة للذاكرة!».

دُنيازاد

أنا دُنيازاد واحدة
لهذه الحكاية المراوغة
كلما قبضتم على لغزها
انفلت منكم مشاكسًا
أعرف الحل لكنني
أبخل به وأنزوي
بعيدًا إلى أن يأتي موعدُ
تنكشف الحقيقة وتنجلي
لكل حكاية حليفها
ومنافسها وعدوها
اعرَف الحليفَ ستحترم
قوله وفعله والتزم
الصورة ليست واحدة
بل قطع صغيرة متفرقة!

الليلة الحادية والثلاثون

الحياة المثالية هي التي تكون فيها سعيدًا، أم راضيًا؟

(1)

تدفق ضوء الشمس متسللًا عبر الشرفة، يغمر «سراب» المستلقية على جانبها الأيمن، ترنو إلى السماء بعقل شارد تتدفق منه الأفكار بسرعة الضوء الذي يغمر الغرفة بنورٍ وهَّاج.

لم تشعر بالوحدة كما تشعر بها الآن، لا الوحدة التي تعني غياب الناس، بل تلك التي تجعلها غير مفهومة، شاذة كنغمة شاردة لا تستسيغها أذن.

لم تبحث عن حياة مثالية، كل ما كانت ترجوه هو الأُنس، وقائمة قصيرة من القواسم المشتركة، ورابط قوي يجمعها بمن تُحب.

انفتح الباب بغتة، التفتت بجزع تستطلع القادم، ما إن طالعها وجه «فضة» حتى عادت تستلقي دون أن تكلف نفسها عناء النهوض. خاضت معها نقاشًا عصيبًا قبل قليل، انتهى بشكل غير محمود، طردتها «سراب» من الغرفة وأغلقت من خلفها الباب.

أصابها مس من الجنون عندما أخبرتها «فضة» عن هوية الفتاة الميتة في البئر، «سراب» الحقيقية، حفيدة «أبو العيون» قاضي الجارة السوداء، الرجل الذي حاول خنقها.

صرخت «سراب» فيها معنفة: «أنا «سراب» الحقيقية.. أنا الحفيدة المنسية».

- بل أنتِ قاتلتها.
- لم أدخل واحتكم من قبل.
- بل جئتِ إلينا قبل ثلاث سنوات ونصف.. غريبة تائهة.. عشتِ بيننا ستة أشهر.. ثم غدرتِ بنا.

عندئذ التقطت «سراب» كل ما طالته يداها في الغرفة، قذفته بعشوائية صوب الجدران الحجرية. لم يبقَ شيء في موضعه؛ لا مقعد، ولا مفرش، ولا إناء، ولا وسادة. كل شيء كان محطمًا ومبعثرًا، مثلها.

يحسبونها مجرمة انتحلت شخصية الفتاة التي أزهقَت روحها، كان هذا فوق قدرتها على الاستيعاب، لا يطالبونها فحسب بالتخلي عن هويتها التي تعرفها، بل أن تتبنى هوية مجرمة.

ليست الهوية اسمًا، ولقبًا، ومجموعة من الأوراق الرسمية، إنها فكر، وقناعة، وعقيدة، ورؤى، وخريطة ذهنية يرى المرء موضعه فيها بدقة. وإن نزْع جلدها الذي يغطي جسدها كاملًا لأهوَن عليها من التخلي عن كونها «سراب» حفيدة «أبو العيون» قاضي الجبل، لأنها عندئذ ستتخلى عن كل ما تؤمن به، كل ما يجعلها هي.

لن تصدق أبدًا أنها مجرمة، بلا مبادئ، تثير في الناس نفورهم.

شعرت بجدران الحياة تضيق عليها، تبغي سحقها، وعندما هدها التعب والبكاء ألقت بجسدها فوق الفراش، ساهمة، هامدة.

كانت الغرفة لا تزال على حالها، مست «فضة» جبينها بظهر كفها، فحصت الجرح في مؤخرة رأسها الذي تسبب به اللقاء المحتدم مع القاضي، ثم استبدلَت الضمادة، كل هذا دون أن تبادر أي منهما في جذب أطراف الحديث.

إلى أن تساءلت «سراب» بخفوت: «الماء الذي شربته في أثناء إغماءتي كان من البئر المسحورة، أليس كذلك؟».

تخيرت «فضة» كلماتها بعناية تقول: «في كل الأحوال لن تغادري الواحة.. سواء شربتِ منه أم لم تشربي.. آن لكِ أن تفهمي».

انفجرت «سراب» ضاحكة بعصبية تقول: «هذا أول شيء صحيح تقولينه منذ التقينا».

كانت «سراب» قد أدركت أنها وصلت إلى طريق مسدود، لا مهرب لها من الجبل، سواء شربت من البئر أم لم تشرب، لن يتركها آسِرها وإن تمازَج السحاب بالتراب.

- سأرسل من ينظف غرفتك ويعيد ترتيبها.. إن أردتِ بإمكانكِ تقديم يد المساعدة في المطبخ.

رفعت «سراب» رأسها قليلًا عن الوسادة التي تشربت عرقها وعبراتها، رمقتها تقول بنبرة هازئة: «ألا تخافين من سيدك؟».

- سأترك الباب مفتوحًا.. المطبخ في الممر الثالث إلى اليسار.. فقط تتبعي الرائحة.

بقيت في الفراش قرابة نصف الساعة بعد مغادرة «فضة»، لم يحركها في اتجاه الباب إلا الجوع. لم تكد تخرج إلى الممر الأول حتى تلقَّفتها رائحة زكية، تتبعتها إلى أن بلغت مطبخًا واسعًا فيه ما يربو إلى خمس وعشرين امرأة، كل منهن ترتدي تمامًا كما ترتدي «فضة»؛ رداء رمادي، ومريولة بيضاء حول الخصر.

مسحتها الأعين في أثناء دخولها، تجاهلت الجميع ولم تلقِ بكلمة ترحيب، تخيرت مقعدًا أمام طاولة لا يستخدمها أحد، جلست تضع مرفقها فوق الطاولة، تُسند ذقنها بقبضتها، تراقب الحركة الدؤوب للطباخات بين الطواجن والصواني والقدور. تستمع إلى الأوامر التي تلقيها «فضة» عليهن بلطف لا يخلو من الحزم، بدا لها أن المرأة الخمسينية تشغل مركز كبيرة الطباخات، إن كان هنا لقب كهذا؛ الجميع يصغرنها سنًّا، تبدو لبعضهن أمًّا، وجدة لأخريات.

تتأملهن بوجه جامدٍ، غير مرحِّب بالرفقة أو الحديث؛ لم توجه أيٌّ منهن كلمة لها، ولم تند عنها بادرة مساعدة.

- تُشارِكن في إعداد الطعام لعصابة من المجرمين.. لا بُد أنكن فخورات بأنفسكن للغاية.

ما إن تكلمت «سراب» حتى عم الصمت أرجاء المطبخ، التفتت لها رؤوس محتدة القسمات، ورنا إليها خمسون زوجًا من الأعين المستنكِرة.

- هل خدشت كلماتي مشاعركن المرهفة؟.. كان أولى بها أن تتأثر بما حدث للرجل الذي مزق السوط ظهره.. أو بـ «عبد البر» الذي فقد حياته بين الرمال.. هل تعرفن أنه لم يصرخ طلبًا للمساعدة؟.. أظن لأنه كان يعرف سابقًا أن الجميع أموات.

كانت «فضة» تدرك أن الفتاة مثيرة للمتاعب، تنسكب في أي مكان تدخله كوقود قابل للاشتعال، نظراتها بحدة السكين، وكلماتها صلبة كصخور الجبل. لم يكن بيدها حيلة، كانت تعليمات الممسوس واضحة، أرادها أن تتقرب من الفتاة لتكتشف أي وجه تخفي وراء هذا القناع الذي تحمله.

- التفتنَ إلى العمل.

فعلنَ ما أمرت به «فضة»، شرعت «سراب» ترصد من موضعها الكاشف رؤوس الطباخات تدنو من بعضها، تنتقل همساتهن عنها على جناح الثرثرة، من أول المطبخ إلى آخره.

وضعت «فضة» وعاءً به جزر وسكين فوق الطاولة، ثم قالت آمرة: «قطعي هذا».

نقلت «سراب» نظراتها بين وجه الطباخة والوعاء، ثم قالت ببرود دون أن تتحرك قيد أنملة: «لم آتِ لأساعد.. بل لآكل.. أنا مخطوفة في عُهدتكم وعليكم إطعامي».

وبعد ثانية ضربت جبينها تستطرد ساخرة: «آه نسيت، أنا قاتلة.. لكن المحكوم عليهم بالإعدام على الأقل لهم الحق في وجبة أخيرة لائقة، أليس كذلك؟».

تمالكت «فضة» أعصابها، وتجاهلت ردة فعل الطباخات الحانقات على الفتاة وأسلوبها. قالت وهي تستعيد وعاءها: «الطعام لم ينضج بعد».

- سأنتظر.. الانتظار هو الشيء الوحيد الذي أفعله هنا.

تتابعت الرائحة الطيبة تثير شهيتها، لا تعرف ما يطبخنه في القدور، إلا أنها واثقة أنها ستُنهي طبقها كاملًا.

نضج الطعام، وشرعت الطباخات في إعداد أطباق الغرف، تحركن كخلية نحل داخل المطبخ وخارجه، إلى أن أنهين العمل بشكل أرضى رئيستهن، وجعلها تثني على جهودهن.

كانت «سراب» قد أوشكت على الانتهاء من الطبق الثاني عندما خلا المطبخ في فترة الاستراحة. جذبت «فضة» مقعدًا ووضعته أمام طاولة غير التي تجلس «سراب» أمامها، رتبت الخوص جوار بعضه، ثم أخذت ترتبهم فوق بعضهم بشكل متعاقب، شريط تلو الآخر.

انتقلت «سراب» بمقعدها إلى طاولة المرأة التي تجاهلت وجودها، التقطت «سراب» شريطًا من الخوص ولفته حول أصابعها، تقول موضحة: «لا أعرف ما حدث لي.. لم أكن هكذا».

بينما تنهدت بقوة تستطرد مسحت بنظراتها فوق الجدران الأربعة: «المكان هنا يضغطني ويشعرني بالاختناق».

تمسك بشريط آخر، ثم تضعه فوق الأول، تلتفت صوب المرأة لتضيف بمرارة: «ليس المكان وحده ما يزعجني.. الذين يعيشون فيه أيضًا».

- لستِ مخطوفة.

رنَت إليها «سراب» مستفهمة، استطردت «فضة» بحزم: «أنتِ هنا لأنكِ أخطأتِ.. والمخطئ يُعاقَب».

بينما ابتسمت «سراب» ساخرة، أمسكت بشريط خوص ثالث، تمط شفتيها مرددة: «أخطأتُ وأعاقَب.. هذا جميل».

- من الأفضل أن تبدئي في تقبل ذنبكِ.. قفي أمام الممسوس واعترفي.. لربما.. أقول لربما يعتقكِ.. أليس هذا أفضل يا ذات البرقع؟

طرقت بكفها فوق الطاولة بقوة أفزعت «فضة» وجعلتها تنتفض في مقعدها، أمالت «سراب» برأسها للأمام قائلة بصرامة: «لستُ من ذوات البراقع.. اسمي «سراب».. هذا هو الاسم الذي منحته لي أمي حين وُلِدتُ.. وهو الاسم الذي أحب أن يناديني به الناس».

أنهت عبارتها الحادة كل فرصة للتفاهم، خنقت الحوار في بداية الطريق، شرعت تفكر في «مشتاق» متسائلة عن أحواله من دونها، هل استطاع الخروج من الواحة والنجاة بنفسه؟.. انتهى الماء الذي يحمله قبل أيام، هذا لو استطاع تدبر أمره كما ينبغي، لا بُد أنه مثلها اضطر إلى الشرب من ماء البئر المسحورة.

لم تتفوه بكلمة عنه منذ عبورها للجارة السوداء، خافت عليه كثيرًا، خشيت أن تورطه فيما لم تستطع بعد أن تفهمه؛ إذا كان جدها قد تنكر لها وحاول قتلها، فماذا بإمكانه أن يفعل بـ «مشتاق»؟ ربما يلفق له هو الآخر تهمة شائنة، ويدق الممسوس عنقه لأجلها. أو يهجم عليه الجد في محاولة لخنقه، وقد لا يجد من ينقذه مثلها، تُرى أي من الحراس كان مُنقِذها تلك الليلة؟

لا تذكر الكثير من تلك اللحظات العصيبة التي هاجمها فيها القاضي، انقطاع الأكسجين عن مخها لثوانٍ جعل آخر الصور تبدو ضبابية مشوشة قبل أن تغيب عن الوعي.

كانت مستغرقة في التفكير حين أيقظتها «فضة» بصوتها الرتيب: «تقولين إنكِ لم تأتي إلى الواحة قبل ثلاث سنوات ونصف؟».

أومأت «سراب» برأسها تجيب بنبرة متحدية: «لم أدخلها إلا قبل أسبوعين».

- وإنكِ لم تعيشي بيننا ستة أشهر كاملة.

- لا أعرفكم.

- وإنكِ تجهلين كل شيء عن عاداتنا.. ومهاراتنا.

- لم يسبق لي أن نلتُ هذا الشرف.

لم يمنع تهكمها «فضة» من أن تميل بجذعها قليلًا للأمام، تنقل نظراتها من وجه الفتاة إلى يديها، ثم تقول بابتسامة ظفر: «إذن كيف صنعتِ هذه السلة بإتقانٍ وخبرة لا يملكها منا إلا القليل؟».

أسقطت «سراب» نظراتها على شرائط الخوص التي كانت تلهو بها، وقد استحالت سلة صغيرة مُتقنة الصنع، تفوق براعتها تلك التي تصنعها «صدف» وتبيعها في السوق!

- تحركت يدكِ بتلقائية لتفعل ما تجيده.. ذاكرة الجسد لا تخطئ، ذاكرة الجسد لا تموت.

تسوَّرت الصدمة قسماتها، واتسعت عيناها دهشة وفزعًا، لم تشعر بحركتها الرتيبة وهي تصنع السلة بعقل شارد. هل ألقَت عليها ساحرة الجبل بتعويذة جعلتها تصنع السلة من غير إرادة؟

هل دست لها «فضة» السحر في طعامها أو شرابها؟

إن كان هذا صحيحًا، كيف استطاعت لف الوشاح الذي أهداه لها «مطر» بمهارة استجلبَت ثناء «سلام» حين رأتها؟ كيف حلبت أبقار الحظيرة من تلقاء نفسها للمرة الأولى في حياتها دون أن تسأل عن الكيفية؟ والأهم، كيف تشعر أنها تنتمي إلى الصحراء أكثر من انتمائها إلى مدينتها؟

ألف «كيف» تقافزت أمام عينيها، وأثارت الشك في نفسها. نهضت بقوة تدفع مقعدها إلى الخلف، يسقط ليُحدث صوتًا مدويًا بدد سكون المطبخ. تقول بقناع تخفي به اضطرابها: «أنتِ مخطئة».

ثم تخرج من المطبخ باتجاه الغرفة التي تقيم بها، لم تستطع أن تدعوها بعدُ بـ «غرفتها»، لن تكون غرفتها أبدًا. بدلًا من التوجه إلى الغرفة، ألقت نظرة مطولة خلفها تتأكد أن «فضة» لا تتبعها، ثم انحرفت إلى ممر آخر تدخله للمرة الأولى.

ومنه إلى آخر، وآخر فآخر، لن تبقى حبيسة القفص، لن تصبح حيوانًا مدربًا يُحرِّكه الطعام والعصا.

لن تكون مستأنسة كما يريد لها هذا الممسوس، ستظل كما هي، برية غير قابلة للترويض.

***

(2)

«إما أن أحدهم أوقع هذه الفتاة في مكيدة ومنحها وجه ذات البرقع القاتلة عامدًا.. وإما أنها لا تتذكر هويتها الحقيقية، أي فاقدة للذاكرة!».

هذا ما قالته «فضة» له، لم تأتِ الطباخة بجديد، كان هذا تحديدًا ما يدور بخلده. الثقة التي تتحدث بها، والقصة التي تؤمن بصدقها، وطلبها المستمر للقاء القاضي بدلًا من تجنبه، كل هذا دفعه لأن يفكر أن شيئًا غريبًا يدور هنا، ثمة بُعد يتجاوز الحكاية التي يعرفها.

منذ أن التقاها أمام الكوخ وأسرَها فوق حصانه، وحتى حديثها المحتدم في الساحة أمام الجبل، لم تند عنها إشارة واحدة تهدم بها قصتها المزعومة؛ لا نظرة منفلتة، ولا كلمة منزلقة، ولا تصرف يوحي بأنها تعرفه.

كيف تنتحل صفة الفتاة التي تعرف جيدًا أنها ميتة وتتوقع منه أن يصدقها؟ هي أذكى من اختلاق حكاية ممتلئة بالثغرات ومواطن الخلل، فهل حقًّا لا تتذكر؟ أم أن تقديم حكاية هشة هو جزء من خدعتها الجديدة؟ ماذا تريد هذه المرة، ماذا ستسلبه؟

مزَّق حبلَ أفكاره دخولُ واحد من حراسه إلى قاعة القرار، أشار له «رعد» بالاقتراب، وللحارسين بالانصراف، بينما ظل هو جالسًا، ينقر فوق الطاولة بأطراف أنامله.

- هل مِن جديد؟

يتقدم الحارس ويقول بتوقير: «ما زال الغريب يسكن دار «عبد البر» يا سيدي.. يمضي الوقت في حديقة الفواكه التابعة لدار قارئة الصخور.. يتجول في السوق.. ويمر بساحة المرح دون أن يجلس فيها.. لا يرافق أحدًا.. ولا يتحدث إليه أحد منذ واقعة الزفاف».

استمع إليه «رعد» باهتمام، ثم سأله: «ألم يلتقِ مرة أخرى الأحدب؟».

قال الحارس مؤكدًا: «لم يذهب إلى كوخه منذ لقائهما الأخير».

وقف عاقدًا كفيه خلف ظهره، تحرك خطوات قليلة للأمام ثم توقف قائلًا بصرامة: «استمر في مراقبته.. لا تجعله يغيب عن ناظريك.. إن حاول الاقتراب من الهاوية أخبرني».

ثم أضاف بحزمٍ محذرًا: «وإياك أن يعرف القاضي بوجوده في الواحة.. إن حدث هذا لن أرحمكَ».

- لا تقلق يا سيدي.. لن يعرف القاضي بوجوده أبدًا.

أومأ له «رعد» للانصراف، ثم اختلى بنفسه دون أن يطلب من الحارسين العودة إلى موضعيهما. عاد إلى الجلوس فوق الطاولة الكبيرة، ينقر بأطراف أصابعه مفكرًا، يتهامس لنفسه: «تُرى لأي هدف جئتَ يا «مشتاق»، لماذا أتيت إلى الواحة التي لم تخطها بقدميك قبلًا؟!».

ما كان بإمكانه أن يدع القاضي يعرف بوجوده، وإلا لأصر على لقائه، يجب أن يعرف أولًا الهدف الذي جعله يقرر زيارة الواحة بعد كل ما حدث.

لن يحرم القاضي من حفيده الذي لم يره قط، وهو خير من يعلم أنه سيرغب في لقاء الحفيد الذي هو امتداد له، لكن على «مشتاق» أن يثبت حُسن نياته أولًا.

إن كان قد جاء لجمع الشمل لا لإلحاق الأذى، فلماذا يرافق الفتاة التي خدعتهم من قبل وتستمر في خداعهم؟

لماذا يتركها تقص على الأسماع حكاية مهلهلة عن كونها «سراب» الحفيدة؟ لماذا لا يواجهها بالحقيقة ويفضح كذبها؟ لماذا يتظاهر أمام أهل الواحة أن ثمة رابط دم يجمع بينهما، في حين أنه والفتاة غريبان لا تسري في عروقهما دماء واحدة؟ هذا ما كان يشغل تفكير «رعد» ويقلق راحته.

إذا أراد «مشتاق» لقاء جده القاضي «أبو العيون»، عليه أن يثبت أولًا أنه يقف في الجانب الصحيح من الحكاية، لم يعد بإمكان «رعد» المجازفة.

***

ترك لحيته تنبت دون تهذيب، تتقاذف الرياح شعره الطويل، وتلصق غبارها بوجهه وكفيه.

أسلَم «مشتاق» نفسه لتيار الحدَث، تُقلِّبه الخطوب بلا مقاومة، يتمازَج معها بلا تأثير، لطالما شعر أنه صفر مهمش في أي معادلة.

قطع غصنًا من شجرة زيتون كبيرة، وجلس فوق الرمال يرسم دوائر متداخلة، دوامة من الأحداث تعتصره في منتصفها. تمتلئ عيناه بدموع حارقة، تحجب عنه مرأى الرمال، والدوائر، والغصن. ينفعل عليه ويكسره، ثم يقذفه بعيدًا بجُل قوته.

لم يكن عنصرًا فعالًا في أي معادلة، بينما كانت هي أشجع منه على الدوام، رغم تماثلهما في العمر، تقول ما يُعجزه، وتفعل ما يشق عليه، لطالما أعجبته شجاعتها، وقوتها حتى في أوهَن لحظاتها.

أكلت الغيرة قلبه مرات ومرات، حقدًا على الفتاة التي يعيش معها تحت سقف واحد، ولا يملك مثل قلبها.

فكر أن يخبرها بالحقيقة، ويساعدها لتستعيد حياتها المسلوبة، فكر لكنه قط لم يجرؤ على أن يكون رقمًا صحيحًا يُحقق أثرًا ملحوظًا.

لو كانت مكانه، لقادت المعركة ببسالة فارسة، ولضربت بسيف شجاعتها الظلم الذي ظلله. لو كانت مكانه، لوضعت الأمور في نصابها.

يحلو له أن يتخيل تروس الزمن تدور إلى الوراء ثلاث سنوات، عندما بدأت حياته تنقلب على عقبيها، هل يمكن العودة بالزمن لتصحيح أخطاء الماضي وهفواته؟ سيفعل إن كان هذا ممكنًا.

حك رأسه بعنفٍ، منفعلًا على ذاته، يُدرك أنه يعيش في عالم من الأمنيات المستحيلة، الزمن لن يعود، والخطأ لن يُمحى، والتصحيح يحتاج إلى شجاعة لا إلى آلة زمن.

أمسك بحجر وقذفه بطول ذراعه، حانقًا على نفسه، وساخطًا لأجلها، الفتاة التي لم يرَ منها ما يسوؤه. أحبته كأخيها، وكابن خالها، بينما يخفي هو عنها الحقيقة ويتركها تتخبط في أرض الظلام غير مبصرة.

تخنقه هشاشته، وتستجلب احتقاره لذاته، لطالما أراد أن يكون رجلًا مسؤولًا، لكن ثمة مسافات كبيرة بين الفعل والإرادة.

لم يستطع إنقاذ نفسه، لم يستطع إنقاذ أحد، حتى الفتاة التي استمالت قلبه وأحبها، ذات الضفائر الذهبية التي تمنى العثور عليها، أخبرته أنها إلى أسر الزواج ستمضي مرغمة، وعجز أيضًا عن إنقاذها.

كم أراد رؤية جده، لكنه لم يبحث عنه بهمة مشتاق يرغب في اللقاء، كان ولا يزال خائفًا، تُرى كيف سيكون وقع اللقاء على كليهما؟

هل سيفتح جده ذراعيه يستقبله؟ هل سيركض نحوه يقربه ويعانقه؟ أم سيقذف به إلى قاع الهاوية جزاء ما فعلته به جدته؟

لطالما آمَن «مشتاق» أن حقد المرأة أشد فتكًا من ألف قنبلة، وأكثر تدميرًا من الأسلحة البيولوجية التي يتفنن العلماء في اختراعها.

لو لم يملأ الحقد قلب جدته، لما أعدت خطتها الرهيبة للانتقام من الزوج الذي نبذها، وفضل عليها امرأة غيرها.

لو لم تأكل الغيرة فؤادها وتذيبه في حمضها الفتاك، لما ألحقت الأذى بجده بهذه الطريقة القاسية.

الآن بعدما تجرع جده مرارة كأسها، هل سيكون قادرًا على الاحتفاظ بالحب لحفيد المرأة التي دمرته؟ لا يظن ذلك ممكنًا، لهذا لم يسعَ بهمة لهذا اللقاء المنتظر.

قذف بحجر آخر، قطع مسافة أكبر من سابقه، يهتف في خيال غير موجود، يجسد السخط الذي يحمله: «أنتَ نكرة يا «مشتاق».. أقل نفعًا من هذا الغصن المكسور».

لم يطق ملابسه، ولا جلده، ولا هويته، أراد أن ينتزع ثلاثتهم، ويتحرر من كل ما يجعله هو.

اختلافات شاسعة تفصل بين الرجل الذي أراد أن يكون، والرجل الذي هو عليه. عندما خط شارب صغير لأول مرة في وجهه الأبيض المستدير، ظن أنه عبر العتبة التي تجعل منه رجلًا كاملًا، لم يدرك إلا في وقت متأخر أنه كان بحاجة إلى يد تدعم، ولسان يوجِّه، وكتف ترافق، وعين تترفق.

عندما دخل الواحة لأول مرة في حياته قبل أسبوعين، شعر أنه يتسابق مع الذكريات الأليمة أيها لها الغلبة على واقعه. أحب الوجود في ساحة المرح؛ هناك رأى الفتية يلتفون حول الكبار يستقون من علمهم، ويتأدبون بآدابهم، رأى رجلًا يجلس كتفًا بكتف إلى فتى كي يُعلمه، ويبصِّره، ويفهمه.

رأى مقومًا يصوب الخطأ، وحليمًا يغفر الزلل؛ شعر بالحرج من أن يعترف لنفسه، أنه يغار من فتيان الواحة وحياتهم.

لم يكن النموذج الذكوري في حياته جيدًا بما يكفي، كانت الرجولة في نظر أبيه تتمثل في خرطوم من البلاستيك برتقالي اللون، يحتفظ به في

خزانة ملابسه. ينزل به فوق ظهره، وكتفه، وساقيه إذا أساء التصرف، أو أراد أبوه تدريبه على عادة جديدة.

عندما كان طفلًا ظن أن هذا الخرطوم صُنع لأجله، وأن بائع الخراطيم يصنع واحدًا لكل طفل جديد يولَد في المدينة، فتمنى أن يعيش في عالم خالٍ من الخراطيم.

- أنا أصنع منكَ رجلًا حقيقيًّا.. ستشكرني حين تكبر.

هذا ما فتئ أبوه يردده، لكنه لم يمتن له قط. ثم أدرك حين كبر قليلًا أن ثمة جسدًا آخر يتشارك معه الخرطوم ذاته؛ فهم أخيرًا مصدر الكدمات التي يرى أمه تحاول إخفاءها بارتداء ملابس طويلة ذات أكمام لا ترفعها أبدًا، فتساءل في نفسه: *هل يصنع منها أنثى حقيقية أيضًا؟*

ما كان يجرؤ على طرق باب غرفتيهما حين يعلو الصراخ على صوت التلفاز، الذي يرفعه عامدًا كي يحاول تناسي ما يحدث داخل الغرفة المغلقة، التي لا تضم سوى أبيه وأمه والخرطوم البرتقالي.

لم يكن شيء قادرًا على فتح باب الغرفة سوى الرجل الذي أغلقه، لكن «مشتاق» لم يكن قليل الحيلة، كان يمسك بمطفأة السجائر ويصوبها إلى نافذة الجيران فيكسرها، وبعد قليل يطرق بابهم أحد الشاكين مؤنبًا. أو يأتي بدلو من الماء يفرغه على المارين في الشارع، أو يبصق فوق رؤوسهم، وعندما باتت هذه الحيل مستهلكة، كان يمسك بعود ثقاب ويُشعل باب الغرفة من الخارج!

صحيح أنه كان يأخذ نصيبه من العقاب القاسي، إلا أنه لم يندم قط على ما كان يفعله.

كان كلما زارهم أحدٌ من أهل أمه، سمعها تتوسل إليهم باكية، أن يأخذوها معهم، فلا تنال سوى كلمات معنفة؛ أن هذا بيتك، وهذا ابنك، وهذا رجلك الذي نعرفه.

كانت أمه شقراء جميلة، ذات عينين عسليتين، برموش طويلة مكحلة! كانت تخبر «مشتاق» أنها يومًا ما ستفر من هذا السجن هاربة، عاش مع حقيقة أنه سيستيقظ ذات يوم فلا يعثر لها على أثر، لم تنشأ بينهما رابطة قوية كتلك التي رآها بين جارته وأبنائها، كانت أمه بعيدة، غارقة في اكتئابها، كأنها لا تراه أبدًا.

تنساه في الأسواق، ولا تتحمل بكاءه، تصرخ طوال الوقت، وتنسى أن تُطعمه.

عندما رحلت تركت له رسالة قصيرة مقتضبة: «لا أستطيع أخذك معي، لن أكون أمًّا سوية لكَ» ولم يرها ثانية.

يحلو له أن يتظاهر بالجهل أحيانًا ويتساءل: لماذا رحلت أمه عن البيت وتركت كل شيء خلفها؟

وأحيانًا كانت الذكريات حاضرة بقوة تمنحه الجواب الذي يتجاهله.

عندما انتقل إلى بيت جدته حمل في حقيبته ملابسه وأغراضه، والخرطوم البرتقالي، لسبب ما لم يستطع أن يتركه، كأنه رفيق صبا يحملان معًا قاسمًا كبيرًا من الذكريات المشتركة، ولكم أشعره هذا أنه مثير للشفقة.

قادته خطواته صوب دار «فلك»، دار الزوجية التي أصبحت سجنًا لها، تخيلها تقف في إحدى تلك النوافذ المغلقة بأعمدة حديدية تشبه قضبان الزنازين، تستحلفه بالخالق الذي يؤمن به، أن يكون رجلًا شجاعًا ولو مرة واحدة، ويحررها من الأسر.

ولأنه بحاجة ماسة إلى أن يبعد شعور الاحتقار الذاتي الذي يلتصق به مثل علقة، قرر الاستجابة لندائها الصامت، وعزم على تخليصها.

هذه المرة لن يكون صفرًا مهمشًا، سيكون بطلًا مغوارًا ينقذ المرأة التي أحبها.

***

لم تنظر «فلك» من النافذة كما تخيل «مشتاق»، لكنها كانت تجلس بالقرب منها، تقلب نظراتها في الدار الخالية، تنتظر متململة أن يستيقظ «هلال» الذي لا يتخلف عن قيلولة الظهيرة.

لديه نظام صارم، بينما ينام ويستيقظ في ساعة محددة، بدقة ميقات الشمس التي لا تتخلف عن مواعيدها، تضبط «فلك» ساعات نومها وفقًا لحالتها المزاجية. لم تحب الدار الخالية، قلَّ إقبال المهنئات على دارها، يتجهزن من أجل زفاف قريب لعروس جديدة، هكذا سمعت من إحداهن بوجه محتقن.

شعرت أنها أُزيحت عن عرش اهتمام نساء الواحة سريعًا، ولم يكن هذا منصفًا.

خرج «هلال» من غرفته، مبتسمًا كما هو حاله دائمًا، ولكم أغاظها هذا وأزعجها، لم تستيقظ قط متفائلة، كان استيقاظها يتضمن قائمة طويلة من المهام اليومية، وشجارات لا تنتهي مع أخواتها السبع، لطالما كانت تفتح عينيها ساخطة ومتبرمة.

شاركها «هلال» الجلوس فوق الأريكة، يسألها بينما يدلك رقبته، بصوت متباطئ لم يغادره النعاس بعدُ: «فيمَ أنتِ شاردة؟».

- ألم تلاحظ أن النساء لم يعدن يعتبرن أنني عروس جديدة؟

- لماذا تقولين ذلك؟

أشارت إلى ما حولها تقول: «لم يزُرني أحد منذ الصباح».

أطلق «هلال» ضحكة قصيرة، مسح فوق وجنتها بأنامله، متباطئًا ومستمتعًا.

- هذا جيد.. لا أحب الزحام.

أمسك بأطراف ضفيرتها يلفها حول إصبعه، كانت منزعجة من ردة فعله إلى الحد الذي ودت لو تمد يدها وتمزق ابتسامته.

- ألا ترى أن هذا مهين؟

رفع حاجبه وقال حائرًا: «هنأننا وانتهى الأمر.. لن يستمررن في القدوم إلى ما لا نهاية».

- لكنني ما زلتُ عروسًا جديدة.. لماذا لا يرى أحد ذلك.. لماذا يتجاهلنني وكأنني لا أستحق اهتمامهن؟

لف عقدة أخرى من ضفيرتها حول سبابته، ابتسم ببشاشة قائلًا: «أنا أهتم.. ألا يكفي هذا؟».

أطبقت شفتيها في اللحظة الأخيرة قبل أن تقول: هذا ليس كافيًا.

لو كانت العروس أختها الكبرى لما انقطع مجيء الزوار لدارها شهرًا كاملًا، لا بُد أن ابنة خالتها تسخر الآن من حالها، زارتها أمها في الصباح وقرأت مسار الرمال فوق صخورها، ثم قالت لها لائمة بغلظة: «نجمكِ على وشك أن ينطفئ».

لا تريد لنجمها أن ينطفئ، إن انطفأت لن يراها أحد، وإن لم يرَها أحد ستختفي للأبد، كأنها ريح عبرَت ومرت دون أن تُفتقَد.

الاهتمام، والثناء، والمديح، والمجاملة، والتلطف، والاستمالة، كل هذا يُعَد غذاء لذاتها، وهي الآن جوعى كثيرًا.

- أمكَ لم تعد تأتي إلى دارنا.. هي أيضًا تهيننا بتصرفها.

- كانت هنا قبل الأمس.

- هذا ما أقوله.. لم تأتِ لا الأمس ولا اليوم.. ثم أنها لم تحضِر إلا عشرة أزواج من الحمام.. هل تعرف كم هذا مهين؟.. لو كانت «سلام» هي التي زُوِّجت لأتتها أم «جمعان» بأربعين زوجًا على الأقل.

- نفقت طيورها قبل شهر بعدما أصابها الإعياء.. هذا العدد هو ما نجا من المرض.. ثم أن لدينا طعامًا يكفي ليُشبع واحة كاملة.

انفعلت «فلك» مستهجنة: «أتظنني أهتم بالطعام؟.. الأمر أكبر من ذلك.. إنها إهانة.. سيسخر الجميع مني».

عقد جبينه، حرر إصبعه من شعرها، ثم تنهد قائلًا: «تأخرتُ على الطاحونة».

رمَته «فلك» بنظرة محتدة، ثم سألته: «أستغادر أنتَ أيضًا؟».

- يجب أن أعمل.. لا يوجد في الواحة إلا طاحونة واحدة.. الرجل الذي أخذ مكاني لا يؤدي العمل كما ينبغي.. لا أريد أن أخسر زبائني.

أومأت «فلك» برأسها مبدية التفهم، لكنها قط لم تتفهم، كيف لا يترك العمل والأشغال والزبائن والحياة لأجلها؟ كيف لا يشعرها أن كل دقيقة تمر معها ثمينة وقيمة، لماذا يتحدثان عن العمل.. والطعام.. والدار.. والأشغال؟.. لماذا تمر حياتهما بهذه العادية المفرطة؟

سمعت طرقات على الباب فاستبشرت قسماتها، بينما دخل «هلال» غرفته، فتحت «فلك» الباب واستقبلت عشرًا من المهنئات.

عادت ابتسامتها تشع فوق ثغرها، تتحرك كفراشة استطاعت أخيرًا أن تفرد جناحيها الجميلين محلقة.

استمتعت بالحديث معهن إلى أن تطرقت إحداهن بالسؤال: «لم تخبرينا بعد يا «فلك» كيف فضَّلك زوجك على بنات الواحة؟».

- نعم أخبرينا يا «فلك».

قالت أخرى، وتحركت الأعين بشغف تنتظر الحكاية الملهمة. توسطت «فلك» مجلسهن، تُمسد ضفيرتها بدلال، بينما تبتسم تقص على أسماعهن حكاية فكرت في تفاصيلها ليلة أمس، عن طابور الطاحونة الذي كانت تقف فيه ما إن يشرق الصباح، ونظرات «هلال» التي كانت ترسل لها بألف قصيدة حب، تطوقها مهما كان موضعها من الطابور، يتباطأ في تلبية حاجتها وطحن غلالها، كي يتلذذ بإبقائها أمامه أطول فترة ممكنة، ثم ختمت حكايتها قائلة بغُنج: «وعندما يحين دوري لطحن الحبوب، كان يهمس لي بكلمات عذبة شغوف، كل مرة يتخير كلمات جديدة كأنه شاعر بالفطرة.. وعندما فاض به الشوق، وتعاظم حبي في قلبه، لم يتحمل المزيد من الانتظار، أرسل أمه تطلبني له لأعيد عقله الذي طار».

هامت الزائرات بتفاصيل الحكاية المثيرة، وما إن غادرن الدار حتى رأت «هلال» يقف خلفها بوجه جامد، وجبين مقطب عبوس على غير عادته، يسألها واجمًا: «لماذا كذبتِ؟».

اضطربت «فلك»، تشيح بيديها قائلة: «لم أكذب.. ربما أضفتُ لحكايتنا القليل من التفاصيل.. لكنني لم أكذب».

تقدم منها وقال غاضبًا: ««فلك» ألم تفكري أن ما قلتِه للتو سوف يضر بسمعتي؟.. أنا أقلب عيني في زبائني وأتباطأ كي أبقيهن أمامي وأهمس بكلمات عذبة لامرأة لا يربطني بها رابط؟.. ألم تفكري أن الرجال سيمنعون زوجاتهن وبناتهن وأخواتهن من ارتياد الطاحونة إن بلغ هذا الكلام أسماعهم؟».

- لا تبالغ.
- أبالغ!.. أريد أن أفهم فحسب.. لماذا كذبتِ؟
- لم أكذب.. أنت حقًّا رأيتني في طاحونتكَ.. وأحببتني.. و...

اقترب منها خطوة أخرى، قائلًا بهدوء: ««فلَك».. المرة الأولى التي رأيتكِ فيها كانت في دارنا.. لم أركِ إلا ليلة الزفاف، ولم أحمل لكِ في قلبي أي شعور قبلها».

نظرت إليه غير مصدقة، ثم ما لبثت أن أدركت أنه لا يمزح ولا يستفزها، بل يقول ما وقع صراحة. غادر الدار، وصارت هي كفرخ الحمام لا تعرف أين تحُط رحالها.

لم يرها، ولم يحبها، ولم تعنِ له شيئًا قبل زواجهما، حتى بنات الواحة لا يتزوجن بهذه الطريقة المجحفة، لا سحر في حكايتها إذن، بل لا حكاية من الأساس.

لم تتخيل أن حياتها ستكون كسائر الناس، بلا سحر، بلا ألوان.

شعرت أن خطبًا ما أصاب عينها، كل شيء حولها تحول إلى الأبيض والأسود، حاولت أن تمسك بالزهرة التي تتوسط المزهرية التي أصلحها «هلال»، تقربها من أشعة الشمس المتسللة عبر النافذة، ظلت الزهرة سوداء قاتمة وقد كانت تعرف أنها حمراء قانية.

لم تعد «فلك» ترى الألوان، انسحبت تمامًا من عينها!

***

عندما يقول عنها أهل الواحة: ابنة الساحرة. لا يعرفون كم يؤلمها هذا التوصيف، ويثير أسوأ خيالاتها.

لم تختَر «صدف» أن تكون ابنة لساحرة الجبل التي يخشاها الجميع، أرادت لأمها أن تكون امرأة عادية، بلا طموحات تتعلق بالسحر، أو النفوذ، أو السيطرة.

امرأة تجيد طهي الطعام، وتنظيف الدار، واستقبال زوجها المتعَب من العمل بدكان التوابل. تشاركها الجلوس فوق البسطة ساعة العصاري، وتنغمسان في حوار دافئ، مطمئن، يرمم ما تهدم من أيامها.

تسمعها، تفهمها، وتخبرها أن غدًا سيكون يومًا أجمل، تشاركها صناعة سلال الخوص، وتجاورها خلال بيعها في السوق، تتنافسان من منهما ستبيع سلالًا أكثر.

عندما تمرض تجدها تجلس عند رأسها، بنظرات خائفة، وقسمات مضطربة، لا تنام ولا تهدأ إلا عندما يغادر المرض دارها.

عندما أدخلها الحارس غرفة الساحرة، لم ترَ «صدف» أي شيء مما تمنت واشتهت، كل شيء كان باردًا جدًّا، وبعيدًا جدًّا، لا يشبهها، ولا تألفه.

- وأخيرًا يا «صدف».

رغم كل شيء ودَّت لو تبادر أمها بضمها، تمسد شعرها، وتشاركها البكاء على أبيها الذي رحل. أن تقول لها إنها حزنت مثلها، تألمت، ندمت، واشتاقت للدار التي غادرتها، وأهلها الذين هجرتهم.

كانت «صدف» لتصدق دون أمارة، كانت لتمسح من عقلها كل ذكرى مؤلمة، وتستهل معها بداية جديدة، كأم وابنتها.

لكن ما قالته الساحرة كان أبعد ما يكون عن خيالاتها.

- منعكِ أبوكِ اللعين عن زيارتي.. ظن أنه سيكون خالدًا فيبعدكِ عني إلى الأبد.. لكن الموت يا عزيزتي خصم لا يُستهان به.

عادت الذكريات الأليمة تتدفق في رأسها؛ الشجار والهجر والأم التي كانت غائبة عندما كانت في أمس الحاجة إلى صدرها.

- ما زلتِ طفلة صغيرة باكية.

نبهتها كلمات أمها أن دموعها تتساقط دون أن تشعر، مسحت وجنتيها بطرف الرداء على استحياء، نادمة على المشاعر التي فاضت في العلن.

مظاهر الفخامة من حولها أربكتها، وأشعرتها بالنفور لا بالراحة، لا شيء في جمال دارها الصغيرة، وأثاثها البسيط، وأبوها يعد لها الفطور بيديه ويأكلانه معًا.

- والآن علينا أن نتحدث عن مستقبل ابنتي الوحيدة.. لكن أولًا..

قالتها ثم توجهت إلى الحارس الذي كان يقف أمام باب الغرفة من الداخل، وقفت الساحرة أمامه لعشر ثوانٍ كاملة، تسدد في وجهه عينيها القويتين المكحلتين بخطوط عريضة، انتفضت «صدف» إذ رأت رأس الحارس يسقط فوق صدره ويدخل عقله في غفوة واقفًا.

خمش الخوف جبينها، وتعلق في عنقها رافضًا الرحيل، اقتربت أمها بردائها الأزرق الطويل الذي يمسح الأرض من خلفها، ثم مسحت فوق وجنة «صدف» بأظفار طويلة مدببة، مطلية بلون الذهب، أشعرتها وكأن أفعى تزحف فوقها. وبينما ترنو بعينها صوب شفتي الساحرة المطليتين بلون أحمر قانٍ، لا تعرف لمَ زاحم عقلها هاجس سخيف، أن لو فتحت أمها فمها على اتساعه ستتمكن من ابتلاعها. قالت ساحرة الجبل: «الآن صرنا وحدنا».

***

طرق «طوفان» الباب بإصرار، وانتظر حتى همَّ «أبو الأحناش» لفتحه. أغلق «أبو الأحناش» الباب عليهما، يستشرف خصوصية الحديث الذي سيدور، الذي يجب أن يبقى حبيس الجدران التي سمعته.

بادره «طوفان» وهو العارف بالجواب: «لماذا لم تنضم إلى وليمة جيراننا يا أخي؟».

رمقه «أبو الأحناش» بنظرة مكسورة تقول الكثير، طأطأ برأسه مفصحًا بمرارة: «لم أتلقَّ دعوة يا «طوفان»».

جاوره «طوفان» فوق الأريكة، مسح فوق ظهره قائلًا بعنفوان: ««أبو الأحناش» شهبندر القماش لا يحتاج إلى دعوة.. إذا دخل دارًا بالواحة يكون بمنزلة صاحب الدعوة».

- كان هذا سابقًا يا «طوفان».. منذ إلغاء الزفاف والرجال يتحاشون مجرد النظر إلى وجهي.. لم يعد يطلب أحدهم مشورتي.. ولا يقصدونني لأصلح بين متخاصمين.. يودون لو يقولون لي: أنت لم يعد لك مكان بيننا.

تحسس «طوفان» البلطة التي يخفيها دومًا تحت ملابسه، ثم قال بحمية: «سأقطع لسان من يقول ذلك».

ربت «أبو الأحناش» فوق ظهره، ممتنًا لمؤازرته، بلغه أن «طوفان» تشاجر مع جيرانهم قبل قليل، لعدم دعوة «أبو الأحناش» إلى الوليمة، دون أن يخشى نفور أهل الواحة منه هو الآخر، فامتن كثيرًا لصدق محبته. التفت له «أبو الأحناش» قائلًا بعجالة: «دعك مني الآن.. ما بها «سلَّام»؟».

ابتعدت يده تلقائيًا عن البلطة ما إن سمع باسمها، كأن القسوة و«سلَّام» لا يجتمعان. تساءل «طوفان» بوجل: «ما بها؟».

- لا أعرف.. ثمة ما يزعجها ويؤرق لياليها لكنها لا تخبرني.

ثم ربت فوق ركبته قائلًا بحماس: «تحدث أنتَ معها يا أخي لربما تخبرك.. هي الآن في غرفتها.. اذهب إليها».

حاول «طوفان» المراوغة: «إذا لم تخبرك فلن تخبرني».

- لا أظن.. «سلام» تخفي عني مشاعرها وأوجاعها لأنها تخاف عليَّ أكثر مما ينبغي.. تظن أنها تحميني بالتظاهر أمامي أنها بخير.. لكنها لا تفعل هذا معكَ.. أنتَ عمها وهي تحبك.

ثم أومأ برأسه مؤكدًا: «ستخبركَ».

استوقفته «تُحبك» كأنه لم يسمع من الحديث غيرها، لَان قلبه كعجين الفخار قبل حرقه بالفرن، يحرص على وضع المسافات بينه وبينها، يكثر من بناء الحدود ومد السدود.

لا يقترب «طوفان» كثيرًا لئلا يحترق، يخشى إن مسته النار أن يصير قابلًا للكسر.

كلما همَّ بدخول غرفتها، ليتجاذب أطراف الحديث معها، شعر أنه وقع بين نارها وجنتها، جاذب يشده إليها، ومنفر يصرفه عنها، وما بين جذب وانصراف تمزَّق «طوفان» كثيرًا.

لم يغفل من حديث «أبو الأحناش» كلمة «عمها»، كانا ولدَي خالة بالدم، لكنهما أخوان بالعُرف، والعُرف يغلب الدم أحيانًا، تلك هي الحقيقة المجردة التي لا يغفلها أحد، الحقيقية التي لطالما عاش واكتوى بها، للتقاليد بالواحة سطوة طاغية، تسحق كل من يقف في مواجهتها.

أول ما قالته عندما فتحت بابها: «كنتُ أبحث عنكَ».

ولشد ما كان وقع كلماتها البريئة على قلبه عظيمًا، هو أيضًا يبحث عنها بين الوجوه عندما تغيب عن ناظريه لأيامٍ متتالية، يفتش عنها وسط الزرع، وفي الحظيرة، وبجانب الساقية، ولما لا يعثر عليها ينتابه القلق فيسأل إن كانت مريضة، تحب «سلام» الحياة النشطة، لا تسأم الزراعة وحلب الأبقار وقطف الثمار، لا شيء يمنعها عنهم إلا المرض الذي يشتد أحيانًا.

ران إليها يحاول استكشاف علتها، هل هو المرض؟.. أم سبب آخر مجهول؟.. أما زالت تفكر في «جمعان»؟ أحزينة على فقده؟ يعلم أنها ما رفضت الزواج به إلا لأنها أيقنت أنه لا يريدها، يعرفها أبية لا تقبل الدنية، ولشد ما أعجبه هذا فيها واجتذبه إليها.

- لم أجدك في المعصرة.. أريد أن أحدثك.. أغلق الباب يا عمي كي لا يسمعنا أحد.

أغلقه ببطء يساوره القلق، نظر إليها مستفهمًا فقالت بذراعين معقودتين فوق صدرها: «ماذا فعلتَ بـ «مندورة»؟ المرأة انقلب حالها.. لا تطيق أحدًا ولا حتى أنا».

اضطرب «طوفان» وسأل بتوتر لم تلحَظه: «وما شأنكِ بـ «مندورة»؟.. أين رأيتِها؟».

- ذهبتُ إلى دارها.. حاولت الصلح بينكما لكن المرأة كانت حادة وغاضبة.

- ومن طلب منكِ التدخل؟.. هذه أمور...

قاطعته تقول برتابة: «أمور الكبار التي لا شأن لي بها».

احتد «طوفان» وقال باضطراب: «لا تدسي أنفكِ في أموري يا «سلام».. لو أردتُ مساعدتكِ لطلبتها».

- أنتَ عمي.. عائلتي.. وأريد لكَ أن تكون سعيدًا.. كيف تريدني أن أراكَ تفسد حياتك وأقف بلا حيلة؟.. أنتَ لا تفعل ذلك حين أكون حزينة.. لا تقف بلا حيلة.. تفعل كل شيء كي تعيد إليَّ ابتسامتي.. والآن أنا أفعل المِثل معكَ.. هناك سر تخفيه عني.. تخفيه عنا.. أشعر بهذا.. أخبرني بمشكلتك فلربما أتمكن معكَ من حلها.

تملَّك منه الخوف كما لم يحدث يومًا، لا يسمح لعقله بمجرد تخيل ما يمكن أن يحدث إن علمَت بالحب الذي يُسره، ويخفيه مثل عورة يجب سترها.

لوهلة، نسي المحظور وراح يتأمل كلماتها الودود، لو كان لإنسان قدرة على إذابة أحزان الآخرين وهمومهم، فلن يكون لأحد مثل براعة «سلام».

بكلمات قليلة تخرجه من العزلة التي فرضها على نفسه، تمسح عن قلبه غبار الغم، وتعيده راضيًا مشرقًا. لا يُشرق إلا معها، كأن بستانًا يتفتح في صدره، بذرَت هي بذوره، وسقته من عذوبتها، حتى استطال الزرع، وطرح الثمر.

لكن في اللحظة التي قطف فيها الثمر ليأكل، تذكر أنها ثمرة محرمة، في عُرف الواحة وتقاليدها. قال مؤكدًا بشكل يثير الشكوك ولا ينفيها: «لا توجد لدي أسرار».

- أتعرف؟ بتُّ الآن واثقة أنك بحاجة إليَّ أكثر من أي وقت مضى.

زلزلت كلماتها قلبه، ولم يكن بحاجة إلى شيء أكثر من حاجته إليها، لا كابنة أخ، بل كحبيبة، وهذا في عُرف الممكنات غير مرصود.

أبدَت تصميمًا لا يتزحزح، وبنبرتها العذبة استرسلَت: «يومًا ما.. سأعرف».

***

لم يصل بعد إلى منتصف النفق، راكم الحجارة عند المدخل بعدما حملها على صدره واحدة تلو الأخرى.

يتوقف «مطر» عن حمل الصخور ودحرجتها ما إن يقرصه الجوع أو يهده التعب.

يخرج من النفق، يستظل بشجرة بندق سامقة على بُعد أمتار قليلة، يتساقط طرحها بين كفيه، يأكله مستلذًا بمذاقه، فليس في الواحة شجر بندق إلا عند مدخل النفق.

لأيام لم يدخل جوفه إلا البندق، والماء الذي يحمله، ينام مستظلًّا بالأوراق الوارفة، يسقط طويلًا بين براثن اللاوعي.

متخذًا من ذراعه وسادة، ومن جوال الخيش لحافًا لا يقيه برد الصحراء القارس.

كاد اليأس أن يطرق صدره لما طالت المهمة، وتضاعف الوقت الذي تمضيه «سراب» داخل الجبل، هل تظن الآن أنها وحيدة؟ لا أحد قادم لإنقاذها؟ لأشد ما آلمه هذا وأحزنه.

خلع عن رأسه طاقية الصوف الرمادية، مسح فوقها بحنان شديد، ومن طرف العقدة الأخيرة قطع الخيط بأسنانه، ثم اجتذبه ببطء، يفكه غرزة غرزة.

كوَّم الخيط أسفل قدميه، وأخذ يلفه بعناية فائقة في شكل كرة صغيرة.

قطع بأسنانه جزءًا من الخيط بطول كفه، وبينما كان يؤدي المهمة، طحن حبات من البندق ونثرها فوق الرمال أسفل الشجرة. حطت يمامة تأكل من فتات البندق، فأمسكها «مطر» بين راحتيه، تحسس ريشها، وربت على عنقها وبطنها، قربها من فمه مقبلًا، ثم لف الخيط حول ساق واحدة.

همس للطير في أذنه، يرجوه أن يُحلِّق ما شاء له التحليق، ثم يحط فوق نافذتها، يريها الخيط الرمادي الملتف حول ساقه اليمنى.

عندها ستعرف أنها ليست وحيدة، وأن من خلفها رجلًا يقطع الطريق المفروش بالرمال الساخنة، ويحمل الصخور فوق صدره وفي كفه إلى أن نزف كلاهما وتقرَّح، رجل لم ينسَها يومًا، يحفر وحده نفقًا طويلًا لأجلها.

استحلف الطير برب البرية أن يؤنس وحشَتها، يشدو لها بهديله الذي تحبه، ولا يفارق نافذتها سريعًا، يتباطأ عندها كما لو كان على مشارف الجنة.

بين يديها سيجد الخير كله، ستحمل له الزاد في يُمناها، وتكور يُسراها لتكون قربة ماء لأجله، يشرب منه ويرتوي.

عندها لا يشقى مخلوق أبدًا.

أمسك «مطر» بالطير يمرر أنامله فوق ظهره المستوي، يوصيه ألا يخافها، يحط فوق كتفيها ويتنقل بينهما، معانقًا إياها لأجله.

يشدو لها بهديل يُسليها، ويقص عليها حكاية فارس لا يشبه غيره من الفرسان؛ لا يملك حصانًا، ولا مدينة ببطن الجبل، ولا يجيد القفز فوق الهاوية، ولا يفرد ظهره على استقامته، لكن لديه قلبًا كبيرًا يسعها.

استحلف الطير برب الأرباب أن يخبرها أنه لم يصدق ما يُشاع عنها، ولو اجتمع الناس على بُغضها ستظل عنده أروع امرأة في الدنيا.

مسح وجه الطير وأسفله، ثم إلى السماء أرسله.

***

تُرك «قوس» في الزنزانة بلا طعام ولا شراب إلى أن ظهر «كسار» أمامه.

كان الشاغل الوحيد له طوال ساعات الحبس المنفرد، هو «صدف» وحالها، بعد أن فقدت أباها ليلة زواجهما.

لم يعرف بخبر انقضاء أجَل الرجل الذي يكن له الكثير من الاحترام والتوقير، إلا بعد أن وقع أسيرًا في قبضة «كسار»، لحظتها فجع بالخبر.

ظهر «كسار» أخيرًا أمام باب زنزانته، دون أن يكلف نفسه عناء غلقه، في إشارة واضحة لكون «قوس» لا يمثل تهديدًا يُذكَر، لا يخشى حتى سعيه للفرار.

وبالنظر إلى قوة كل منهما، الجسدية منها والعُدة المصاحبة؛ يرى الرائي رجلًا قويًّا مدربًا ومزودًا بأسلحة مختلفة، في مواجهة أعزل ليس ذا قوة.

تقدم «كسار» من «قوس» وسدد له لكمة مفاجئة، ألصقت ظهره بالجدار، وأحدثَت بوجهه جرحًا نازفًا، كان يؤمن أن الجولة محسومة لصالحه، وكان هذا وقوده الذي أجج القوة الكافية ليأمره: «ستُطلق «صدف».. ستعيد إليَّ زوجتي».

مسح «قوس» الدماء النازفة بكم جلبابه الذي اتسخ، لم يتقدم ليحسم الأمر بقوة جسدية يعرف جيدًا أنه لا يمتلكها، كانت قوته في موضع آخر غير قابل

للكسر، أو الضرب، أو التنكيل، كانت هناك في منتصف رأسه؛ يفكر، ويقرر، ويصمم، ويحسم: «هل تعرف قاع الهاوية يا «كسار»؟.. هل رأيتَ عمقه؟.. ما زال قريبًا كفاية مقارنة بالشيء الذي تطلبه».

جمع «كسار» غضبه في قبضته، سدد له لكمة أخرى ثم أخذ يحاسبه: «هل تظن أنني لن أقتلك؟.. أستطيع ذبحك كالماشية.. سأستعيد «صدف».. لا يهمني إن أخذتها بِكرًا أم أرملة».

لم يرفع يده ليمسح موضع الضربة الثانية، فتح «قوس» ذراعيه على اتساعهما، وقال بكل ما يملك من عزيمة لا غالب لها: «هذا ما أقوله.. عليكَ أولًا المرور عبر جثتي».

حشد «كسار» الغضب في قبضته من جديد، استل خنجرًا من طيات ملابسه، إلا أنه لم يبادر بالهجوم على «قوس»، ظل واقفًا يحدوه الاضطراب، والتردد، وشيء من الجُبن لازمه، يُفكر في العواقب إن أقدم على جز عنق غريمه بضربة واحدة.

لم يعتد الخسارة، ولم تكن في قاموسه كلمة الرفض بمفرداتها، الجميع يخافون بطشه، وعنفوانه، فما بال هذا الـ «قوس» الذي لا يملك مقوِّمات تنافسية كافية، يقف أمامه ندًّا له؟ بمن يثق؟ ما سر قوته؟

ولم تكن قوة «قوس» بسر إلا على من لا يفهم كيف يموت المرء في سبيل كرامته، وكرامة الرجل تحفظها كلمته، وكلمته التي أعطاها للرجل الذي يوقره كانت كعهد مقدس موثَّق في عُرف الرجال، الحقيقيين منهم على الأقل.

عندما أخذ الأمانة، وقبل بها، كان يدرك أن الشيء الوحيد الذي سيحمله على تركها هو الموت، والموت وحده.

وبينما «كسار» تظهر عليه أمارات القلق والحيرة، وقف هو ثابتًا، واثقًا أن مهما كانت النهاية سيكون فيها رابحًا، إذ لم يتخلَّ بإرادته.

أطلق «كسار» زمجرة غاضبة، كضبع يستعد للانقضاض على فريسته، وفي اللحظة التالية كان وجهه يصطدم بقوة في قضبان الزنزانة ويُحدث صوت فرقعة مكتومًا، لأنفه الذي انكسر!

لأول وهلة خيل له أن «قوس» قد اكتسب قوة جبارة بِفعل سحر عجيب، لكن عندما فتح عينيه بعد الضربة المؤلمة، وبينما يتحسس الدماء النازفة

من منخريه بقوة شلال وسرعته، اتسعت حدقتاه إذ أبصر «رعد» الذي يمسك بعنقه قائلًا: «أنتَ أغبى مِن أن تفهم حدودك يا «كسار»».

وقبل أن يعي «كسار» المفاجأة، بدَر عن أنفه صوت تهشيم بترددٍ أشد من الأول، بعدما ضرب «رعد» وجهه بالقضبان ثانية، أطلق على إثرها صرخة عالية، فيما «رعد» يستطرد: «لكنني أعرف كيف أحسِّن من مهارة الأغبياء أمثالك».

لم تكن كلماته واضحة، إذ شوه أنفه المكسور مخارج حروفه حين قال: «أنا.. لم أقصد.. سيدي.. إنه...».

لم تُتَح له فرصة كافية لحشد جملة مفهومة؛ قذفه «رعد» خارج الزنزانة بركلة قوية أسقطته على وجهه، ساعده اثنان من الحراس على الوقوف، ثم اختفيا به خارج الممر.

التفت «رعد» إلى صديق طفولته، يُخرج منديلًا قماشيًّا مطرزة أطرافه بالحرير، يضعه فوق الدماء النازفة من شفتيه، يُبعد «قوس» وجهه عن المنديل، ثم يقول جامد الوجه، محتد النبرات: «هذا هو نوع الرجال الذي تحيط به نفسك.. لا فارق بينكَ وبينهم».

سارع «رعد» يقول بحدة مماثلة: «لم يحدث هذا بعلمي».

- يحدث الكثير دون علمك.

- سينال عقابًا رادعًا.

- وأنتَ من يعاقبكَ؟

- ما زلتَ ضيق الأفق يا «قوس».

- ما زلتَ جامحًا يا «رعد».

اكتفى «قوس» بهذا العتاب المقتضب، ثم قال بعجالة: «أريد العودة إلى الواحة في الحال.. أهل بيتي في انتظاري».

- أهل بيتك هنا في الجبل.

اندهش «قوس» وقد ألجمت لسانه المفاجأة، وفي اللحظة التالية أمسك بتلابيب «رعد» يسأله: «ما شأنكَ بزوجتي يا «رعد»؟».

- لو سألني غيرك مثل هذا لعرفتُ جيدًا ما أفعل به.

أزاح قبضتيه بحزم قائلًا: «الساحرة دعتها.. ولبَّت برغبتها.. لم يرغمها أحد».

لم يصدق «قوس» حضور «صدف» إلى الجبل بإرادتها، وفي الوقت ذاته يعرف أن «رعد» لن يكذب عليه في أمر كهذا. كان طوال الطريق إلى غرفة الساحرة مضطرب الحال، مشتت التفكير، لا يعرف بأي وسيلة سيقَت «صدف» إلى وكر الساحرة. هي أمها، لكنه يدرك كذلك أنهما نقيضان كالنهار والليل، لا يجمعهما زمان ولا مكان.

عندما انفتح باب القاعة أرسل نظراته تفتش عنها في المكان، ما إن رآها حتى أقبل عليها بتوتر ملحوظ، ينقل نظره من «رعد» إلى الساحرة التي هبت واقفة من فوق كرسي عظيم من الذهب، وتوجهت صوب «رعد» مباشرة تُبدي ترحيبًا ممزوجًا بالدهشة.

يسألها «رعد» بصرامة دون أن يحيد عنها النظر: «هل كان عندكِ علم بما فعله «كسار»؟».

بينما سألت الساحرة باضطراب، فركت أناملها بجانبي ردائها: ««كسار»؟.. لا أعرف عنه شيئًا.. ماذا فعل هذا الأحمق؟».

أومأ لها «رعد» في إشارة حازمة لتأجيل الحديث لاحقًا.

لم يتابع «قوس» حديثهما إذ كان منشغلًا بــ «صدف»، تحط نظراته فوق قسماتها يفتش في ثناياها عن أثر بكاء، أو إساءة معاملة، أو كليهما.

لم يجد الثاني لكنه عثر على الأول، كانت تبكي بشدة، ربما لساعات دون أن تنقطع مسرى دمعاتها.

- هل أنتِ بخير؟

بادرها بالسؤال، فأجابته بهزة هزيلة من رأسها، أمسك بذراعها يبتعد بها إلى ركن قصي. جفلت «صدف» إذ كانت اللمسة الأولى بينهما، أمسك بها باعتيادية كأنه يفعل هذا منذ الأزل، ترتعد ذراعها أسفل أنامله برعدة خفيفة أسرَت فيها شعورًا غامرًا باللذة. شعرت أن الكون قد توقف لثانية سقطت سهوًا من عمر الزمن، كون ليس فيه إلا هي والرجل الذي تحب.

تحط نظراتها فوق وجهه بشوق كاد يفضح شعورها، ودَّت لو تسأله لماذا تأخر؟ وتخبره أنها لم تتذمر بل كانت مستعدة لأن تنتظره عمرًا بأكمله.

كان قريبًا أكثر من أي وقت مضى، إلى الحد الذي مكَّنها من التقاط رائحة عطره، والاحتفاظ به في صندوق خاص بذاكرتها. كان لهذا القرب وقع آسر، جعلها تغض عنه الطرف سريعًا، تجاهد كي يسكن قلبها ويكف عن القفز بين ضلوعها.

وقف أمامها حائلًا بينها وبين أعين «رعد» والساحرة، يكرر عليها السؤال هامسًا باهتمام أعظم، فتجيب بالطريقة ذاتها، كأنها تخشى إن تحدثت تُنفي كلماتها ما تؤيده بحركتها الصامتة.

وعندما استجمعت شجاعتها لتتحدث أخيرًا، قالت ما فجر ينابيع الدهشة بداخله.

بينما ازدردت ريقها، وأبعدت وجهها، وحادت نظراتها، قالت بخفوت: «أريد الطلاق!».

دُنيازاد

قلب المرء كنزه
وأثمن ما يملك عنده
صندوق من الأماني الشفافة
به الوعود والأحلام الشوَّافة
مفتاح وحيد له
والكنز مرهون به
ومفتاح القلب بصمته
والبصمة خُلقه وأصالته
وطبع أنيق حصيف نبيل
ليس له في الخداع من سبيل
فإن أردتَ أن تُحَب
ولدروب الوحدة أن تُسَد
تَخلَّق وتأنَّق بالأدب
وكُن أهلًا لمن تُحِب!

الليلة الثانية والثلاثون

في أيهما يسكن الهناء؛ الحياة مع من تُحبه، أم العيش مع من يُحبُّك؟

(1)

- أريد الطلاق!

حلَّ الصمت على الغرفة الفسيحة بعدما صاغت «صدف» قرارها المفاجئ.

لم تخرج كلماتها همسًا بشكل كافٍ، إذ تمكن الجميع من سماعها، أطرق «رعد» صامتًا دون أن يبدي ردة فعل، إلى أن استأذنت «فضة» للدخول. ثم اقتربت منه هامسة باضطراب بليغ: «الفتاة مفقودة».

فانطلق على إثر الخبر مغادرًا في عجالة. بينما الساحرة تبتسم في رضا، ترمق «صدف» بنظراتٍ حاسمة، تُذكرها بحديثهما الذي لم يشهد عليه أحد.

جفلت «صدف» إثر النظرات المسترسلة لساحرة الجبل، لطالما أخافتها تلكما العينين المكحلتين؛ تخاف أمها كما تخاف الظلام، والضباع، والأفاعي السامة التي تتخفى وسط الرمال.

ما تزال تحمل من ذكريات الطفولة ما يؤرق منامها، ويُسلسلها بكوابيس مفزعة. لطالما كانت أمها تحب ممارسة السحر وتجتهد في تعلمه، تؤمن أنه الشيء الوحيد الذي سيمنحها سلطة مُطلقة.

كانت تعد أعمالًا من طلاسم غريبة، تبيعها سرًّا لرجل يريد الإطاحة بخصمه، أو امرأة تُضمر فساد النية لأختها. تصنع أحجبة خاصة بتقريب المتحابين، وإعادة المفقودين، ورواج التجارة، والإفساد بين الزوجين.

يهابها أهلها، وجيرانها، وزوجها الذي تبيت معه في فراش واحد.

تتأثر «صدف» الصغيرة بتلك الأجواء المسمومة، فتنغلق على نفسها أكثر، كانت تشهد على صلوات أمها آناء الليل وأطراف النهار، التي تتعبد فيها إلى مردَة الجان، تذبح لأجلهم، وتمتثل لأمرهم.

لم يستطع أبوها أن يفعل شيئًا للمرأة التي تسلطَت، التي تستطيع بإشارة من إصبعها أن تجعله يتلوى من الأذى.

كان أضعف من الوقوف في وجه زوجة قوية تمردت، وعجز عن الاستعانة بأحد، فأهل الواحة يخافونها بقدر ما يبجلونها.

وبدلًا من تشذيب العشب الضار، سمحوا له أن ينمو ويرتع فوق أرضهم. سلسلهم الخوف، نحرَ أعناقهم، وكمم أفواههم، أصبح الخوف بوصلة حياتهم، يفكرون ويقررون ويتحركون تبعًا له.

إلا امرأة واحدة لم يتمكن مردَة الخوف من استئناسها، تتذكر «صدف» الفتاة التائهة التي زارت واحتهم قبل ثلاث سنوات ونصف.

تخفي وجهها ببرقع من خيوط مضفرة على شكل شبكة ضيقة الفتحات. لم تقترب «صدف» من الفتاة ولم تتحدث معها، لكن بلغ سمعها ذات يوم أن الفتاة التي لا تعرف اسمها، وقفت بين الناس بالساحة تُنكر عليهم أفعالهم.

شرعت تحذرهم من غضب الجبار إن أراد يومًا جعل عاليهم سافلهم. تعظِّم القدير في قلوبهم ليخشوه أكثر مما يخشون الساحرات والعرافات، أرادت أن توقظ في الناس عقولهم، وتُبصرهم بالخدعة التي تُمارَس عليهم.

تخبرهم أن السحر إنما وُجد ليصرفهم عن وجهتهم، وأن الله وحده هو الذي ينفع ويضر، وأن السحر يُدفَع بالإيمان، وأن الإيمان لا يسكن القلوب الضعيفة، وأن القناعات التي توارثوها تحتاج إلى تنقية.

لم يعجب أهل الواحة بكلامها، اتهموها بالنية المبيتة لتفتيت واحتهم المتماسكة، والمنغلقة على نفسها.

يخبرونها أن نساء الواحة ربات السحر ومستشرفات للمستقبل، تلك قوة متوارثة. إذ تقول الأسطورة إن أول من سكن أرضهم كانت امرأة تجيد فنون السحر، شقت الأرض فأخرجت زرعها، وأطلقت رمحًا صوب السماء فأنزلت ماءها.

ثم اعتكفت وسط الصحراء وما بها من خضرة سنوات طويلة إلى أن عثر على الواحة رجل تائه، فتزوج بها وأنجب الأولاد والبنات، ومن نسلها جاؤوا إلى الحياة.

يؤمن أهل الواحة أنهم بحاجة إلى ساحرة تحفظ تماسك أرضهم وتمنع زوالهم، وأنهم أعجز من أن يحموا أنفسهم بإيمانهم، وأن الله في سمائه يُتعبَّد إليه بالجسد، أما القلب فيتحرك حسب قِبلة من يتسلط عليهم ببطشه وقوته.

فترد عليهم ذات البُرقع بأن السحر والسلاح إنما هما وجهان لعملة واحدة؛ كلاهما هدفه الإخضاع، والتجهيل، والتعمية، وكلاهما لا ينزعه إلا القلوب المؤمنة.

أخبرتهم أن الله خلق الحياة كي يتفكروا فيها، وأنزل أوامره كي يأتمروا بها، وأن غاية الخلق هي التعبد له كما يُحب أن يُتعبَّد به، وأن السحر من مُسببات غضبه وبطشه.

يومها عرفت «صدف» أن أهل الواحة سدوا عنها آذانهم، أخذوا يرشقونها بالحجارة إلى أن نزفت فوق الرمال دماءها.

ومن بعدها لم تخرج من الدار التي استضافها فيها أهلها، ولم تُشاهَد وهي تتحدث إلى أحد من أهل الواحة.

في تلك الجولة فازت الساحرة، استطاعت أن تخفي عن الجميع حقيقة القوة التي تمتلكها، التي هي هزيلة بمقاييس السحرة والجان المسخرين لأجلهم. لا تملك ساحرة الجبل قدرة مستثناة كما تدعي، كان زادها في هذا الطريق هو قدرتها الجبارة على إخافة الآخرين وإخضاعهم.

تركزت قوتها في شخصيتها لا في قدراتها.

ساحرة الجبل امرأة تجيد التلاعب بالناس، استعبدتهم بالخوف، والخوف وحده. وكما استعبدت أهل الواحة بالخوف، أخضعت ابنتها بالسلاح نفسه.

المرأة التي يتحول طموحها إلى جشع لا تتوقف خططها عند نفسها، ترى أبناءها امتدادًا لكل الإمكانيات التي تحرص على الظفر بها.

رأت الساحرة في «صدف» فرصة عظيمة لكسب أرض جديدة، والحصول على قوة أكبر من التي تملكها.

لم تعد قدراتها الهزيلة تنطلي على الكثير من سكان الجبل، باتوا يستشعرون خدعة ممنهجة، وادعاءات أكثر من أفعال محققة، كانت تفقد سطوتها شيئًا فشيئًا ولم تكن لتسمح أن تخسر عرشها.

رأت أن تقريب «كسار» من شأنه أن يزيد قوتها، ويدعم مكانتها في الجبل، لهذا أرادت تزويجه لـ «صدف».

وعندما تحدثت إلى ابنتها، رأت في عينها وحديث قلبها ميلًا شديدًا للرجل الذي تزوجت به، فعرفت كيف تعزف على هذا الوتر لحنًا مروعًا.

- لا تريدين أن يصيبه الأذى، أليس كذلك؟

هذا ما قالته الساحرة، في رسالة تهديد مبطنة، أذعنت لها «صدف» خانعة. فُطمَت «صدف» من صدر أمها مبكرًا، بيد أنها لم تُفطَم بعد من سيطرتها.

لا تزال تجهل الحد الفاصل بين طاعة أمها، والحفاظ على حقوقها. كان الخوف على «قوس» هو دافعها الأكبر الذي جعلها تقول له: أريد الطلاق.

كان وقع كل حرف على قلبها كحد السكين. رنا لها «قوس» طويلًا يحاول قراءتها، هي بالنسبة إليه كتاب جديد لم يتصفحه قبلًا، ولا يُحسن استشراف معانيه، لم يستطع تحديد ما إن كانت جادة في رغبتها، أم ثمة دافع خفي جعلها تطلب الانفصال عنه.

استرق «قوس» النظر إلى الساحرة بطرف عينه، ثم أومأ لـ «صدف» برأسه قائلًا: «سنتحدث في الدار».

تعلقت نظرات «صدف» المضطربة بوجه أمها كأنها تسألها بماذا عليها أن تجيب؟ وقبل أن تلهمها الجواب، استطرد «قوس» مديرًا إياها صوب الباب: «فلنذهب من هنا».

- ابنتي لا تريدك.. إلى أين تذهب بها؟

اندفعت الساحرة بحدة، تقف قبالة «قوس» حانقة، لا لأنه يدفع ابنتها في الاتجاه المعاكس لرغبتها فحسب، بل لأنه لا يوليها شطرًا من اهتمامه، صب كل تركيزه على «صدف»، كأن هذه الفتاة الصغيرة المثيرة للشفقة تملك زمام أمورها.

استقام «قوس» بجسده وعدل وقفته كي يتموضع تمامًا في مواجهتها. تأملته الساحرة بعين السخط، كان أبعد ما يكون عن الرجل الذي تحب لابنتها أن تتزوجه.

لا يملك أي مواصفات جسدية مميزة، لا مُلك، ولا وجاهة، ولا نسَب. تعرف أنه يتيم تربى في بيوت الواحة، كان ابنًا وحيدًا لامرأة باهتة لا ذِكر لها، وأب كان يعمل في تنظيف الحظائر وتحميم الماشية.

شعرت في تلك اللحظة أنها تود لو كانت تملك قدرة إحياء زوجها، فقط كي تقتله بيديها؛ أعطى ابنتها لهذا النكرة وفضله على «كسار» الذي تعرفه حجارة الجبل.

لطالما كان زوجها يرى في «صدف» دُرة نفيسة، تستحق من يقدرها ويصونها، فماذا رأى في هذا الـ «قوس» كي يمنحها له؟

هذا ما فتئ عقلها يتساءل بشأنه. مد «قوس» يُسراه تجاه «صدف» يطبق على رسغها، في إشارة واضحة لكونها في حمايته. يقول لأمها: «هذا أمر بيني وبين زوجتي».

- أسترغمها على البقاء معك وهي لا تريدك؟

- إذا قررنا الانفصال ستكونين أول من يعرف.

- ابنتي سبق أن قررَت

- مثلما الزواج قرار مشترك.. الطلاق كذلك قرار مشترك.

عقدت الساحرة ذراعيها تكظم غيظًا يشق قسماتها ويطل برأسه، قالت مسددة في وجهه نظرات قوية مخيفة: «بما أنني أم زوجتك لوقت قصير دعني أقدم لكَ نصيحة ثمينة».

مالت برأسها قليلًا ثم استطردت بنبرة موحية: «من يمشون عكس العواصف الرملية لا يعيشون طويلًا، تغطيهم ويغرقون أسفلها».

اضطربت «صدف» كثيرًا، تنقل نظراتها بينهما، تفهم تهديد أمها المبطن، وعلى إثره يكاد قلبها أن ينخلع. أطرق «قوس» مبتسمًا بسخرية، ثم رفع رأسه يرمقها قائلًا: «لا يهمني إن عشتُ طويلًا.. ما يهمني هو أن أعيش بشرف».

أكل الحنق قلبها، وسدد طعنة نافذة إلى غرورها، وقفت متململة بعصبية واضحة، ناقمة على الرجل الذي جرؤ على مجابهتها، رجل ضعيف لا يملك قوة تُذكَر، فما باله يتحدث وكأنه ملك متوج؟ ترفع الساحرة كفها تقول بحدة: «ما بينكما زواج بلا معنى، أرغمها عليه أبوها.. ابنتي ستظل في ضيافتي إلى أن تنفذ طلبها».

تحدثت الساحرة بحدة لم تستطع كبحها، وكانت قليلًا ما يتمكن شيء من خلخلة ثباتها الانفعالي. تطلعت إلى «صدف» تحثها على الإقرار بما قالته للتو. بينما توترت «صدف» توجهت إلى «قوس» بحديثها المضطرب: «أريد البقاء في الجبل لبعض الوقت».

ولم يكن شيء أحب إليها من أن تغادر الجارة السوداء، لكنها لم تجرؤ على الإفصاح عن رغبتها؛ تشعر أحيانًا أنها خُلقَت بلا صوت، عندما نادى منادٍ لتوزيع الأصوات على الخلائق كانت هي غائبة.

كل ما أراده «قوس» في اللحظة الراهنة هو الحديث معها بمعزل عن الساحرة، لم يحب لحديث خاص بينهما أن يدور أمامها. هز رأسه وتنهد مستسلمًا: «لكِ ما تريدين».

جلست الساحرة فوق كرسيها المذهب بعد خروجهما، وبينما تتلوى غيظًا راحت تفكر في «كسار» وحماقته.

لم يعد رجلًا مرشحًا جيدًا للزواج بابنتها، أثار نقمة الممسوس عليه، وخسر بغبائه فرصته.

أسندت ذقنها بقبضتها، وراحت أفكارها تطوف حول الرجل الوحيد الذي سيثبت أقدامها داخل الجبل، ويمنحها القوة المطلقة، والسلطة النافذة.

- نعم، إنه الرجل المناسب لابنتي.

تطوف في رأسها صورة الممسوس فوق صهوة حصانه الأسود!

***

قبل أن يلتقي «قوس» الساحرة، استضافه «رعد» قليلًا في غرفته، تركه ينظف جرح شفتيه إثر لكمة «كسار»، ثم منحه عطرًا وقطعة من ملابسه.

لم يبدُ عليه أثر ما تعرض له داخل الزنزانة، لكن عين «صدف» لم تغفل عن الكدمة الناتئة، والشق الصغير فوق شفتيه.

ما إن أدخلهما الحارس إلى الغرفة التي كانت الساحرة قد أمرت بإعدادها لأجلها، حتى ودت لو تسأله عن سبب الكدمة، لولا أنها خافت أن يفطن إلى اهتمامها به، وقلقها عليه.

أغلق «قوس» باب الغرفة، وجذب المزلاج، رن صوته في الأرجاء يُنبهها إلى أن «قوس» الآن يقف معها في غرفة واحدة، مغلقة عليهما.

- هل ستبقى هنا؟

سألته باضطراب ملحوظ، ولوهلة نسيت أنه زوجها، كأن ما تمر به هو حلم تراه من بعيد، لامرأة أخرى غيرها. هز كتفيه يجيبها بهدوء: «بالطبع».

الغرفة التي كانت تراها فسيحة في أثناء دخولها، شعرت الآن أنها ضيقة جدًّا عليهما. لا تختلف مساحتها عن الدكان الذي كانت تتحدث فيه إلى «قوس» ما إن تقتضي الحاجة، بيد أن باب الدكان لم يُغلق عليهما قط كالغرفة التي ما إن غُلِق بابها حتى اختزل منها مساحة واسعة.

لم يكن «قوس» في مزاج مناسب للحديث عن شيء سوى ما دار في قاعة الساحرة. ما إن أغلق الباب والتفت إليها حتى بادرها باهتمام مستفهمًا: «لماذا قلتِ ما قلتِ؟».

الخوف الذي كان يحركها في وجود أمها، جعلها مشتتة في غيابها، لم تستطع إعادة طلبها على سمعه، شعرت أنها أكثر هشاشة من أن تفعل. يخنقها العجز وقلة الحيلة، تود لو تكون بقوة الفتاة ذات البرقع التي وقفت وسط الساحة تُعدد على الناس أخطاءهم، تقول فقط ما تؤمن به، لا ما يريد الآخر أن يسمعه، لا يحركها الخوف، بل الشجاعة.

استغرقها التفكير في محاولة لصياغة عبارات تؤكد رغبتها الكاذبة في الطلاق. قطعت تركيزها تنهيدة أطلقها «قوس» قائلًا: «أعرف أنكِ تخافينها».

لم تكن تخافها فحسب، بل تموت فزعًا كلما فكرت بما تستطيع أمها أن تفعله، تعرف كم هي قادرة على الأذى، والتنكيل بخصومها؛ ولم تكن لتتحمل أن يمَس الرجل الواقف أمامها أي ضرر، ليس بسببها.

- أنتِ مخطئة إن ظننتِ أنها تستطيع إجبارنا على شيء.. أنا لا أخافها.

لم يسبق لها أن قابلت من يستطيع عصيان الساحرة، رنَت إليه مدهوشة، ومبهورة، وحائرة. كلماته واثقة مطمئنة، إلا أن القلب الذي سكنه الخوف وألفه لم يستطع أن يفلت نفسه من الشعور الذي استشرى بأركانه.

- أعرف أنها آذتكِ كثيرًا.. كانت جافة وبعيدة وقاسية.. لم تُشعركِ بأمومتها.. حدثني أبوكِ عنها.

على ذِكر أبيها شعرت بالعبرات تحرق عينيها، فجرت الكلمة بداخلها ينابيع الألم، بكت مثلما فعلت في اللحظات الأولى لموته، كأنه مات للتو.

هذه المرة، قاسمها «قوس» الحزن نفسه، كمن يقتسم مع آخر رغيفًا جافًّا، وقف بعينين دامعتين تأثرًا على الرجل الذي كان يحبه ويقدره.

- أفتقده بدوري.. كان رجلًا طيبًا، أحب أن أفكر أنه في مكانٍ أفضل.

تركها تُفرغ كل ما بداخلها من أسى، شكرت له أن قاسمها حزنًا صادقًا وألمًا حقيقيًّا لا على سبيل الواجب كما رأت الناس يفعلون في العزاء. ما إن سكنت أخيرًا حتى مسحت وجهها بأطراف وشاحها وقالت: «يجب أن تعود إلى الواحة.. لا حاجة إلى بقائك هنا».

- وأنتِ؟

هزت كتفيها، تصرف وجهها عنه لتخفي ما علق به من ادعاءات زائفة. تقول ما تدربت عليه في غرفة الساحرة: «سأبقى هنا.. إلى.. إلى أن يتم الطلاق.. الساحرة.. أمي.. على حق.. كان زواجًا بلا معنى».

تعرف أن هذه الكلمات ستغضبه، سيدرك أنه قدم تضحيته لامرأة لا تستحق، لم تشكر له تخليصها من «كسَّار» بل تخبره أن جهده كان بلا معنى.

سيغضب، ويترك الغرفة شاعرًا بالسخط، ثم يفكر مليًّا ويعود ملبيًا رغبتها، وممتثلًا لأوامر الساحرة. ما دار بخلدها قط أن يقول حازمًا: «أنتِ أمانتي.. وأنا رجل لا يتخلى عما ائتُمن عليه».

لو قرأ على سمعها ألف قصيدة حب، لما كان لها الوقع المزلزل الذي أحدثته كلمة «أمانتي». الكلمات التي نطقها بشكل عفوي، وقعت على قلبها كعبارات غزل بِكر لم تُقَل لغيرها. ازدردت ريقها تقول ما لا تعنيه: «كان زواجًا مدبرًا لهدف.. والآن زال الخطر.. لستَ مضطرًّا إلى البقاء».

ولم تكن تود شيئًا أكثر من أن يبقى إلى جوارها، عُمرًا أو عمرين إن استطاعت أن تضاعف عمرها. تجعد جبينه وبدا منزعجًا، ومرت سحابة سوداء أمام عينيه.

- الزواج رابط مقدس بين رجل وامرأة.. عندما قبلتُ به لم أفكر أنه وضع مؤقت.. وأتمنى أنكِ أيضًا لم تفكري بذلك.. الزواج جِد لا يقبل المزاح.

وقد كانت بالفعل تنظر إلى زواجها كوضع مؤقت، ينتهي عند انتهاء الأبدية. استطرد: «إذا أردنا لهذا أن ينجح.. علينا أن نتفق على ثلاث قواعد.. أولها لا أسرار بيننا، إذا دخل سر بين اثنين أوقع بينهما.. وثانيها أن ما يدور في الغرفة المغلقة علينا يبقى فيها ولا يخرج منها».

ثم أطلق زفيرًا متباطئًا يردف مؤكدًا: «وثالثها عليكِ أن تثقي بي.. أعرف أنكِ لا تصدقين لكن.. أستطيع أن أحميكِ.. على الأقل أستطيع أن أموت وأنا أحاول».

في الوقت الذي ظنت فيه استحالة أن ينبض قلبها بسرعة أكبر، كان يتحرك بجنون قفزًا في المكان. لم يسبق لأحد أن أشعرها أنها مميزة، تستحق أن يُحارَب لأجلها، بل والموت في سبيل حمايتها.

- أنتِ أمانتي.. لا تنسي هذا أبدًا.

ولم يكن بشيء يُنسى، بل يُحتفَظ به في صندوق خاص بذاكرتها، حتى لو لم يُقدر لهما الاستمرار معًا، لن تنسى ما قاله، ستبقى ممتنة له ما دام في صدرها أنفاس تتردد.

توجه إلى الباب وشكرت الله أنه فعل، إذ كان قلبها على وشك أن يفضح أمرها. قال وهو يُمرر نظراته فوق وجهها الشاحب، وعينيها الذابلتين: «لا بُد أنكِ جائعة، سأحضر طعامًا وأعود.. أغلقي الباب جيدًا من الداخل.. عندما تسمعين ثلاث نقرات متتالية.. تعرفين أنني الطارق».

الشفرة الأولى بينهما، أول كلمة في قاموس لغة خاصة تدور داخل الغرف المغلقة. بعد انصرافه افتر ثغرها عن ابتسامة خجول عذبة، الحماس الذي شعرت به في تلك اللحظة، لم يكن كأي شعور تذوقته قبلًا.

كأن الهواء فتح لنفسه ممرًّا فسيحًا في صدرها، بعد أن كانت قد نسيت كيف تتنفس. ربما للمرة الأولى منذ زمن طويل تنفست «صدف» بعمق شديد.

لم توافق على بقائه، لكنها كذلك لم تعترض، ظنت أنها بذلك تستطيع أن تقف على المساحة المحايدة بين ما يريده قلبها، وما تريده الساحرة.

ولم يبق إلا القليل كي تتعلم «صدف»، أن المساحات المحايدة مفروشة بالرمال المتحركة.

***

(2)

تاهت «سراب» وسط الممرات المتضافرة كشبكة العنكبوت.

عندما حادت عن الممر المؤدي إلى الغرفة التي تقيم فيها، كانت تعلم أن هذا ما سيحدث. ستجد نفسها وسط اللامكان، حيث لا أحد، أرادت أن تتوه عامدة، مثلما فعلت في الصحراء بالقرب من الجلف الكبير عندما هبت العاصفة الرملية.

هذه المرة لم يكن التيه بهدف البحث عن واحة مسحورة، إنما للتفتيش عن «سراب» الضائعة، والممزقة بين اليقين واللايقين.

«ذاكرة الجسد لا تخطئ».

هذا ما قالته «فضة» في المطبخ، للجسد ذاكرة كما للعقل ذاكرة، يحفظ كلاهما خارطة الأحداث والأصوات والروائح. للجسد ردات فعل غير ممنطقة أحيانًا، لكنها في النهاية مفسَّرة، قد تتشوه ذاكرة العقل وتتزيف، لكن ذاكرة الجسد أبدًا لا تكذب.

وهذا تحديدًا ما أثار فيها الهلع، ودفعها لتهرب من كل شيء حولها.

ودت لو تخلع كلتا الهويتين عن جسدها، «سراب» وذات البرقع مجهولة الاسم، ربما عندئذ قد تعثر على أخرى ثالثة تكون أقرب إليها من الأخريين.

أو لعلها خُلقت بلا هوية، كاسمها، سراب لا يتجسد أبدًا، امرأة كالهواء، لا لون لها، ولا طعم، ولا رائحة.

التشكيك في هويتها، وفي المرأة التي هي عليها، كنزع عضو من أعضائها، يطالبونها أن تتخلى عن «سراب» لتكون ذات البرقع.

هذا تمامًا كمن يأمرها بقطع ذراعها لتضع بدلًا منها عصا خشبية؛ شيء دخيل لا ينتمي إليها، لا هو من الخلايا، ولا هي من الخشب.

هبت ريح من إحدى الكوات العالية، وأطفأت الشعلة التي تحملها، عم الظلام يطوف من حولها، يمهد لها طريقًا غير مأمون، انتبهت لخديعته متأخرة.

سقطت من مرتفَع، وأطلقت صيحة جرَت في الممرات الخالية، لم تقع فوق صخرة بارزة أو أرض غير ممهدة، بل وسط ماء عميق غلَّفها وسحبها بداخله.

لم تكن سباحة ماهرة، هذا ما اكتشفته وهي تحاول الطفو فوق السطح، تضرب الماء بأطرافها بحركات غير محسوبة، ولا تؤدي إلا للمزيد من توريطها.

ولحسن حظها لم يكن عمق الماء كافيًا لإغراقها.

عندما وقفت بلغ سطحه أسفل عنقها بشبرٍ واحد، لم ترَ مصدرًا للضوء سوى فتحة صغيرة عالية، سكب فيها القمر أنهاره الفضية، التي بللت الظلام وتسربت إلى مسامه الدقيقة.

نظرت حولها تتأمل المكان على ضوء القمر، بدا أشبه بخزان تُجمَع فيه مياه المطر، عن طريق مجارير عالية تخترق الصخور لتصب بداخله.

وقفت وسط الخزان تصيح منادية، علَّ أحد الحراس يسمع استغاثتها. ولما بُح صوتها توقفت عن محاولة استجلاب النجاة، لن يسمعها أحد في هذه الممرات الخالية.

اقتربت من الجدار الصخري تحاول التشبث في الصخور البارزة، لم تفلح في تسلقها إذ كانت الصخور القريبة من سطح الماء رطبة وزلقة وغير صالحة للتشبث.

حاولت، وفشلت، ثم حاولت وفشلت، إلى أن جرحت الصخور كفها وأسالت دمها الذي امتزج بماء المطر.

لا تعرف كم من الوقت مر عليها وهي على هذا الحال، تعبث بشعرها الريح التي تتسلل بمحاذاة أنهار الفضة.

تتابعت عليها الساعات بينما هي جائعة، باردة، ووحيدة.

إلى أن تنامى إلى سمعها صوت خطوات تتهادى بالقرب من الفتحة العالية التي سقطت منها.

راحت تنادي بصوتها الحاد مستجلبة انتباه صاحب الخطوات التي تقترب.

لما أطل القادم برأسه، طالعها آخر زوجين من الأعين تود رؤيتهما. ما زال حاجبًا لوجهه خلف اللثام، ألا ينزعه هذا الرجل ولو ساعة واحدة؟ صرفت ذهنها عن السؤال وأطالت إليه النظر، سألها بصوت هادئ، ينافي ما تمر به من ظرف عصيب متلِف للأعصاب: «ماذا تفعلين؟».

ولم يكن يزعجها أكثر من السؤال عما هو واضح للعيان. مغتاظة أجابت: «أتحَمم!».

يطيل النظر إليها، تتباطأ حركته بشكل يثير استفزازها، يتوقف قليلًا، ينزع عن جسده الدرع ويتخفف من السلاح. ثم يترك الشعلة التي يحملها في موضع يسمح بإنارة دربه إلى الأسفل. يتشبث في الصخور العلوية غير المبللة التي كانت خشنة بشكل كافٍ لتجنب الانزلاق والسقوط، ينتقل من صخرة لأخرى برشاقة كأنه فعل يومي كالتثاؤب.

اقترب مسافة كافية يمد ذراعه ويبسط كفه، ينظر إليها دون أن تند عنه كلمة واحدة.

مررت نظراتها فوق اليد المنبسطة، والمتوارية خلف قفاز أسود، ظهره من الجلد، وباطنه خشن محبب، ثم صعدت بنظراتها ترشقها كالسهام في عمق عينيه، تسأل بنبرة باردة كالماء الذي تقف بداخله: «ماذا تفعل؟».

كانت إجابته سريعة، حاضرة، كأنه توقع سؤالها سابقًا: «أصطاد عقارب!».

لم يفتها تشبيهه لها بالعقرب، الذي رأت أنه متعمَّد، ومهين، وغير مقبول في حالات أخرى.

أما وأنها الآن في هذا الوضع البائس، لم تتطرق إلى إجابته، مررت نظراتها على يده ثانية، متباطئة، ومترفعة، ثم رفعت رأسها تقول: «إذا كنتَ آملًا في أن أمسك بهذه اليد ستنتظر طويلًا».

- كما شئتِ.

هز كتفيه ببساطة، ثم تسلق صاعدًا إلى الأعلى، سمعت صوت الدرع يُسحب فوق الأرض الصخرية، ارتداه وحمل سلاحه، أخذ الشعلة، ثم أدار ظهره واختفى في الممر.

غلت الدماء في عروقها، فما عادت قادرة على التمييز إن كانت تشعر بالحرارة أم البرودة. صاحت تُسمِعه: «إذن ستتركني هنا أموت غرقًا أو جوعًا؟.. ظننتكَ تعد لي طريقة أكثر استعراضية للموت كالرجل الذي جلدتَه بالسوط.. أو كالذي سحبتَه خلف حصانك».

مرت دقيقة كاملة ثم أطل برأسه مرة أخرى، يقول بهدوء مزعج: «معكِ حق.. هذه طريقة مملة للموت».

ثم يستطرد: «عليَّ أن أبتكر طريقة مميزة لأجلكِ».

تخفف من حمله، ثم تسلق مرة أخرى إلى الأسفل، وعندما مد يده هذه المرة، لم تتردد في الإمساك بها، عندًا في الرجل الذي يزعجه كونها حية تتنفس.

كانت الصخور السفلى ملساء أكثر مما ظن كلاهما، وبحركة غير محسوبة العواقب دفعت نفسها بقوة أدت إلى انزلاق قدميها. سقطت وسط الماء بقوة ند عنها صوت صاخب، ضربت بذراعيها الماء محاولة استعادة توازنها. وعندما رفعت رأسها فوق السطح ووقفت تستجمع نفسها، أدركت أنها جذبته معها إلى مياه الخزان، وأن كليهما أصبح يحتاج إلى آخر ليُنقذه!

لم تكن بحاجة إلى أن ترى وجهه كاملًا، كان يكفي عينان وحاجبان كي تدرك أنه يشتعل غضبًا.

تعرف أن وقتًا عصيبًا ينتظرهما، قبل أن يعثر عليهما أحد الحراس قدرًا.

وهنا راودها سؤال مُلِح: كيف تستطيع البقاء مع الممسوس وسط الماء، في مكان مغلق من غير منفذ، ولساعات متتالية، دون أن يحاول أي منهما إغراق الآخر؟

***

التقت «سلام» من غير تخطيط زوجةَ «طوفان» الأولى، في تجمع لنساء الواحة بدار «أم الرمال»، لحل نزاع وقع بين جارتين، تدَّعي كلٌّ منهما أنها الأحق بثمار صفٍّ من النخيل يقع على الحدود المشتركة بين أرضيهما.

طال النزاع، واحتدم النقاش، تتباحث «أم الرمال» في المشكلة، وتسمع ادعاءات المرأتين بصبرٍ دؤوب، ينتظر الجميع قرارها الحكيم، ليصدقوا عليه بالتسليم.

تململت بعض النساء لما طال الاجتماع، وشرع القليل منهن ينسحبن بهدوء. وكان من بينهن زوجة «طوفان» الأولى.

تتبعتها «سلَّام» إلى خارج الدار، ثم اقتربت منها تُحييها وتُلقي السلام. لم تستقبل المرأة هذه البادرة بشكل طيب، بينما رمقت «سلام» بحدة مبرَّرة سألتها «سلام»: «أريد أن أسألكِ، ما المشكلة التي يخفيها عمي عن الجميع، التي تفسد نهاراته وتؤرق لياليه؟.. كنتِ زوجته الأولى بالتأكيد تعرفين».

- كنتُ أثق أن حديثًا ما سيدور بيننا.. وللحقيقة أقول.. كنتُ أنتظره متلهفة كي أخرج ما بداخلي من سموم.

بُهتت «سلام»، لم تفهم السبب الذي جعل المرأة تتوقع أن حديثًا ما سيدور بينهما، هي نفسها لم تفكر في زيارتها كما فعلت مع «مندورة». لو لم تعثر عليها قدرًا اليوم في دار «أم الرمال» لما دار بينهما هذا الحوار.

- ماذا تقصدين؟
- بلغني أنكِ تحدثتِ إلى «مندورة».. وإلى طليقته الثانية كذلك.. فلم يكن من الصعب توقع خطوتك القادمة يا «سلام».
- وما المشكلة إن أردتُ التحدث إليكن؟ ما دمتِ عرفتِ أنني زرتُ «مندورة» فبالتأكيد أخبرتكِ أنني ما أردتُ إلا المساعدة في الإصلاح بينهما.
- هذا أسخف مزاح سمعته إلى الآن.
- لا أمزح، أقول الحقيقة.
- سأخبركِ أنا بالحقيقة.

اندفعت المرأة تقول بشراسة، للفتاة التي كانت السبب في خراب بيتها: «لماذا تهتمين لأمر «طوفان» وزيجاته؟ لماذا لا تلتفتين لشؤونك يا «سلَّام»؟ أي فتاة في مكانكِ كانت لتذوب خجلًا بعد إفساد زفافها، وما كنا سنراها خارج الدار.. ألم يحزنكِ حال «جمعان» بعد ما فعلتِه به؟.. لكن بالطبع كيف ستتمكن عيناكِ من رؤية «جمعان» أو غير «جمعان» بينما تركضين طوال الوقت خلف «طوفان»؟».

لم يكن ذلك كأي شيء سمعته «سلام» من قبل، كان وقع تلك الكلمات عليها أشد مما تسمعه كل حين عن قلبها العليل، وحياتها القصيرة، وكونها امرأة بالية لا تصلح للزواج.

نزلت المعاني القاسية على وجهها كصفعات متتالية، لم تسنح لها الفرصة لالتقاط أنفاسها؛ إذ تابعت المرأة تقول بحقدٍ دفين: «عيب عليكِ يا «سلام».. لو عرف أبوكِ الأصيل لسقط ميتًا في الحال.. ولقتلكِ باقي أعمامكِ في اللحظة نفسها.. عيب عليكِ يا امرأة».

تسارعت أنفاس «سلام»، ضاق صدرها وانقبض، وضعت راحتها فوق موضع قلبها تضغط وتعتصر، قالت لاهثة، ومشوشة: «ماذا تقولين؟.. أنا.. لا أفهم.. شيئًا».

لم تأخذها بها شفقة ولا رأفة، تؤمن أن «طوفان» ما كان ليقع في هذا الزلل، إلا بتشجيع امرأة تجيد التلاعب. لا بُد وأن «سلَّام» فتحت له باب الجحيم ومهدت له الطريق إليه، لم يسِر فيه بإرادته، بل مدفوعًا ومرغمًا. هكذا كانت تفكر منذ أن وقع طلاقها، ربما لتخفف من بشاعة الصورة التي ترى «طوفان» عليها. قالت باستعلاءٍ محتدة: «أقول الحقيقة التي تحاولين إنكارها».

ثم رفعت سبابتها محذرة، بنبرة طاغية: «أخبريه أنني لن أسمح له بتدمير حياة امرأة رابعة.. إن حاول الزواج كما سمعتُ.. سأفضح سره في الواحة بأسرها».

مضت «سلَّام» تتخبط في طريقها، تتشوش الصور، وتتداخل الأصوات، فما انتبهت إلى امرأة تناديها، وأخرى تُحذرها من صخرة كادت أن تصطدم بها.

سارت على غير هدى إلى أن ساقتها قدماها إلى دارها، ثم غرفتها، وفراشها. أراحت فوقه جسدًا منهكًا، يُسيِّره عقل مشتت تتلاقح فيه الأفكار.

ماذا تقصد المرأة بكل ما قالته للتو؟

ما شأنها بزيجات «طوفان» التي تهدمت؟ ما الخطأ الذي انزلقت إليه، وما العيب الذي اتسخت به؟

وأخيرًا، ما سر «طوفان» الذي تهدد طليقته بفضحه؟

وهل بالفعل يسعى للزواج للمرة الرابعة؟

كانت محقة في ظنونها؛ لـ«طوفان» سر خطير يخفيه عن الجميع، عرفن به زوجاته، وكان السبب في إفساد زيجاته.

إذن ما علاقتها هي بسر «طوفان» الذي تجهله؟

حاصرتها الأسئلة، سحبت منها طاقتها شيئًا فشيئًا، تسلل البرد إلى أطرافها، ودق قلبها بإيقاع طبول الحرب، بسرعة، وقوة، ووتيرة مفزعة.

انحصر الهواء في رئتيها، وتفصد جبينها عرقًا، تنادي أباها بصوتٍ واهن وأنفاسٍ لاهثة، تمسك بموضع قلبها تمنعه من القفز خارجًا. لم يسمعها «أبو الأحناش» الذي ينام بغرفته في الطابق الثاني.

كانت النافذة أقرب إليها من الباب، لوَّحت تستغيث بجارتها العجوز التي تجلس على البسطة أمام دارها، لم تنتبه العجوز إلا بعد مضي دقيقة كاملة. هرولَت إلى الدار، رأت «سلَّام» على الأرض بغرفتها بجسد متقوس يتلوى ألمًا، فأطلقت صيحة تجمع بها كل من في الدار داخل الغرفة.

كان «طوفان» أول الواصلين إليها، فزع إذ رآها تتألم بصوتٍ مكتوم، تغلق عينيها بشدة، فانحنى عليها بفزعٍ يسألها: «ما بكِ يا «سلام»؟».

أبصر دواءها مبعثرًا أرضًا، كانت قد حاولت الوصول إليه فأعجزها الألم، سقط من يدها وتناثر من حولها. أسند «طوفان» ركبتيه إلى الأرض وانحنى يجمع المسحوق برؤوس أنامله، بحرص من يجمع الحياة في كفه، وبحماس من يخشى انفلاتها.

أخذ بين سبابته وإبهامه من المسحوق القدْر الذي استشعرته أنامله بميزان داخلي حساس دون حاجة إلى مطبب الواحة.

يدسه بين شفتيها ويأمرها بلهفة أن تبتلعه.

بذلت مجهودًا مضاعفًا كي تلبي ما ائتُمرَت به، لا تراه بوضوح بيد أنها تسمعه، تشعر بحركته جوارها، وبيده التي تسند رأسها؛ حتى تكاد تجزم أن أنفاسه تلهث كلهاثها، كأنها أصداء تتردد.

أثارت حركتها المتباطئة فزعه، الحياة تنسحب منها رويدًا رويدًا، وقد بلغ المرض محطة متقدمة في وجهته ذات الاتجاه الواحد. شعر أن الحياة تنزف منه بدورها، كأن للأرض أسفلهما فمًا كبيرًا يمتص روحيهما.

قبض على رأسها واعتصر، يتمسك بالحياة التي تتزعزع، وبالروح التي تلوح مودِّعة، يحاول استبقاءها، رافضًا إفلاتها.

- «سلَّام».

سمعت اسمها يتردد بهمس وشجن، كأن مناديها لا ينطق به، بل يتنفسه.

لا تعرف إن كانت قد سمعت هذا فعلًا أم وهم خُيِّل لها، بعد قليل أحست بقطرة ماء ساخنة تسقط فوق وجنتها، تمامًا فوق غمازتها، من عين تنظر إليها بلوعة وتحترق.

وبينما تتعطل حواسها عن العمل تساءلت بوهن: هل تبكي السماء داخل غرفتها، هل حزنَت لأجلها، هل تحبها؟

اندفع «أبو الأحناش» يزيح الجميع، ويحمل «سلَّام» إلى فراشها، يمسح رأسها بلوعة، ويأمر صارخًا: «ابنتي.. «سلَّام».. استدعوا المطبب في الحال».

(3)

كان غاضبًا بشدة، هذا ما تستطيع تأكيده.

ولم يكن من منجى وسط المياه الراكدة، والجدران الصخرية التي تحبسهما داخلها، سوى أن تتخذ من الصمت درعًا مؤقتًا بشق الأنفس تحمل برودة الماء، لكن الرياح التي غارَت على الخزان بغتة أصابت جسدها برعدة ظاهرة.

- هل تشعرين بالبرد؟

أومأت برأسها دون أن تنظر إليه، أضاف: «جيد».

رفعت رأسها تحدجه بنظرة لاسعة، الصمت الذي اتخذت منه درعًا تحتمي به من سخطه، لم تدُم جدواه إلا دقائق معدودات، انفجر بعدها بالكلام: «قلتُ لكِ تمهلي.. لكن طبعك العنيد أبَى أن يطيع».

- لم أتعمد إسقاطك.

الخزان الذي كان بحجم غرفة صغيرة، لم تكن مياهه كافية لغسل غضبه، وإطفاء نظراته، ظلت مشتعلة، ومسددة.

- ألن تعتذري على الأقل؟

- لستُ مَن يدين بالاعتذار.

قالتها متحدية، ومنفعلة، وساخطة، ثم استطردت: «أنتَ السبب فيما حدث وفيما سوف يحدث.. لو لم تختطفني وتحضرني إلى الجبل لما وقعت في هذا المأزق».

- لو لم تؤذي اليد التي امتدت لكِ بالمساعدة.. لما استحققتِ العقاب.

- تمجدك «فضة» كأنها تتحدث عن ملك حكيم.. لكنك ما زلت تصر على أنني تلك القاتلة.. يبدو أن الطباخة المسكينة لا تجيد قراءة البشر.

- «فضة» امرأة مخلصة، لا تشبهينها في شيء.. فرق كبير بين يد الصديق ولسعة العقرب.

أدركت أن الطريق إلى أي حديث بينهما مسدود بصخور لا تتزحزح، لا مجال للتفاهم والوصول إلى نقطة مشتركة.

بينما يشير إليها بأصابع الاتهام، ترفض هي التهمة جملة وتفصيلًا.

لجأت إلى درع الصمت مرة أخرى، تقف وسط المياه لا تستند إلى شيء، منسوب المياه لا يتخطى حدود رقبتها، يقل عنها بشبر واحد إذا وقفت على استقامتها، وهذا ما لم تستطع ساقاها الخائرتان أن تفعله، فبلغ الماء حافة ذقنها.

بينما يمر السطح بخصره، مكنه هذا التفاوت من أن يولي ظهره للجدار، ويتكئ بمرفقيه فوق الصخور البارزة. بدا «رعد» مسترخيًا لدرجة أثارت حنقها، ودت لو تتقدم منه وتنزع عنه لثامه الأسود، وتكشف ما يواريه خلفه، تلقي بحجر وسط بركة ثباته الذي أغاظها. رفعت رأسها تنظر إلى المخرج الوحيد وتستغيث بأي عابر للممرات، بُح صوتها تزامنًا مع إدراكها أن الوقت تأخر كثيرًا؛ لا بُد أن الجميع نائم، هذا فضلًا عن أن هذه الممرات بعيدة ومنزوية، يخف وقع الأقدام فوقها.

كيف عثر الممسوس عليها إذن؟ هل كان يسير في الممر قدرًا، أم عرف باختفائها فخرج يفتش عنها؟

تشبثت بالصخور الملساء في محاولات عديدة للتسلق، تكرر انزلاقها وسقوطها مرة تلو الأخرى. وقفت وسط المياه تمسح الماء عن وجهها، ثم تتطلع إلى الرجل الساكن معنفة: «لماذا لا تفعل شيئًا؟».

تلكأ في الجواب، كأنه يود لو يحتفظ بتلك المعلومة لنفسه: «يمشط رجالي هذه الممرات يوميًّا عند الفجر».

هذا يعني أن كل ما عليها أن تفعله هو الانتظار، ألهب الغيظ مسامها، قالت محتدة: «ألم يخطر ببالك أن تخبرني بذلك؟».

- وأفوِّت متعة مشاهدتك تسقطين؟

أدركت أن مياه الخزان لن تحتفظ ببرودتها لوقت طويل، إذ إنها على وشك أن تغلي وتتصاعد منها الأبخرة.

- إذا كان سقوطي يمتِّعك إلى هذا الحد.. لماذا لا تستمتع بإلقائي من فوق الجبل؟

عكَّر سؤالها مزاجه المسترخي، بدت نبراته قوية إذ قال: «ليس قبل أن تجيبي عن سؤالي».

مرت غيمة داكنة فوقهما، مؤلفة من مشاعر وأفكار كمخلفات النار بعد انطفائها، رماد لا يُرجى منه نفع.

«لماذا».. هذا ما فتئ يسأله منذ أن أسرها، يتوقف عند أداة الاستفهام وكأنها جملة بليغة كاملة المعنى، بينما تتساءل هي في نفسها عن فحوى الجملة الاستفهامية.

عن أي شيء يتساءل؟ لو كانت ذات البرقع كما يظن لفهمت مراده، لكنها «سراب» حفيدة القاضي التي لم تلتقِ هذا الممسوس يومًا، ولا تستطيع أن تفهمه.

عيناه مسلطتان فوقها، في مساحة ضيقة حد الاختناق، ورائحة عطره الثقيل تعبر الفراغات بينهما؛ شعرت بتوتر أزعجها، ولتصرف ذهنها عن التفكير اندفعت صوب الجدار تحاول التسلق من جديد، بحرص أكبر هذه المرة.

ظل القمر يسكب أنهار الفضة في الفراغ الواسع بين الصخور، إلى أن أشفقت عليه النجمات، فتجمعت في ذيل السماء تضوي بنورٍ وهاج، استرعى انتباه «سراب» التي لم تألَف هذا المشهد وسط العاصمة.

عندئذ انطلق السؤال التام أخيرًا من خلفها، بصوت رخيم، زاخم بالمشاعر، ومحتدم بها: «لماذا أحرقتِني؟».

التفتت بقوة على وشك أن تخبره أنها لم تفعل، لم تقترب منه خطوة واحدة، وكيف تحمل النار وسط المياه الراكدة؟

لولا أنها أدركت بعد هنيهة أن مقصده يبعد عن هذه اللحظة ثلاث سنوات كاملة.

لا يتحدث عنها، بل عن ذات البرقع التي يحسب أنها هي، المرأة التي يبغضها الجميع، وليس لها حليف واحد.

كانت تتساءل في نفسها لماذا يأخذ بمحمل شخصي قتل ذات البرقع لابنة القاضي في الحكاية المزعومة؟ ما الرابط الذي يجمعه بابنة القاضي كي تثور ثائرته سعيًا للقصاص لأجلها؟ أدركت الآن أن الرابط الأقوى هو ما كان يجمعه بذات البرقع نفسها.

- لماذا أحرقتِني؟

احتارت، هل يقصد نارًا حقيقية كالتي أحرقتها ثلاث مرات كلما اقترب زفافها، أم يرمي إلى تعبير مجازي عن الإيذاء والإيلام؟

التوتر، والانزعاج، والفزع، كل هذا دفعها لتقول بانفعال محتدة: «لستُ المرأة التي تعرفها.. لم أحرق أحدًا بل أنا التي احترقت».

تلهث، تنفعل، تثور، وتفصح: «هذا الوجه الذي تراه لا يخصني.. غريب عني.. ما زالت كل خلية منه تتذكر الألم.. ألم رهيب غير محتمَل.. إذا اقتربت النيران من جلدك تتوجع.. فما شعور من ذاب وجهه كشمعة مشتعلة إلى أن انتهى فتيلها؟.. ما زلتُ أذكر كيف كنت ممددة على الفراش أتمنى الموت فقط كي أتخلص من العذاب المستمر.. كنت أصرخ بالطبيب أرجوه أن يخدرني لأنني ما كنتُ أحتمل.. اللحظات القليلة التي أفيق فيها بدت كجحيم لا تنتهي».

أدركت أنها لا تتنفس، أخذت شهيقًا ثم أردفت بقسمات تجتر لحظات قاسية: «اللحظة التي انتهى فيها الألم.. كانت نفسها التي طالعت فيها وجهي الجديد في المرآة.. شعرتُ بغربة شديدة.. لم أعرفني.. لم آلفني.. لم أحبني».

مسحت بظهر كفها سريعًا عبرة منفلتة، ثم استطردت بصوت متحشرج: «حتى لو أقسم الجميع إنني امرأة أخرى.. لا يمكن لكل ذرة في جسدي أن تنسى من هي، وما حدث لها.. تتساءل: لماذا أحرقتُكَ؟.. أنا من احترقت بسبب لعنة مياهكم الملعونة الراكدة في البئر المسحورة».

استمع «رعد» إليها صامتًا، وهادئًا، لا تند عنه كلمة ولا حركة، كتمثال صُبَّ من الشمع. هل صدقها؟ هل أحدثت شرخًا في قناعاته بشأنها؟

بغتة ترك الصخرة التي يتكئ عليها مندفعًا صوبها، مثيرًا للماء الذي كان ساكنًا. جفلت إذ أصبح بالقرب الذي مكنها من سماع أنفاسه تتردد خلف اللثام، بسرعة، وقوة، واضطراب.

مسح وجهها بنظرات متباطئة، تتلكأ عند كل زاوية، لا ترمش عيناه المشرعتان على الانفعال الذي يسكنه.

انتقل الانفعال إليها، شعرت أنها تركض في مسارات متعرجة تُشبه المتاهة. قالت في محاولة لتخفيف شعور الاضطراب الذي هاجمها: «تطوَّر الطب التجميلي كثيرًا حتى صار بإمكان المرء أن يبدل بوجهه وجهًا آخر لا يشبهه و...».

قاطعها بنبرات متباطئة كالزمن الذي تلكأ في سريانه داخل الخزان: «الشق الذي يمر بطرف حاجبكِ الأيسر، حبة الخال الصغيرة بحجم حبة سكر عند صدغكِ، انحراف أرنبة أنفكِ قليلًا إلى اليمين، وطابع الحُسن في منتصف ذقنكِ.. نظراتكِ التي تشبه حد السكين عندما تغضبين.. لا يمكن للتطور الذي تزعمينه أن يستنسخ تفاصيل بتلك الدقة».

الزمن الذي تباطأ داخل الخزان توقف تمامًا عن السريان، تفاصيل حميمية لا تلتقطها عين عابرة، لا يمر على هذه العلامات إلا عين فاحصة، متقصية، لا تغفل عن صغائر القسمات ودقائقها.

عين يملك صاحبها الوقت، ويعرف المكان، ويألف الحدث.

القُرب الحسي الذي شعرت به تجاه الرجل الذي تبغضه أفزعها وأثار هواجسها، هي الآن تنظر إلى رجل غريب عنها، لكنها من زاوية رؤيته ليست غريبة أبدًا.

تساءلت في نفسها واجمة: *لماذا يضع هذا العطر الثقيل الذي لا يشبهه.* أراد وضع مزيد من المِلح فوق جرحها، بصوت رخيم متخم بالمشاعر أفصح: «وجهكِ محفور بذاكرتي».

ولا تعرف لمَ أحست أنها هي التي صُبَّت من الشمع، أشعل أحدهم فتيلها، وبدأ عصر الذوبان.

القمر وأعينه، النجمات وبريقها، الليل الذي حل، والشغف الذي طل؛ بدا شعورها بكل هذا مألوفًا جدًّا، كأنها اختبرته ألف ليلة وليلة.

القمر الذي حصر كشافه في أحد الأركان، أسقطه عامدًا فوق موضعيهما، تمكنت من رؤية شقٍّ باللثام نتجَ عن ارتطامه ببروز حاد في أثناء السقطة، ومن خلف هذا الشق أبصرَت بوضوح آثارًا تعرفها جيدًا، تملك مثلها حول رقبتها وكتفها وفوق ربلة ساقها.

هذا الرجل أحرقته نار حقيقية لا مجازية!

الألم الذي ظنت أنها اختبرته وحدها، أصبح لها فيه شريكان يتقاسمان معها التجربة.

- كيف احترق وجهك؟

أشارت برأسها صوب اللثام الذي تمزق، فرفع كفه سريعًا يحجب الموضع الذي انكشف. شعرت بألمه الذي تعرف أنه طاغٍ غير محتمل، وما كانت تظن يومًا أنها والممسوس سيتشاركان شعورًا واحدًا.

هزت رأسها مُنكِرة ومستنكِرة: «لا علاقة لي بما حدث لكَ.. أنتَ مخطئ».

أطلق صيحة عالية أفزعتها، كصرختها عندما كانت تستيقظ في المستشفى وتتذكر وجهها الذي احترق.

ضرب الماء بقبضتيه ثلاث مرات متتالية، يفرغ به خزائن غضبه. كان جامحًا، ومروعًا، فزعت وتقهقرت، مسها خوف حقيقي هذه المرة، خوف جانٍ يقف أمام ضحيته.

بدا وكأنه لم يعد يحتمل البقاء معها وسط ماء يربطهما، يمر عبرها ثم إليه يصل، يلفه ويلفها.

تمسَّك «رعد» بالصخور البارزة بحماس من يرغب في الابتعاد عن مصدر النيران التي تلسعه، تسلق باندفاع وقوة مهدت الصخور أمامه وطيعتها لمشيئته.

وصل إلى الفتحة وخرج منها دون أن ينظر خلفه، جاذبًا الدرع والسلاح فوق الأرض غير الممهدة، محدثًا صوتًا مروعًا يمتزج بصرخة غضب بددت سكون الجبل. ظلت تنظر إلى الفتحة تنتظر عودته، اختفى الصوت وعاد الممر إلى سجيته، خاليًا من وقع الأقدام، وبعيدًا عن مرمى الآذان.

بكت دون أن تعرف السبب، في صدرها جمرة مشتعلة وفي كفها آثار اللهب.

تتألم دون أن تعرف السبب، كأنها فقدت شيئًا ثمينًا للتو، شيئًا كانت تعرفه عن نفسها واتضح أنه كاسمها سراب مستمر.

لم تعد ساقاها تحتملان الوقوف، تمسكت بالجدار بأطراف أناملها، تخمشه بأظفارها، تجاهد رغبة عاتية في الاستسلام للبرد وإغلاق عينيها.

بعد دقائق لم تحسب عددها، سمعت صوتًا في الممر، أو خيل لها أنها تسمعه، رفعت رأسها قليلًا فلم تجد إلا السكون يلفها. عادت تسنده إلى الجدار، تخمشه، وتدفعه، ليتها قادرة على تمزيق الجبل أو زحزحته.

- إنها هناك.

لم تكن واهمة، ثمة أحد فوقها، رفعت رأسها مرة أخرى متلهفة، طالعها وجه «فضة» ومن حولها ثلاث من الطباخات.

أرسلت «فضة» الحبل المتين الذي تحمله، فتعلقت «سراب» في حلقة معدنية بآخره.

- لفيه حول خصركِ، ثم اربطي عقدة مزدوجة.

تطلب الأمر وقتًا مضاعفًا، إذ كانت يداها المرتعشتان ذواتَي قوة خائرة. بينما جذبتها «فضة» والنساء من الأعلى، تسلقت بقدميها الصخور بصبرٍ ودون اندفاع.

تمكنت أخيرًا من النجاة، جلست عند نهاية الممر تبكي بلا انقطاع.

تشعر أنها عاشت أيامًا وسط الماء، كانت أطرافها باهتة، مجعدة، كأنها عجوز امتصت الحياة طاقتها، وتغذت على شبابها.

ضمتها «فضة» إلى صدرها، ولفتها ببطانية تقيها البرد الذي نخر عظامها. تربت فوق رأسها وتهمس بكلمات كثيرة لم تسمعها.

تساندها طوال الطريق إلى غرفتها، وهناك على عتبتها مسحت «سراب» وجهها، وأغمضت لثوانٍ عينيها المحتقنتين، ثم قالت بصوت هزيل شاحب: «أستطيع الاعتناء بنفسي».

أومأت «فضة» برأسها متفهمة، دخلت «سراب» الغرفة وأغلقت الباب مستندة إليه قليلًا، تسترجع تفاصيل الحوار الذي دار بينها والممسوس.

أخبرتها «سلام» أن الحريق الذي شوه «مطر» كان متعمَّدًا، وسألها الممسوس صراحة: لماذا أحرقتِني؟

مهما حاولت صرف تفكيرها بعناد، ما عاد بإمكانها التجاهل، تتذكر جيدًا الحريق الثالث الذي ترك أثرًا بحجم حبة بندق فوق ربلة ساقها.

والحريق الثاني الذي ترك أثرًا فوق كتفها.

لكنها أبدًا لا تتذكر الحريق الأول! أو ما قبل الحريق الأول!

لا تتذكر كيف ومتى وأين احترق وجهها، كل ما تعرفه عن نفسها قبل أن تستيقظ فوق الفراش في المستشفى تصرخ ألمًا قد قيل لها، كل التفاصيل التي غابت عنها عرفتها من خالها و«مشتاق».

أخبراها باسمها، وصفتها، وأي نوع من النساء هي، أرياها صورتها داخل القلادة، وقصَّا عليها كيف كانت حياتها، حكيا لها عن أبيها وأمها المتوفيين، والجدة ولسانها المقطوع، واللعنة التي خرجت بها من الواحة المسحورة.

لأشهر طويلة يعيدان على سمعها التفاصيل نفسها، بينما هي أسيرة الفراش، يحاصر الشاش وجهها الذي تُشرِّحه مشارط الألم.

هل كان كل ذلك وهمًا مخادعًا؟

أكانت منذ البداية تملك هذا الوجه الذي تحمله؟

قالت لها «أم الرمال» إنها أشعلَت النار في الواحة مرة، فهل هي مَن أحرَقت الرجلين معًا؟

أصحيح ما قيل عنها، وهي الوحيدة التي تعيش داخل وهم كبير وفخ نُصبَ لأجلها؟

شعرت بحركة وسط الغرفة في ركنها المظلم، فانتفضت تخطو للداخل. تتساءل بوجل: «من هنا؟».

خرج الدخيل من الظلام إلى ضوء المشعل، شهقت جزعًا وقد رفعت كفًّا تتلمس بها عنقها، وبشفتين مرتعدتين سألته: «ماذا تريد مني؟».

قال القاضي مسددًا ومهددًا: «أريد القصاص!».

دُنيازاد

للعشق أصول وآداب

مدونة في حواشي الكتاب

كتاب الحياة وعلومها

وفنونها ومتونها

تتخلق به الغادة الحسناء

والحبيب على حدٍّ سواء

للعشق قوانين ومحاذير

وخبايا يلزمها التفسير

فبدد الحيرة بالسؤال

ولا تفتح الباب للاحتمال

وإن أردتَ مفازةً

انصب بالحب منارةً

وفي حضرته كُن تلميذًا

حصيفًا، كريمًا، وعزيزًا!

الليلة الثالثة والثلاثون

هل يهزم الحب الحقيقي المستحيلات، أم تردعه الموانع، والمقاصد، والموجبات؟

(1)

الذكريات جزء أصيل من الهوية؛ لا هوية بلا ماضٍ، إذ تشكلنا الخبرات الحياتية، تنحت فينا الفِكر والشعور وردات الفعل وما يجب أن ندين به.

ما تشعر به كان أشبه بمحاولة الوقوف على الأرض في غياب الجاذبية؛ محاولة التوازن بلا داعم، بلا جاذب، بلا تأصيل.

شق عليها أن يكون كل ما تعرفه عن نفسها ما هو إلا سراب يحسبه الظمآن ماء. كل صورة وضعوها أمام عينيها وقالوا هذه أنتِ في عُمر المراهقة، وهذه أنتِ بين أحضان أمكِ، وتلكن صديقاتك في الروضة، تقفين في المنتصف بفستانكِ الأصفر، كزهرة تتوسط حديقة غنَّاء.

شق عليها ألا يضم القبر الذي زارته جسدَي أمها وأبيها حقًّا، وأن الفتى الذي حسبته أخًا لها لا يمت لها بصلة دم، وأن الخال ليس خالها، والجدة التي خاضت رحلة طويلة بحثًا عن الحل الأخير لإنقاذها ليست فردًا من عائلتها.

لم يكن عقلها يملك القدرة الكافية ليتحمل تلك الوقائع القاسية. يشتتها الجميع، ويحرصون على زلزلتها، لماذا تصدق هؤلاء الذين تعرفهم منذ أيام، وتُكذِّب الأهل الذين عاشت بينهم بذاكرتها الحالية لثلاث سنوات؟

إذا كانت بالفعل ذات البرقع كما يزعم الممسوس، لماذا فتحت الجدة أحضانها للفتاة التي قتلت حفيدتها الحقيقية؟ إذا كانت حياتها التي تعرفها ما هي إلا خدعة حيكَت بمهارة، فما الهدف منها؟

- أريد القصاص.

لم يكن ما قاله القاضي سوى قدر محتم، ونهاية لا يمكن الفكاك منها. ما من شيء قادر على إنقاذها، هكذا فكرت وهي تتطلع إلى الشيخ المكلوم في حفيدته، الذي بحسب ظنه يقف أمام المجرمة التي سلبت روحها.

حنجرتها الملتهبة، وصوتها الذي شُرخ، والوهن الذي تكالب عليها، كل ذلك جعلها لا تسعى للهرب، إذ لا فائدة من المحاولة.

تقدمت منه خطوة واحدة، ترنو بشجن إلى التفاصيل التي تحفظها، من الصورة التي أعطوها لها. قالوا لها هذا جدك الذي هجر زوجته، وترك أمك تكبر من غير أب تحتمي به من قساوة الحياة وبطشها.

قالوا لها هذا رجل أناني يسوقه الشغف، نحو أشياء كثيرة ليس من بينها الأسرة والعائلة، فما بال عينيه مدماتان وتبكيان قهرًا على الحفيدة التي فقدها؟

- جدي.

تتأرجح بين شعورها الذي تحمله تجاهه، وبين الوقائع التي يسعى الجميع إلى الزج بها داخل ذاكرتها. لم تعرفه إلا كجد لها، خاضت رحلة طويلة بهدف العثور عليه، عاجزة عن النظر إليه كرجل غريب عنها.

يتقدم منها خطوة، يسقط ضوء المشعل فوق قسماته الجامدة، يقول معنفًا: «لستُ جدكِ».

لا تغضب منه، بل تحزن لأجله، ولأجل نفسها. تتقدم خطوة أخرى غير عابئة بالخنجر الذي يحمله، تضم البطانية حول جسدها أكثر إذ شعرت بالبرودة تنخر عظامها.

- هكذا أعرفكَ.. هكذا أحببتكَ دون أن أرى منكَ إلا صورة قديمة.. لطالما تساءلتُ عن لقائنا كيف سيكون؟ كنتُ أكدس الكثير من الحكايات والتفاصيل لأجلكَ.. تعلمتُ الشطرنج عندما عرفتُ أنكَ تحبه.. رأيته في دولاب جدتي وقلتُ لعلي أنافسكَ به يومًا.

توجهت إلى حقيبتها المنزوية في أحد الأركان، أخرجت منها صندوقًا خشبيًّا صغيرًا قرضته أنياب الزمن، بداخله رقعة من لونين، ومجسمات اللعب، فتحت الصندوق أمامه، ابتسمت تستطرد بصوت مشروخ كروحها: «هل تتذكره؟.. كان الذكرى الوحيدة التي بقيت منكَ، أخبروني أن أمي كانت تشارك أبي اللعب به.. احتفظتُ به لأجلك، وحملته معي لأنني كنتُ آمل أن يتحقق الحلم يومًا».

تساقطت عبراتها، تمسح فوق الصندوق بأنامل حانية وتردف: «اختفت آثار أمي وأغراض أبي وسط الحريق الأول.. هكذا أخبروني.. هذا الصندوق الصغير كان كل ما تبقى لي من ثلاثتكم».

ران صمت طويل ثقيل لم يُسمع فيه إلا نشيجها، وأنفاس الجد التي تضطرب، يقبض على الخنجر بيده، يلوي مقبضه بين أنامله، وبالأخرى يتحسس لحيته البيضاء.

يتقارب حاجباه، ويتجعد جبينه، تشعر بحيرته، التي لا تختلف كثيرًا عن حيرتها، تقاسما الصمت لدقائق متتالية، إلى أن هز رأسه قائلًا: «لا أعرف لمَ تكذبين.. لا أنا جدكِ ولا أنتِ حفيدتي».

- هكذا أخبروني.. لا أعرف نفسي سوى كـ «سراب» حفيدتك.

تردد الاسم في الغرفة ليشحنها بتوتر أصاب كليهما، بألمٍ توجه إليها القاضي قائلًا: ««سراب» حفيدتي ترقد الآن في قاع البئر، ضحية جشع جدتها وحقدها المستمرين، آثار جانبية لخطتها الدامية.. وأنتِ شريكة في قتلها.. استخدمتكِ زوجتي الأولى لتدمير حياة الثانية.. أنتِ قتلتِ أسرة كاملة».

- لا أتذكر.. لا أتذكر.

- فتحتُ لكِ بيتي.. آويتُكِ وأطعمتكِ وكسوتكِ عندما نبذك أهل الواحة ورفضوا منحكِ مكانًا للسُّكنى.. هل هذا جزاء إحساني؟

- أقسم لكَ لا أتذكر أيًّا مما تقوله.. كل ما أعرفه أنني استيقظت في المستشفى بعد حريق كبير نشب ليلة زواجي.

أخبرتْه عن ماء البئر، واللعنة التي أصابتها كحفيدة، ولسان الجدة الذي انقطع بعد هروبها من الواحة قديمًا، وما قالته الساحرة يومئذ.

هز القاضي رأسه نفيًا بقوة، ثم قال منفعلًا ومحتدًّا: «ما هذه التخاريف؟.. ساحرات الواحة لسن بهذه القوة، لا يستطعن توريث اللعنات وقطع الألسنة وافتعال الحرائق واللعب بالنيران.. السحر ليس بتلك القوة.. الضرر يحدث هنا».

ثم أشار إلى عقله، أردف: «السحر كالفيروس يبحث عن مناطق الضعف ليهاجمها.. والأبواب المواربة لينفذ عبرها.. والجدُر الهشة ليخترقها.. السحر والعين والحسد هي جنود الشيطان التي تهاجم بيت النفس الذي نغفل عن تحصينه، وقد نُبتلى به لنُطهره.. تلك كانت كلماتكِ ألا تذكرينها؟».

لا تتذكر أبدًا أنها قالت شيئًا مشابهًا، إلا أنه لا يبدو غريبًا عنها.

- وماء البئر المسحور؟

- ماء البئر ليس مسحورًا، هذا ما نقوله للغرباء الذين يحلون على أرضنا، لئلا يخرجوا ويكشفوا للعالم سر الواحة، فيدنسون خصوصيتها.

أخذ نفسًا عميقًا، تفكر خلاله ثم أردف: «لعنة زوجتي الأولى هي الغيرة، مضغت قلبها حتى امتصت منه كل الخصال الطيبة، لم تعد ترى من الحياة هدفًا سوى الانتقام لمَّا مِلتُ إلى امرأة غيرها».

ثم نظر إليها قائلًا بشك: «إذا كان ما تقولينه صحيحًا، وليس خدعة جديدة أو مستوى متقدمًا في لعبتكِ.. إذن فلعنتكِ هي النسيان».

النسيان لعنتها! لماذا لم تستطِع الزواج إذن؟ لماذا اشتعلت فيها النيران مباشرة بعد أن مسها عريسها قرب الزفاف، على الأقل في المرتين اللتين تتذكرهما؟

النسيان لعنتها! والسحر لا يتوارث، ولا يُحدِث عاهة مستديمة، كيف انقطع لسان الجدة إذن؟

لفتهما الحيرة في حِزمة واحدة، تراخت قبضة القاضي فوق الخنجر، يراوده سؤال جدلي لم يعثر بعد على إجابته؛ إذا كانت الفتاة المجرمة قد نسيت حقًّا ما فعلته، فما جدوى عقابها؟

هل هي الآن إنسان جديد عمره ثلاث سنوات، لا يشبه ما كانت عليه قبل النسيان؟ أم هي الشخص نفسه حتى وإن لم تتذكر الأذى الذي ألحقته بأسرته؟

هل خطيئتها ما زالت ملتصقة بها، أم زالت عندما فقدت ذاكرتها؟

هل ندمت على ما قدَّمت؟ هل تابت عن خطيئتها المخزية؟ لم يفهم في البداية تأخير «رعد» للقصاص إلى أن ينال اعترافها، صار الآن عاجزًا عن البَت في مسألتها، بينما تتزاحم كل تلك الأسئلة أمام عينيه، خشي أن يقدم على ما يندم عليه لاحقًا، أن تتبادل المقاعد بين الظالم والمظلوم، فيحمل على عاتقيه إثمها.

أخذ يحدجها بنظرات متفحصة، يبحث عن إشارة لكذبها، أو تفصيل يفضح خدعتها الجديدة. لم يرَ في وجهها إلا الوهن، والقهر، والحيرة، مزيج جعلها تتحرك بعصبية داخل الغرفة، تبكي، تنفعل، تحدِّث نفسها، تتجاهله، لا تُظهِر خوفًا من الخنجر الذي يحمله.

غادر الغرفة دون أن تنتبه، استلقت فوق الفراش ترتجف، أغمضت عينيها تتمنى لو كان كل ذلك كابوسًا ينتهي عندما تستيقظ في الصباح.

لو..

***

(2)

أمسى كل شيء بالأبيض والأسود، اختفت من عينيها الألوان.

كانت أمها قارئة الصخور تقول: «الإنسان يموت مرتين؛ مرة حين تغادر الروح جسده، ومرة حين ينساه الناس».

لا تود «فلك» أن يموت ذِكرها بين الناس؛ بينما هي صغيرة، وجميلة، وممتلئة بالحياة. لا تريد أن تسكن الهوامش؛ في الهوامش تتعاظم المخاوف، لا شيء فيها إلا الظلام، والوحدة، والدروب الشائكة.

تريد أن تكون في منتصف الحياة، حيث الألوان الزاهية، لا يزال أمامها الكثير لتتذوقه، مختلف صنوف السعادة، والحماس، والخيال.

لم يحبها «هلال»، لم يختَرها، ولم يفضلها، هي عنده كأي امرأة غيرها، قصمت هذه الحقيقة ظهرها.

لم تكن قط الصغيرة المدللة، أو الكبرى المقربة، كانت في منتصف المسافة بين ثمانٍ من البنات، لكل منهن أحلام واحتياجات. لم ترتدِ قط فستانًا جديدًا، ولاً حتى صباح العيد، تتوارث الفساتين في دارها، كما تتوارث أدوات الزينة والقلائد والأحذية.

كلهن متماثلات، بلا تمييز يحفظ الخصوصية والاختلاف، يتباهين بالجمال، والثناء، والمديح، أمام قارئة الصخور التي يسعدها الظهور.

لا توزع عليهن قارئة الصخور حبًّا مجانيًّا بلا مقابل، بل مشاعر مشروطة بالاستحقاق؛ من تأتِ بزبائن أكثر لقراءة مسارات الرمال فوق صخورها، تحظَ باهتمامها إلى أن تتفوق عليها أختها.

بينما الكسولة المتباطئة، تنبَذ وتُسلَب أغراضها.

كان عليها دائمًا أن تُبهر أمها؛ بجمالها، ولباسها، وحديثها، وقدرتها على استدراج النساء إلى دارها. في القلوب الثمانية، تربة خصبة لإنبات الغيرة، والحسد، والضغينة، أججتها الأم عامدة، كي تبذل كل منهن طاقتها، وتتفنن في إرضائها.

لم تكن «فلَك» سوى مدار من ثمانية، يدور حول الكوكبة الأم العظيمة.

حسبت «فلك» أنها عندما تنتقل إلى دار الزوجية، ستُنشئ لنفسها مدارًا خاصًّا، تجلس فوق عرشه ثابتة، وتدور كل الموجودات في فلكها. والآن بينما تتلقى صدمة كونها امرأة عادية عند زوجها، شعرت أنها عادت لتدور من جديد، اجتذبتها المدارات التي تألفها، والدروب التي تحفظها، عليها أن تبذل كي تحصل على الحب الذي تريد.

الزواج لا سحر فيه، لا خيال، ولا ألوان.

اختفت من حولها الألوان، ولا شيء ترغب فيه الآن أكثر من استعادتها من جديد. لساعاتٍ طويلة وقفت أمام سطح عاكس تضفر شعرها الطويل في خمسين ضفيرة صغيرة، لم تأتِ أي من أخواتها بمثلها، تعقدها حول رأسها صانعة تاجًا ذهبيًّا مثاليًّا، دست فيه زهرات بيضاء وصفراء صغيرة.

تكحلت، وتعطرت، وتأنقت، في انتظار عودة «هلال» من الطاحونة.

هل ستعود الألوان إن رآها، إن ميَّزها، إن أحبها؟ لا تعرف، لكن عليها أن تحاول، لن تستطيع العيش في الهوامش، حيث الأبيض والأسود والظلام والمخاوف.

إن لم تفعل سيعثر «هلال» على غيرها، أخرى قادرة على اكتساب نقاط أعلى، عليها أن تجتهد قدر استطاعتها، لئلا تترك ثغرة تنفذ منها غريمتها المرتقبة.

«الحياة منافسة» هذا ما فتئت قارئة الصخور تردده.

ساعات وراء ساعات، إلى أن أوشك الليل على نصب خيمته والمبيت، ساورها القلق وأزعجها التخمين، لماذا لم يعد «هلال» من الطاحونة وقد اقترب الموعد المحظور؟

لفت شالًا حول رأسها وخرجت في عجالة، تمر بالطاحونة الخالية، ومعصرة عمه المغلقة، تهرول من هنا إلى هناك، تسابق الدقائق والثواني، والليل الذي أوشك على نزع خفه والاستلقاء وسط السماء. لم يتبقَّ أمامها إلا دقائق قليلة تكفي بالكاد كي تحتمي بدارها من أعين الحراس، هرولت بكل طاقتها وسط الرمال إلى أن بلغت دارها في اللحظة الأخيرة قبل أن تطفئ الشمس مصباحها.

لم تعثر على «هلال» في الدار، وقد كانت تُمني نفسها أنه ربما عاد عندما كانت تبحث عنه في أرجاء الواحة.

أمضت ساعات الليل أمام النافذة، وعند الباب، يرافقها الأرق وينزع عنها رداء النوم عنوة، لم يغمض لها جفن إلى أن غزلت السماء خيطًا أبيض وسط ثوبها الأسود.

انفتح الباب أخيرًا، رأت «هلال» على عتبته، فاندفعت صوبه تسأله: «ماذا حدث؟ لماذا لم تعد قبل المساء؟».

بينما أغلق الباب بهدوء، وحك رأسه مستشعرًا الحرج، تلوت هي قلقًا وانزعاجًا، تحدث أخيرًا مفصحًا: «لا أعرف كيف حدث ذلك؟».

- ما الذي حدث؟

أطلق ضحكة صغيرة مكتومة، ثم قال آسفًا: «أهلكني العمل في الطاحونة.. وشغلني التفكير في صديقي «قوس» الذي طال غيابه في جانب الجبل، وعندما حان موعد الانصراف، وجدتُ نفسي أذهب إلى دار أمي.. أفتح بابها وأدخل غرفتي ثم أنام كعادتي.. لم تشعر بي أمي إلا بعدما حل المساء، ما كان بإمكاني العودة لذا انتظرتُ الصباح».

ثم استطرد محرجًا: «لا أعرف كيف حدث ذلك.. كان يومًا مرهقًا، كنتُ متعبًا، لم أستطع التفكير بصفاء».

تطلعت إليه «فلك» دهِشة، ومصدومة، وشاردة، ذهب إلى دار أمه، ونسي أنه تزوج!

- أعتذر منكِ.

يردد أسفه دون أن يلين وجهها، ظلت على جمودها، وبرودها وشرودها. تفك الضفائر الخمسين في تتابع لا يقطعه إلا كلمة اعتذار ينطق بها «هلال»، ولمسة خفيفة لذراعها، أمور غير كافية لمحو ما حدث.

لا تعرف إن كان بإمكانها استعادة الألوان يومًا، كل ما تعرفه أنها وقعت وسط مدار ميت، لا حياة فيه.

***

طق.. طق.. طق.

ما إن سمعت «صدف» إشارتهما السرية حتى أسرعت بفتح الباب.

غاب لثلاث ساعات، لم تغادر خلالهم الغرفة، ولم تفارق موضعها فوق الأريكة، بدا كل شيء من حولها غريبًا؛ المكان والأثاث وأصوات العابرين في الممرات. عندما دخل «قوس» شعرت بابتهاج من عثر أخيرًا على الأُلفة.

رنَت إليه بعين قلقة؛ كان معفرًا مغبرًا، متسخة يداه بالجير الأبيض، يحمل قماشة ملفوفة بالخبز والجبن والخُضَر.

- ماذا حدث؟

- كنتُ أعمل مقابل الطعام.

لم يقبل أن يأخذ ما لم يدفع ثمنه، هو الآن ليس في الواحة التي يدين أهلها لبعضهم بالود والتراحم ليأكل ما اشتهى دون مقابل، بل في الجارة السوداء، حيث الممسوس ورجاله، ولا يحب أن يكون لأيهم فضل عليه ولو بشق تمرة.

طرق الباب أحد الحراس، ثم تقدم حاملًا صينية تفوح منها رائحة شواء شهية، محملة باللحم والخبز والمرق، قدمها قائلًا: «هدية من الساحرة إلى ابنتها».

تبادل «قوس» و«صدف» نظرات عازمة على رد الهدية.

توجه «قوس» إلى الحارس بالحديث: «أعدها من حيث أخذتها».

هز الحارس كتفيه بلا مبالاة ثم انصرف. توجه «قوس» من فوره للاغتسال. رتبت «صدف» الطعام فوق الطاولة باهتمام، ثم انتظرت إلى أن جلس «قوس» جوارها يقسم بينهما الطعام القليل، مانحًا إياها القسم الأفضل. اعترضت: «هذا مقابل عرقكَ، تستحق الحصة الأكبر».

- تبدين شاحبة، عليكِ أن تأكلي أكثر.

تأكل لتسد جوعها، شاعرة بمزيج من الذنب والامتنان، أجهد نفسه لساعات كي يأتي لها بالطعام. رنا إليها قائلًا: «أسعدني أنكِ لم تقبلي طعامها».

ابتسمت «صدف» وقالت على استحياء: «من وقت لآخر كانت ترسل الهدايا إلى دارنا.. لم يقبل أبي أيًّا منها».

- لأنه رجل عفيف النفس.

أومأت برأسها مؤكدة، ومبتهجة كونه يشاركها الرأي في أبيها الفقيد.

توقفت عن الأكل، شردت في تفاصيل المكان، الذي لا يشبه أبدًا دفء دارها الصغيرة، باغتها «قوس» وقد توقف عن الأكل بدوره: «لماذا تريدين البقاء؟».

اضطربت ولم تستطع التفكير في إجابة مقنعة، كانت الحقيقة ثقيلة على لسانها، إذا أخبرته أنها تخاف أمها وتهديدها المستمر، لن يتأثر بقولها، وسيعزم على العودة بها إلى الواحة في الحال. لا تستطيع المخاطرة، تعرف ما بإمكان أمها أن تفعله، وكيف تسحق خصومها ما بين طرفة عين وانتباهتها.

- ليس هناك سبب محدد.

لم يكن جوابًا مقنعًا، لكنه هز رأسه وأرجأ الحديث؛ كان كلاهما منهكًا.

- فلتنامي الآن.. تبدين متعبة.

- أنتَ أيضًا متعب.

قالتها ثم أمسكت لسانها، خافت أن يرى كم هي حريصة ومهتمة. انتبهت «صدف» لوضعهما الجديد، فراش واحد وفردان، زوج وزوجة على وجه التحديد.

لملمت بقايا الطعام، وانتظرت باضطراب أن يبادر «قوس» ليرسم تفاصيل علاقتهما، ويضع الحدود اللازمة بينهما. رأته يتوجه صوب الفراش عازمًا على مشاركتها إياه، استرقت النظر صوب الأريكة بتوتر ملحوظ، تود لو تتخذ منها مخدعًا لها. يرنو إليها «قوس» مستفهمًا، ثم يقول موضحًا ومتلطفًا: «نحن زوجان».

لا يخف اضطرابها بل يتعاظم، لا تعرف كيف تكون زوجة، لم تحظَ يومًا بأمٍ تُرشدها. بينما كانت في أمس الحاجة إلى نصائحها، وخبراتها، كانت الساحرة هنا وسط عرشها المذهب في بطن الجبل، تتسلط على غيرها بالقوة التي سخرتها.

حُرمت من حنان الأم بينما هي على قيد الحياة، والآن تشعر أنها فرع يتيم ملقى في مهب الريح بلا ساق يتشبث بها، تذروه الرياح أينما أرادت واشتهَت.

حتى الرجل الذي تحبه، لا يربطه بها إلا وازع شفقة، ودين يسدده للرجل الذي يحبه ويقدره.

بكت فجأة، بكاءً عنيفًا رجَّ جسدها كله، اندفع «قوس» فزعًا يمسك بذراعيها، يحاول إبعاد كفيها عن وجهها، كي يرى ما ألمَّ بها، تتمسك بإخفاء وجهها عنه، يسألها بلهفة: «ماذا حدث؟».

تتابعت الشهقات والنشيج فلا تجد بينهما فرصة للإجابة، ولم تكن في الأساس تعرف الإجابة، كل ما تعرفه أنها تشعر بوحدة فتاكة، تزل قدمها في صراع لا تملك فيه ناقة ولا بعيرًا، سيكون الفوز في نهايته لأمها صاحبة السيادة.

بينما ساقها «قوس» إلى الفراش كانت ترتجف، أراحها فوقه وجذب الغطاء، ووقف جوارها إلى أن سكن البكاء.

مرر أنامله فوق كتفها، مسًّا خفيفًا رحيمًا، يود لو يخفف عنها ولو النذر اليسير، لكنه لا يملك بعدُ مفاتيحها، كل ما خطر بباله أن يفعله، ألا يشق عليها بكثرة السؤال، وأن يهيئ لها الوقت الكافي لتهدأ.

دقائق ثم بدأت في الاسترخاء، غاصت في نوم عميق حُرمت منه لأيام.

طال به الوقوف جوارها، يرنو باهتمام إلى قسماتها، لم يسبق له أن طالعها بهذا التدقيق، إذ كانت دومًا في عينه خطيبة مستقبلية لرجلٍ غيره، لا يحق له رؤيتها كما يرى الرجل امرأة تروقه.

ما زال يذكر اليوم الذي دخل فيه أبوها عليه الدكان، كان ذلك قبل ثلاث سنوات ونيف، أسرَّ إليه بشيء لم يبُح به لسواه. أخبره أنه تحدث إلى الفتاة الغريبة التي لا يعرفون لها اسمًا، التي يحلو لهم نعتها بـ «ذات البرقع»، وكان وقتها أهل الواحة ينفرون منها، ويسخرون من حديثها. أخبره صاحب دكان التوابل أنها بعد أن تحدثت إلى الناس وسط الواحة عن السحر الذي يسمحون بممارسته على أرضهم، وعن غضب الجبار الذي يتوعدهم إن استمروا في عصيانهم، تحدث إليها في دار القاضي الذي استضافها، أخبرها عن زوجته التي تتعلم فنون السحر، وتحرص على إيذاء الآخرين بتعاويذها وأعمالها، وعن محاولتها الحثيثة سحب ابنتهما لترافقها في الدرب نفسه.

نصحته ذات البرقع يومئذ أن يسعى لتزويج ابنته برجل يرتضيه، يعرف كيف يكون قيمًا، حريصًا، وحاميًا.

وعندما استنكر أن يخطب الأب لابنته، قالت له إن إنقاذه لها من أم كأمها لا ينقص من كرامته، بل يؤكد رجولته وقدرته على حفظ رعيته.

قال صاحب دكان التوابل إنه ظل يفكر في حديث الفتاة ثلاث ليالٍ كاملة، ثم اختار من بين شباب الواحة من هو أهلًا لها، «هلال» صديق «قوس» الذي يلازمه؛ شاب من أسرة نبيلة، وعائلة قوية كبيرة العدد، ستحمي ابنته ولن يطالها الأذى.

مدح «قوس» صديقه، وأسبغ عليه ما يستحق من أوصاف كريمة، وأخفى الغصة التي توسطت حلقه، مذكرة إياه بيُتمه، وتواضعه، ووحدته.

رد «هلال» طلب الرجل، معتذرًا، ومحرجًا، فظل أبوها على أمله، أن يغير «هلال» رأيه، ويوافق على الزواج بابنته.

ومنذ تلك الواقعة، لم يرَ «قوس» في «صدف» إلا خطيبة محتملة لصديقه، ثم زوجة محتملة لـ «كسار»، ما جعله يصرف ذهنه عنها كلما زارت دكان التوابل، أو حطت على تفكيره من غير دعوة سابقة.

وعندما عرض عليه أبوها في رمقه الأخير أن يتزوج بها، شعر أنه مُنح شرفًا عظيمًا، كأوسمة الفرسان التي تُعلق فوق صدورهم، إذ كان يعرف أنها غالية المقام عند أبيها، لن يمنحها إلا لمن يرى أنه أهل لاستحقاقها.

والآن بينما يرقد فوق الأريكة ويرنو لها متفحصًا ومدققًا، شعر أن العين التي اعتادت أن تراها كامرأة رجل آخر قد رُفع عنها حجابها.

***

تشاجر «طوفان» مع أحد زبائنه للتو، كان الرجل قد أسقط زجاجة زيت زيتون من غير قصد، عندما أراد تذوق بضع قطرات منه قبل الشراء.

انفعل «طوفان» وأمسك بتلابيب الرجل، كاد أن يفتك به لولا أن حال بينهما الرجال.

وقبل ساعة وقف فوق طاولة صغيرة أمام المعصرة ونادى في الناس المتجمعين أمامها: «أقسم بالذي رفع السماء من غير عمد ألا أبيع زيت الزيتون لمن يستثني «أبو الأحناش» من مجلسه.. وإن حاول أحدكم خداعي للشراء سيجد بلطتي هذه في منتصف رقبته».

نثر الماء فوق وجهه، عله يخفف حدة الضيق الذي يلازمه منذ الصباح.

فاقت «سلَّام» واستعادت وعيها، هذا ما أبلغه إياه أعمامها، أمر المطبب بعدم الإثقال عليها بالزيارة أو الحديث، فسد «أبو الأحناش» بمحاذيره الطريق إلى الدار.

يعرف «طوفان» أنها بخير، هكذا قال الأعمام، إلا أن القلب الذي رجف، ما عاد بإمكانه أن يسكن إلا إذا رأى عينيها المشرعتين على الحياة.

توجه إلى دكان العطور، واشترى عطرًا يحبه «أبو الأحناش»، كانت زجاجته قد انكسرت قبل شهرين، ولم يشترِ غيرها.

أخذ الهدية في قبضته دون لفها، وتوجه إلى الدار. كانت هادئة أكثر من المعتاد، مهجورة لا روح فيها، هكذا يكون الحال عندما تغيب عنها «سلَّام».

مر على باب غرفتها في طريقه إلى الدور الثاني، تباطأت خطواته إلى أن توقفت، يتظاهر بترتيب عمامته، ود أن يُعسكر أمام الباب، يحط رحاله وينصب خيمته، لا يفارق عتبتها إلا وقد تحسن حالها، وبعثت في الدار روحها.

تطرق نظراته المتلهفة فوق الباب، بنقرات صغيرة متتابعة، تند عنها أصوات بهية شجية، بتردد لا تسمعه الأذن العادية، نظرات قاصرة عاجزة عن إدارة المقبض وفتح الباب.

يمزقه صوتان متضادان متكافئان في القوة والتأثير، أحدهما يدفعه نحوها؛ قُربًا، وأنسًا واشتياقًا. والآخر يصرفه عنها؛ ذنبًا، وندمًا، واعترافًا.. بأنه لا يستطيع الجمع بين امتيازات عم، وامتيازات عاشق.

تمزق طويلًا بين صوتين، وتنقل مرغمًا بين حالين، وما عاد بإمكان هذا أن يستمر؛ على أحدهما أن يصمت، إما مروءته وإما قلبه.

تحت عتبتها يتسرب الضوء، مستيقظة إذن، هل يجافيها النوم؟

كان حاضرًا عندما فاقت من إغماءتها، لماذا بدت منزعجة؟

ما الذي يؤرقها ويثقل قلبها بالأحمال، أما زالت تفكر في «جمعان»؟

تجاذبت الأسئلة أطراف عمامته، هشَّها وأدار ظهره للباب، ثم صعد السلم على عجالة، لما سمع خطوات قادمة من المطبخ.

سمعت «سلَّام» صوت خطوات تصعد الدرج، قدَّرت أن أحد أعمامها خالف أوامر أبيها ودخل الدار. مستلقية فوق فراشها شاردة فيما سمعت من زوجَتَي «طوفان» الأولى والثالثة، ثم تدفقت أفكارها تجاه لحظة إغماءتها، عندما تسربت الحياة من بين مسامها، سمعت اسمها يتردد بهمس شغوف، شعرت بيد تدعمها وعين تبكيها، تخترق سُباتَها رائحةٌ نفاذة تعرفها جيدًا.

جافاها النوم منذ إفاقتها بعد مجيء المطبب، قاتمة المزاج، مشغولة البال، لا تنطق بكلمة، ولا ترد على سؤال.

لم تحتمل هذا الهواء الملغز، بأحجيات صعبة على الأفهام، لفت الوشاح فوق رأسها، ثم تلحفت بالشال، خرجت دون أن يشعر بها أحد، متوجهة إلى دار «طوفان»، تجهل أنه في الطابق الذي يعلو غرفتها، يفتش عن وسيلة لرؤيتها.

لم تطرق باب داره، كان مفتوحًا من غير مزلاج، استقبلتها الظلمة الرتيبة، والجدران التي شهدت مرور الظل غدوة وعشية، عندما يكون صاحبه مشغول البال.

لم تكن زيارتها الأولى للدار، دخلتها عندما كانت صغيرة، تعرف كيف يطوي «طوفان» الحصيرة التي تشربت دماء أسرته تلك الليلة، وكيف لم يمسح آثار أيديهم عن جدرانها بالطلاء.

اشتمت رائحة المسك التي تحدث عنها «طوفان»، لا الرائحة المعدنية التي يزعم أهل الواحة بوجودها.

دخلت الغرفة التي كانت مخدعًا لأمه وأبيه، وفي الزاوية الصغيرة بين الجدار والفراش اشرأبت بعنقها تتطلع للمساحة الضيقة التي حمته من بطش الثور الهائج تلك الليلة.

المهد الأرضي لا يزال في موضعه، تخيلت «طوفان» الصغير يبكي إثر صرخات أسرته، يود لو يتحدث في المهد فينادي من يغيثهم، أو يتحرك بمعجزة ربانية ليرد عنهم بطش الثور وهجمته.

أرسلت الشمس شعرها مسترسلًا فوق الطاولة، سقطت بعض خصلاته الذهبية فوق صندوق خشبي تعرفه «سلَّام» جيدًا، صنعته بيديها لـ «طوفان» قبل خمسة أعوام في يوم مولده.

اقتربت من الصندوق تتحسسه، تبتسم إذ لم تحسب أنه أعجبه، أخذه منها مقطب الجبين كأنه عازف أو مرغم، لم تند عنه كلمة شكر أو بادرة عرفان.

وفي اللحظة التي أوشكت فيها على فتح الصندوق، صرخت الشمس ملهوفة بلوعة، ملوحة بأذرعها اللانهائية لـ «طوفان» الذي وقف في النافذة بغرفة «أبو الأحناش»، غافلًا عن سره الذي في طور الانكشاف.

فتحت «سلَّام» الصندوق تجهل ما ينتظرها بداخله؛ دبوس شعر تذكر أنها أضاعته، مشط رمته عندما فقد خمسًا من أسنانه الخشبية، خاتم مكسور، وعروسة محطَّمة، ووشاح سرقته الريح من فوق رأسها، وقلادة لا تذكر متى وكيف فقدتها، وسوار من الحجارة انزلق من معصمها يوم الزفاف المشترك.

في الصندوق كانت أغراضها تختبئ، ترقد جوار بعضها ككنز ثمين مستتر، جمعه صاحبه قطعة بقطعة، غير عابئ بسريان الزمن من حوله.

اجتمعت أخيرًا أجزاء الأحجية، مشكلة الصورة الوحيدة المنطقية، التي بإمكانها تفسير ما أعجزها وأرقها لأيام.

صاح قلبها بقوة، حتى صار بإمكانها أن تسمعه، سقط ظلها فوق الجدار، تمامًا في الموضع الذي تسكنه الظلال، تتهامس لنفسها والصندوق بين يديها يرتجف: «هل هذا هو سركَ الذي يعذبكَ؟!».

***

الحب مجنون، لا يرى في الحياة إلا نفسه، الكون فيه ضيق بحجم رجل وامرأة وقلب يخترقه سهم كيوبيد.

الحب معركة، لا فائز فيها إلا الحبيان، ولا راية إلا راية العشق المتين، ولا بأس إن تمهد الطريق بأنَّات المجروحين.

الحب درب طويل نحو الأبدية، مفروش بزهور التيوليب على الجانبين، وممهد بشظايا العادات، والحقوق، والواجبات.

الحب جموح، لا تقف أمامه المستحيلات، هكذا يقول الشعراء، ويتغزل بأوصافه الأدباء.

ولأنه يعرف نفسه عاشقًا كما يقول الكتاب، لم يكن أمامه من احتمالات، سوى إنقاذ حبيبته من الأخطار، والهرب بها حيث لا يكون الأشرار.

لما دخل «مشتاق» حديقة دار أهلها كعادته، رآها في الموضع الذي تقابلا فيه أول مرة، كأن التاريخ يعيد نفسه من جديد، يمهد له الطريق الطويل نحو الأبدية، يمنحه سيف فرسان الحب، وقوتهم، وجنونهم، ويهديه فرصة ذهبية كي يعيش سعيدًا إلى الأبد. هكذا فكر «مشتاق» بينما يتطلع بلوعة إلى «فلك» الباكية.

- ماذا حدث؟.. من أذاكِ؟

انتفضت «فلك» تلملم مشاعرها المتناثرة، التي نزعتها من أرض الشعور، وألقتها في الهواء بحنق شديد. أفزعها ظهور «مشتاق» من جديد، هذا الشاب الجريء، خافت أن يراها أحد برفقته، وبخاصة بعد ما بدر منه يوم زفافها، أسرعت تمسح العبرات عن وجنتيها وتقول: «ماذا تفعل هنا؟.. قد يرانا أحد.. أرجوك انصرف».

تقدم العاشق الولهان يرصف طريق الحب بالجرأة والعنفوان، ينفض عنه الخوف، مذكرًا نفسه؛ العاشق الحقيقي لا يخاف.

- أخبريني لماذا تبكين؟
- لا أبكي.
- كاذبة، لن أصدقكِ هذه المرة.
- هذه المرة!

يفتش في وجهها وكفيها عن آثار كدمة، أو رضوض زرقاء وأرجوانية، طويلة وأسطوانية، ناتجة عن خرطوم بلاستيك برتقالي اللون، تخفيها أسفل أكمامها الطويلة.

- يضربكِ، أليس كذلك؟

بينما يسألها تتجعد قسماته، كأنه يقاسي ألمًا رهيبًا متجددًا، يستشعر ضربة الخرطوم فوق ظهره، وكتفيه، وساقيه، الألم الذي تعرفه خلاياه وتحفظه غيبًا.

- لن أسمح له أن يؤذيكِ.

يقولها مندفعًا صوبها، ممسكًا بذراعيها ومقربًا إياها من موضع قلبه، علها تسمع ما يحيكه بشأنها فتطمئن به، ويذهب عنها الألم.

تجرفها مشاعره، تشتتها، وتذبذب عقلها، تفلت ذراعيها من قبضته المحكمة، تنظر حولها بريبة ثم تقول بهلع: «قد يرانا أحد».

- أعتذر أنني لم أنقذكِ سابقًا يا ذات العينين العسليتين، سأصحح هذا الخطأ، أعدكِ.
- أرجوك انصرف.
- هل تعرفين كم اشتقتكِ؟ وجهكِ، عينيكِ، وخصلاتك الذهبية، أُكثِر من النوم فقط كي أراكِ في الحلم، أقول ربما تشفق على قلبي فتزورني

هذه المرة، لو لم تظهري اليوم لكنتُ طرقتُ بابك غدًا، ما عاد بإمكاني أن أحتمل، بينما أنتِ أسيرة عند رجل لا تحبينه، وددت لو أهشم وجه أبيكِ حين رأيته بالأمس في ساحة المرح، لا أعرف كيف طاوعه قلبه أن يرغمك على الزواج برجل يؤذيكِ.

- «هلال» لا يؤذيني.

- لستِ بحاجة إلى الكذب أمامي، يؤذيكِ، يعرف كيف يبكيكِ.

أخذ نفسًا ثم استطرد: «أنا هنا لأجلكِ، لم أرحل، شربتُ الماء عامدًا، لم أهرب من الواحة، ولم أخَف من لعناتها، أنتِ سبب بقائي، لن أتركِكِ تعيشين حياة لا ترغبين فيها، أنا هنا لأجلكِ».

اقترب منها ثانية يود لو يؤكد قوله، يضمها حيث مسكنها الحقيقي، بيتها الذي ستعيش فيه عندما يجتمعان أخيرًا في نهاية الحكاية. رفعت كفها تمنعه، بينما قلبها ينبض بعنفوان، تتكالب عليها المشاعر، وتخمد فيها التفكير، فلا تعرف ماذا تقول أو تفعل.

بينما تهدج صوته، كانت نظراته تضمها بقوة، وتلمع العبرات في عينيه تأثرًا باللقاء الذي انتظره: «طوال حياتي كنتُ أشعر أنني مشرَّد، في البيت الذي عشت فيه، وفي البيت الذي انتقلت إليه.. عندما رأيتكِ شعرتُ أنني أخيرًا عثرتُ على بيتي».

كل ما استطاعت التفكير فيه، لماذا لم تسمع تلك الكلمات من «هلال»؟ لماذا رغم زواجها ما زالت جائعة؟ الخيالات التي كانت تتغذى عليها سابقا لم تعد تمنحها إشباعًا نفسيًّا، تريد أن تخوض تجربة شعور حقيقية، كهذا الذي يحدث الآن.

رجل يقف أمامها يخبرها أنه عاشق ولهان، يشتاقها في الحضور والغياب، تخبو الحياة عندما تغيب، وتزهر الدنيا في حضورها.

- «فلك» أنا لا أستطيع العيش دونكِ، أنتِ فرصتي الوحيدة كي أكون سعيدًا.. لولا بقية باقية من عقلي، لقلتُ لكِ فلنهرب معًا.

ربما لأول مرة في حياتها لا تتمكن من المجابهة، تتقيد الكلمات عند طرف لسانها، تود أن تسمع المزيد، لولا أنها ما زالت يقظة للخطر المحدق بها. مثل لفحة هواء ساخنة تنذر بعاصفة على وشك أن تثور، شعرت بلفحة من المشاعر المتباينة تعصف بكيانها، وترصف أمامها دروبًا ملونة.

كانت جائعة، وها هو يعد أمامها مائدة الشعور، العامرة بالملذات المشتهاة بشدة.

- إن آذاكِ.. سأحرقه.

زمجرت الرياح في وجهها، كادت أن تطيح بساقها، تحملها، ثم تذهب بها حيث تختبئ الأغراض التي تسرقها العواصف العاتية، أسرعت تهرول صوب الدار، هربًا من كل ما اختبرته قبل لحظات. يصيح «مشتاق» من خلفها، بالكلمة السحرية التي فضت شعورها البِكر: «أحبكِ يا «فلك»».

حملت الريح كلمته، سمعتها، وترددت الأصداء من حولها، أصداء لم تتوقف حتى عندما دخلت الدار، وأغلقت بابها، وجلست فوق فراشها.

كانت الكلمة السحرية لا تزال تتردد، كأنها قيلت للتو.

***

كان ثمة نوع آخر من الحب يطوف في سماء الواحة، حول الشمس المستباحة، حب يدفع المرء صوب التضحية، رغم يقينه بأن لا مكافأة تنتظره في نهاية الدرب.

رجل كل ما يهمه أن تكون هي بخير، حتى وإن كانت بعيدة عنه ألف ميل وميل، لا لشيء إلا لأنها تستحق أن تُحَب، وهو رجل مال قلبه إليها منذ أن تعلَّم كيف يكون الحب.

- الضوء.. الضوء.

همس بها «مطر» مبتهجًا، انتهى به العمل الطويل إلى كنز عظيم.

كان قد استيقظ للتو أسفل شجرة البندق عند مدخل النفق، قدَّر أنه لم يعد بحاجة إلا إلى ليلة واحدة كي يزيح ما تبقى من حجارة تبعده عن الطرف الآخر من النفق. حيث حبيبته الأسيرة في بطن الجبل، وسجَّانها الذي لا يملك قلبًا كقلبه، ولا حبًّا كحبه.

لو كانت الحياة عادلة لمنحته فوزًا محققًا، في معركة الحب المستحيل. الذي رغم استحالته، يتشبث بثنايا قلبه، ينسكب بداخله، ويختلط بدمه.

حب صامت لا صوت له، محكوم بالفناء، ككل أصوات الواحة الحبيسة في صدور أصحابها.

حب غير متطلب، لا ينتظر مقابلًا، ولا يرجو من الحياة شيئًا.

عليه أن يصل إليها في محبسها، ويخبرها أنها شجاعة، ورحيمة، وقوية، لا تشبه ما يقولونه عنها، يخبرها أنها امرأة جميلة، حتى وإن لم تتذكر ذلك.

يريد أن يصل إليها ليكون ذاكرتها المنسية، ويؤكد أنها كانت ولا تزال النجمة التي تضيء سماء الواحة، عندما يحل الليل ويشتد الظلام.

يخبرها أنه ليس ناقمًا عليها لأنها لا تتذكر، بل ممتنًّا لكونها لا تزال كما عرفها، لا تسكت عن الظلم أبدًا.

يراوده أمل صغير بحجم حبة بندق، أن تعود ذاكرتها يومًا. لتهنأ باختيار قلبها وتسعد.

***

(3)

أيقظتها رائحة لذيذة، وتربيتة حانية فوق كتفها، ثم همسات بجوار أذنها: «لم تأكلي شيئًا منذ الأمس».

قواها خائرة، والرؤية مشوشة، ومزاجها مضطرب.

أرسلت نظرة امتنان صوب المرأة الخمسينية التي باتت معاملتها أقل حدة مما كانت عليه في يومها الأول بالجبل.

استطردت «فضة» بفخرٍ، وهي تشير صوب صينية الخوص التي تحملها، وما فوقها من لذائذ: «أعددتُ لكِ «فتَّة الحليبة»[1]، قطع صغيرة من العيش الشمسي، فوقها حليب بقري ساخن وقليل من السكر».

تركت الصينية فوق ساقيها وأضافت: «وهذه فطائر «فضة» المشهورة، هشة ومحشوة بعجينة البلح».

منحتها ابتسامة صغيرة ممتنة، تلذذت بما جادت به الطباخة الماهرة، لم يستمر هناؤها طويلًا، إذ طاف بخاطرها لقاؤها مع القاضي قبل نومها، والحديث الذي دار بينها والممسوس داخل الخزان.

لم تثقل عليها «فضة» بالحديث، تركت لها ملابس نظيفة فوق المقعد، ثم دارت على عقبيها تمنحها فسحة للتفكير فيما يشغل عقلها الذي بدا شاردًا.

- ما اسمها؟

تفاجأت «فضة» بالسؤال، فتطلعت إليها مستفهمة. قالت «سراب» متوترة: «المرأة التي تحسبونني هي».

- أما زلتِ على عنادكِ؟

قالت الطباخة مستنكرة، ثم أردفت: «أرى أنكِ لا تتذكرين.. لكن لماذا العناد؟.. تعرفين أنكِ هي.. هذا ما نقوله لكِ منذ أتيتِ إلى الجبل».

---

(1) من الأكلات الشائعة بقرية الراشدة، بالواحات الداخلة.

لم يكن عنادًا كما تحسب «فضة»، بل حالة إنكار مستفحلة، تمر بها الفتاة التي ترفض أن تكون تلك المرأة التي يتحدثون عنها، تقول في نفسها: *ربما الجميع واهم*.

يثقل عليها استيعاب الخديعة التي اشترك فيها أقرب الناس إليها، لا تريد أن تفكر فيهم على هذا النحو كأسرة لئيمة تسعى للانتقام، مستغلة فقدانها للذاكرة.

الشيء الوحيد الذي ما عاد بإمكانها أن تنكره، هو هذا الوجه الذي تحمله، الذي يبدو أنه لم يخضع لأي عمليات تجميلية تغير من بنيته!

لم يبدل الحريق الأول ملامحها كما زعموا لها، هذا ما تؤكده عين الممسوس الفاحصة.

هذا الوجه الذي ظلت لثلاث سنوات تبغضه، كونه دخيلًا عليها، اتضح أنه جزء أصيل منها، لا شيء تغير فيها إلا صورتها الذهنية عن نفسها.

خضعت لعملية تجميل بالفعل، لا لوجهها بل لذكرياتها.

لكنها لا تزال ترفض أن تكون ذات البرقع القاتلة، التي اشتركت مع الجدة في مكيدة محكمة، للانتقام من الجد الذي تزوج بغيرها.

- لم تخبري أحدا باسمك.. إلا...

قطعت «فضة» عبارتها بتردد ملحوظ، حثتها «سراب» التي لا تعرف لنفسها اسمًا سواه: «إلا..؟».

- اسألي الممسوس.. سيخبركِ.

قطبت جبينها، وتبدى انزعاجها، لماذا لا يعرف سوى الممسوس اسمها؟ ليس أكثر من رجل أنقذها عندما كانت فاقدة للوعي عند مدخل الواحة، هذا إن صحت الحكاية التي يروونها.

- «الممسوس».. هل له اسم؟

- بالطبع له اسم.

انتظرت أن تقوله المرأة دون سؤال، وعندما تباطأت، حثتها: «ها؟».

- «رعد».. لكن ما عاد أحد يدعوه باسمه.

لوهلة بدا لها اسمًا غريبًا كأنه قادم من مجرة أخرى، لا تمت بصلة لكوكبها الأرضي، وفي اللحظات التالية بدا مألوفًا جدًّا إلى الحد الذي جعلها توقن أنه تردد على لسانها من وقت قريب، أيام ربما، لا تذكر متى بالتحديد!

خرجت تتجول في الممرات بعدما عرفت أنها غير مضطرة إلى المكوث في غرفتها، وأنها حرة الحركة، حذرتها «فضة»: «لا ممرات مهجورة.. ابقي حيث يعيش الجميع.. كي لا يتكرر ما حدث بالأمس».

لا يزال الوهن ينخر عضلاتها، تتمسك بالجدر الصخرية أينما تحركت، تراقب الجميع من حيث لا يرونها، لا يرفع أحدهم عينًا في وجهها.

بدت مدينة الجبل كخلية نحل، يجيد كل فرد فيها أداء دوره المنوط به، لم تجد أثرًا لملك النحل، ولم يجِبها أحد عندما سألت عن مكانه، إلى أن أرشدتها فتاة صغيرة قائلة: «عند شجر السنديان الأسود».

ولم يكن لديها أي علم عن ذاك الـ «السنديان الأسود»، لكنها قدَّرت، أنه ينمو بمكان ما خارج الجبل.

مرت بمدخل الجبل الذي جُلد فيه الرجل بالسوط، كان سكان الجبل يعدون الساحة الواسعة أمامه لحدث مهم، هذا ما استنبطته من اهتمامهم بالإعداد والتزيين.

وقفت أمام الجبل تتطلع للمساحات الشاسعة أمامه، فاصل من الرمال الكثيفة الممتدة، تتبعها غابة كثيفة الشجر، تحيط جانبي الجبل في نصف دائرة.

غابة لم تتمكن من رصدها عندما كانت في الواحة تنظر إلى الطرف الآخر من الهاوية، إذ حجبها الجبل عن الرؤية.

بدت مغرية للتجول بين أشجارها واستكشاف أحراشها، لا تعرف كيف يكون شكل شجر السنديان الذي ذكرته الفتاة، لكنها استطاعت بعدما مشيت لعشر دقائق بعدًا عن الجبل، أن ترى الممسوس يوليها ظهره، بجوار شجرة لم تكن سوداء كاسمها، منهمكًا في ترتيب عشرة مجسمات صغيرة من الفخار في صف عرضي، يبعد كل واحد عن الآخر بعشرة سنتيمترات.

وعندما اقتربت أكثر ثارت بداخلها رياح الدهشة، كان الممسوس يقف على بعد خمسة أمتار من المجسمات الفخارية، يشد نبلته المطاطية بين أصابعه المغطاة بالقفاز الأسود.

وقفت على مبعدة تتطلع إلى مهارته في التصويب نحو خمسة من المجسمات، أصدرت فرقعات متتالية عند انكسارها واحدًا تلو الآخر.

أوقع خمسة، وبقيت خمسة في موضعها تنتظر أن يصوب الحجارة تجاهها. اقتربت حيث يقف، جاورته دون أن تلقي التحية، استمر في التصويب بنبلته، دون أن يلتفت.

شبكت ذراعيها أمام صدرها وقد أزعجها التجاهل المتعمد، ومسلكه المترفع، يحيط نفسه بدرع آخر غير الذي يرتديه فوق صدره، درع من الصمت المغزول بصبر دؤوب.

قالت بغتة من غير تمهيد يسبق حديثها: «لا بُد أن أهنئكَ، أحسنتَ اختيار أتباعك، لم ينظر أحدهم إليَّ أو يتحدث معي منذ أن حذرتهم، لقد أجدتَ تدريبهم».

لم تند عنه حركة واحدة تشعرها أنه سمعها، شد النبلة إلى أقصى حد تبلغه ذراعه، مال بجانب وجهه في اتجاه يده الممسكة بالحجر الصغير، ثم راح يتخير بدقة الوضع المناسب للتصويب فوق المجسم السادس.

- كنتُ سأقدم لكَ عدة مقترحات لمكافأتهم لكنني رأيتهم يعدون الساحة للاحتفال، من ستجلد هذه المرة؟ أم أنك جهزت فقرات أكثر إثارة من السوط ومقصلة العصور الوسطى؟

أصاب المجسم فأصدر فرقعة صغيرة قبل أن تتناثر شظاياه فوق الرمال، انحنى ببطء مُتلِف للأعصاب، يلتقط حجرًا آخر، ثم يستقيم بجذعه المشدود، مرسلًا نظراته بعيدًا، متخذًا وضعية التسديد مرة أخرى.

لم تُحدِث ولو شرخًا صغيرًا في درع الصمت الذي يصدِّره، أغاظها ذلك واستجلب التوتر إلى نبراتها بينما تناديه محتدة: «أنتَ أيها الهزيم المفزع».

تجمد لوهلة، توقفت خلالها الرياح عن الحركة، حسبت أنها نجحت أخيرًا في إحداث الشق الذي سيدفع الدرع للتصدع، إثر ضرباتها المصممة المتتابعة. لكن هذا لم يدُم سوى لحظات، عاد بعدها يستعد للتسديد بدقة، بينما الريح تروح وتغدو، يصيب الهدف السابع من غير خطأ يُذكَر.

أغاظها أن يملك مهارتها في التصويب، كانت تتفاخر بكونها الوحيدة في محيطها التي تتقن استخدام النبلة، لم تحسب أن يومًا ما سيخرج أمامها غريم مثله.

يتقن اللعبة كما لو يمارسها عمرًا بأكمله.

- بالمناسبة، أردتُ أن أشكرك على شهامتكَ.. تركتني بالأمس وسط الخزان وقد بلغت المياه حلقي، تصرف متوقع ممن هو مثلك، لم أندهش قط.

أسقط الهدف الثامن والتاسع بحجر واحد، ما جعلها تطلق صيحة دهشة خافتة، ثم تعض شفتها ساخطة، لو كان الذي أمامها رجلًا غيره، لأثنت على مهارته، ولسألته بلهفة كيف فعلها؟

حام طير صغير حولهما، يصدر صوتًا مزعجًا متواصلًا، اجتذب اهتمامه وجعله يحرك رأسه أينما طاف الطير حتى ابتعد.

منح للطائر من الاهتمام ما لم يمنحه لوجودها.

- غريب أن يكون اسمك كوصفك.. صوتٌ مزعج.

استوقفته عبارتها المستفزة، ولأول مرة منذ حديثهما العاصف في الخزان يلتفت صوبها، يلقي عليها نظرة جامدة، لا لين فيها. نظرة تظللها سحابة رمادية عكرة، تتجول برعونة فوق قسماتها، بتصريح ذي صلاحية دائمة.

سألها بنبرة ساخرة مستترة: «نسيتِ كل شيء وتذكرين اسمي؟».

- أخبرتني به «فضة».

أسرعت توضح بلهفة، لئلا يظن أنها تتذكر، ومن ثم تعترف بأنها المرأة التي أحدثت كل هذا الدمار من حولها.

تفكرت في رعد السماء؛ صوته هزيم، ووقعه زنيم، ومَن يجهله في نعيم، ينتج عن اصطدام الغيمات ببعضها، عند الاصطدام تفرغ الغيوم شحنتها الكهربائية، وترسل حولها حرارة عالية، تسخن الهواء وتمدده، تهزه وتخلخله. فيحدث الرعد الذي يفزع الأسماع بأزيزه المفاجئ وإيقاعه المحتدم.

كم يشبه المرء منا اسمه؟ هذا ما كانت تتساءل بشأنه عندما طوى النبلة في قبضته، ثم سألها: «ماذا تريدين؟».

- أريد أن أعرف اسم تلك المرأة التي تتحدثون عنها، ولا تقول لي ذات البرقع، أريد اسمها لا وصفها.

ضيق عينيه متسائلًا: «ولماذا تظنين أنني أعرفه؟».

- «فضة» هي مَن تظن.

كادت أن تقول: ولماذا لا أظن أنكَ تعرفه، بينما تحفظ تقاسيم وجه صاحبته كخطوط كفك؟

«لماذا أحرقتني؟» هذا هو السؤال الذي يؤرقه، لا تتخيل كيف يكون ألم الاحتراق على يد شخص تعرفه.

حام الطير مرة أخرى فوق رأسيهما، بصوتٍ غليظ لا يهدأ. تمط شفتيها وتتمتم: «طير مزعج».

- أواثقة أنه ليس من أقاربكِ؟

رفعت حاجبها في إشارة ساخطة، رأت الغيوم الرمادية تبتعد، وتحل محلها في عينيه نظرة لئيمة متفكهة، عاد إلى طبيعته، إلى ما قبل النهاية العاصفة في الخزان. خلع درع الصمت مسترسلًا: «بالمناسبة، أعرف كيف أكافئ رجالي».

- قتل في الهواء الطلق، مبارزة بالهراوات في أحراش الغابة، مصارعة ثيران عند مدخل الجبل، سحل رجال الواحة خلف الأحصنة.

- شيء من هذا القبيل.

- لا تدعُني إذن، فهذه المرة لن أقف بين صفوف المتفرجين، لن أسكت على الظلم أبدًا.

سددت له نظرة تهديد مستعرة، كأنها لا تدرك أن أسلحتها لا تزيد على نبلة صغيرة ترقد في جيب ردائها، عندئذ تذكرت ما قاله «مطر»، أن سلاح المرأة التي يكرهها أهل الواحة كان قلبها، القلب الذي لا ينهزم أمام الخطوب والأخطار والمآزق المتلاحقة.

ما زالت واقفة على قدميها، محتفظة بثباتها، مدركة أنها أفضل مما يزعمون، ليست ذات البرقع المجرمة، بل «سراب» الحفيدة، التي يجهلها جدها. يخدعونها، ويحيكون فوق أرض الجارة السوداء ما يغفل عنه عقلها.

طافت تلك الأمور بخاطرها، تجاهد كي تتمسك بما تعرفه، وتنكر ما سواه لئلا تفقد الفتات المتبقية من يقينها.

وكان هو مدركًا لهذا الصراع المحتدم بداخلها، وبدلًا من أن يفيض عليه من الحديث ما يطفئه، أجج النزاع بمقالته: «تعرفين جيدًا مَن يكون الظالم في هذه الحكاية».

أخرجت النبلة من ردائها، التقطت حجرًا صغيرًا تشحنه بكل الغضب الذي سرى في عروقها، هل هذا ما كان يفعله عندما كان منهمكًا قبل قليل؟ يتخيل أنها أحد تلك المجسمات الفخارية التي تتحول إلى شظايا متناثرة؟

تخيلت أنه هذا المجسم العاشر، اتخذت وضعية التسديد، وبمهارتها المعهودة حققت نصرًا مؤكدًا.

عندما التفتت إليه، رأت في عينيه نظرة لم تفهمها، علها لمُعلم فخور بتلميذته!

- لستُ مَن تظنونني.. أنا «سراب» الحقيقية حتى وإن أجمع العالم على غير ذلك.

تقول ذلك بثقة مزعومة، وقوة هجينة، يخالطها شك، وضعف، ورغبة مستحيلة.

وارت ضعفها خلف أكوام الغضب الذي لم يفلح الحجر في امتصاصها: «لماذا لا يكون جدي هو صاحب الحيلة؟.. يتهم زورًا عجوزًا مقطوعة اللسان فقدت زوجها هجرًا وابنتها موتًا.. لماذا ترغب هذه العجوز في إلحاق الأذى بالزوجة الثانية؟ ألم تكن تلك الزوجة هي الساحرة القديمة للواحة؟ لماذا لا تكون تلك المرأة هي شرير الحكاية ومن حولها تتناثر الضحايا؟.. لا بُد أن الزوجة الثانية هي الظالمة، تلك المرأة مجرمة».

اندفع ثائرًا يختزل المسافة بينهما في خطوة واحدة، يرفع سبابته محذرًا، يصيح بقسوة ممزوجة بالألم: «إياكِ وذِكرها بما يسوؤني».

بينما تقهقرت للخلف خطوة، عصفت الأفكار بها، وأمام عينيها تطوف مقاطع مجتزأة من حوارات متفرقة؛ أخبرتها «سلّام» أن جدها تزوج بالساحرة القديمة، وأخبرتها «فضة» أن القاضي والممسوس عثرا عليها أولًا، وأخبرها القاضي أنه فتح لها داره يؤويها، وحذرها الممسوس سابقًا ألا تذكر أمه بسوء.

علت الدهشة قسماتها، ترنو إليه بعينين مشرعتين على المفاجأة، تسأل مستريبة، تخشى الحقيقة: «لماذا أزعجكَ حديثي عن الزوجة الثانية للقاضي؟».

خلع القفاز الذي يواري كفه اليمنى، انخفضت نظراتها صوب ظاهر اليد التي تناثرت فوقها آثار النار، انجذبت لتلك المواضع كأنها مغناطيس ذكريات

يقلب عليها أوجاعها، الأثر الذي عند رقبتها وكتفها وربلة ساقها، وما تذكره عن ألم رهيب يذيب شحوم وجهها.

لحظة ألم، هذا ما تتشاركه مع الممسوس ويقطع دوائرهما المتباعدة، لحظة ألم لا يختبر الجميع مثلها.

- لأنها أمي.. إياكِ والتجرؤ مرة أخرى على ذمها.

لا تؤلميني من جديد، هذا ما يريد قوله، تنجح كل مرة في أن تنكأ له جرحًا، دون أن تعرف أنها تفعل.

بداخله خراب وأطلال ومدن مدمرة، والشيء الوحيد الذي يؤكده أنها المعول الذي دمَّره.

التحمت نظراتهما في اتصال طويل محتدم، تتقافز المعلومات الجديدة داخل عقلها، بينما يحاول في أجزاء من الثانية الخروج بنتيجة واضحة، عما تعنيه تلك الحقيقة المروعة، وما تؤثر عليه من قرابات وعلاقات. أجهدت عقلها، عاجزة عن الاعتراف بما استخلصه عقلها للتو، وقدمه لها على مائدة المعالجات المنطقية، والحسابات التي لا تخيب.

وبينما كانت في طريقها صوب الإنكار، قطع عليها «رعد» الشك باليقين، رفع يده التي نزع عنها القفاز، إلى أن بلغت ذقنها، تمامًا فوق الشق الصغير الذي يقسمه نصفين، الذي عرَّفه من قبل بطابع حُسن.

بينما يضغط بإبهامه فوق منبت الحُسن، يتمدد الهواء من حولها، تتخلخل ذراته، وترتفع حرارته، تصطدم الغيمات وترعد.

تشعر بباطن كفه خشنًا، مجروحًا، كأنه حفر مدينة الجبل للتو، غرفها وممراتها وشرفاتها.

كأنه بهذه اليد العارية نحت الجبل وحده.

بصوت مشحون بالعواطف قال: «إذا كنتِ تصرين أنكِ «سراب» حفيدة القاضي، الرجل الذي كان يُعرف بـ «أبو العيون».. في هذه الحالة عليكِ أن تقبلي بكوني خالكِ.. وأخًا لأمكِ من الأب!».

نظر إليها متحديًا، ومتشفيًا في آنٍ واحد، يُلقي بها وسط الهاوية، هاوية الحيرة، والعجز عن الاختيار.

- ما عاد بإمكانكِ الهرب.

ثمة شيء في صوته غير الغضب، دخيل لا يعرف القساوة، ثابت مثل صخرة، لين مثل سحابة، يهزم كل ما تجيده من ألاعيب التجاهل. ثمة شيء في عينيه غير الغضب؛ دفء وشوق ولوعة ولهفة، يُمرر فوق قسماتها نظرات عاشق مجروح يتألم، وحبيب مهجور يتمزق.

إما أن تتمسك بأنها «سراب» المزعومة وتترك تلك اليد الخشنة حيث هي، تقبل بكونه واحدا من محارمها. وإما تبعدها عن وجهها، تخرج من طور الإنكار لتُقر أخيرًا بأنها المرأة التي سببت كل هذا الدمار.

عليها أن تقرر الآن، أي الهويتين ستختار؟

لم يكونا بمعزل عن الأعين كما حسبا، ثمة عين راصدة كانت تراقبهما من إحدى الشرفات، عين الساحرة التي لا تغفل.

تتعجب ساحرة الجبل وتنزعج من الممسوس الذي تأخر في جز عنق الفتاة القاتلة.

تراقب المسافات التي تتقلص بينهما بدهشة ظاهرة، لم تعهده يقترب من امرأة مثلما يفعل الآن، بينما تتمتم لنفسها تضرب قبضتيها إطار النافذة: «لا أكون ساحرة الجبل إن سمحتُ لهذه الفتاة بإفساد خطتي!».

يُتبع بالكتاب الثاني.